

0204918

اهداءات ٢٠٠١

ا.د/ المرحوم زكى على

القاهرة

الجامعة الأزهرية
كلية أصول الدين

محاضرات

في التاريخ المصرى القديم

ألقاها الأستاذ

عبد المنعم أبو بكر

أستاذ التاريخ المصرى القديم

لطلبة مادة التاريخ

بكلية أصول الدين

١٩٣٩ — ١٩٤٠

طبعة خاصة للكلية

طبعة شبرا ومكتبتها ببرارها مع الخزانة العامة ٥٨٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد دائماً وعلى رسوله الصلاة والتسليم وبعد
فقد ظهرت لى رغبة طلبتى فى قسم مادة التاريخ بكلية أصول الدين أ
أقدم إليهم هذه المحاضرات كما ألقيتها عليهم فأجبتهم إلى ذلك خدم
للعلم الذى ندرسه ، وشغفا بمصر التى تعرض حضارتها وتحقيقاً لأملهم عندي وهو
مما أسعد به وأنفض اليه والسلام .

عبد المنعم أبو بكر

التاريخ المصرى

مقدمة

التاريخ من أهم الدراسات التى تساعدنا على تحليل عوامل البيئة وعلى اظهار الأسباب التى دعت إلى تطور معيشة الانسان الذى بدأ حياته بأب سكن الكهوف والمغاور ثم تقدم فى سبل حياته فنزل إلى الوديان الواسعة ثم تعلم الزراعة فأجبر على الاستقرار فى منطقة واحدة وهنا اندمج الفرد فى الجماعة والجماعة فى الحكومة

ودراسة التاريخ القديم تختلف عن دراسة التاريخ الحديث فى شىء واحد هو ان الوثائق ليست فقط المرجع الوحيد للمؤرخ بل كل ما يحيط بالانسان من آثار . فنحن فى دراسة التاريخ القديم يهمنى أن نتبع الانسان منذ عاش فى الكهوف . ندرس ما خلفه لنا من آلات استعمالها فى الصيد والقنص كما ندرس عظام الحيوانات التى كان يعيش على لحمها وما نعث عليه فى هذه الكهوف من تجمعات أو عظام هذا الانسان

فى هذه العصور الأولى التى سبقت عصور الوثائق المكتوبة نعتمد فى دراسة تاريخها على ما نعث عليه من أدوات الصوان ومن بقايا الأواني الفخارية . وفى هذه البقايا نجد معلومات وافيه عن مدنيات هذه العصور الغابرة وتطورها وعن اتصال الشعوب بعضها ببعض الآخر

ومن هذا نرى ان المؤرخ يجب ان يستعين ببعض العلوم لدراسة العصور القديمة . هذه العلوم هى علم الآثار وعلم الانسان وعلم طبقات الأرض .

وعلم الآثار علم حديث العهد فى مصر انجذبت اليه الانظار منذ قرن واتخذ . وكان لهذا العلم الى اعوام قليلة موقوفا على الأجانب ونحن لا ننكر أن اللجان فى الفضل

الأكبر في انماء هذا العلم فجهودهم معروفة وابحاثهم لا تزال المورد الوحيد لكل من أراد أن يدرس آثار مصر . ولكن المصري بدأ يشارك الاجنبي في اهتمامه بهذا العلم وخصوصا فيما يتعلق بآثار مصر . وحفائر كلية الاداب سواء في الهرم أو في المعادى أو في تونه الجبل اكبر دليل على نشاط المصري وعلى انه لا يقل عن زميله الاجنبي في علمه وتعمقه في دراسته

مصر في عصر ما قبل التاريخ

نقسم التاريخ المصري إلى قسمين أساسيين
 (١) عصر ما قبل التاريخ (أو عصر فجر التاريخ)
 (٢) العصر التاريخي

ويبدأ العصر التاريخي في الوقت الذي تمكن فيه المصري القديم أن يكتب بالخط الهيروغليفى مايجول في فكره أو ما تعود أن ينطق به . وبظهور نقوش مكتوبه تحدثنا عن الإنسان الذى قطن مصر في هذا العصر وتفسير لنا ما كان عليه من حضارة انقشع لنا ما كان مظلما في التاريخ المصري ومن هنا يبدأ التاريخ . أما العصر الأول فهو العصر الذى لا نعتد في دراسته إلا على ما خلفه لنا المصري من آثار لا وجود لأى نقش عليها ولكنها تدلنا على طريقة حياته وتفسر لنا اعتقاداته ومبلغ تقدمه في حضارته

ومن الصعب علينا أن تحدد مبدأ ظهور حضارة العصر الاول عصر فجر التاريخ لأننا لا نعرف تماما متى استقر نهر النيل في حوضه الحالى ولأننا لا نكاد نجزم بالوقت الذى تمكن المصري فيه من استيطان الدلتا . نحن نعرف فقط أن مصب النيل كان بالقرب من القاهرة وأن الدلتا أحدث في عمرها من وادى النيل إذ أنها لم تتكون إلا بتراكم الطمي بعضه فوق بعض وقد كان وادى النيل غير صالح لسكنى الإنسان إذ كانت مياه النيل تغمره واضطر الإنسان الأول

أن يلجأ إلى التلال والهضاب التي تحاذي وادى النيل ووجد فيها مكانا صالحا لسكنائه ولم ينزل إلى الوادى ليستعمره إلا بعد أن استقر النيل في مجراه ولذلك نكتفى اليوم بأن نقول إن العصر فجر التاريخ انتهى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق م وهذا هو العام الذى بدأ فيه التاريخ المصرى الذى نستند فى تأريخه على وثائق مكتوبة .

ولقد كان عصر فجر التاريخ عصرًا مظلما لم تتمكن من الأهداء إلى دراسته دراسة وافية حتى السنين العشرة الأخيرة وذلك بعد اهتم بعض العلماء بهذا العصر وقاموا بحفائر واسعة فى المناطق التى كان يسكنها إنسان هذا العصر وكانت نتائج هذه الحفائر باهرة أعطتنا صورة تكاد تكون كاملة لتطور الحياة والحضارة خلال هذا العصر الطويل ثم جعلتنا نعتقد أن حضارة مصر فى هذا العصر كانت حضارة مصريه بحته لم تأت إليها من الشعوب المجاورة بل نكاد نؤكد أنها كذلك لم تأت مع الشعوب التى هاجرت أوطانها ونزلت أرض مصر كما كان يؤكّد ذلك الأستاذ فلندرس بترى Tinders Petrie من قبل وهذا الأستاذ كان من أوائل الذين قاموا بحفائر واسعة من عصر فجر التاريخ. وكان فى كل مرة يعثر فيها على آثار تختلف فى طابعها عما وجده من قبل يرجع ذلك إلى هبوط شعب آخر جديد أرض مصر له حضارة تختلف فى طابعها عن حضارة المصريين وبذلك كان لا يفتأ من حين إلى آخر يتحدث عن جنس جديد وقام بعض العلماء بأبحاث اناتوميه تشريحيه كان من اثرها

إلغاء نظرية بترى والأعتقاد بأن الشعب المصرى فى اول امره كان قد استوطن مصر دفعة واحدة دون ان يتكون من عناصر مختلفة .

اقسام هذا العصر

نقسم عصر ما قبل التاريخ إلى ثلاثة اقسام شاملة : -

(١) العصر الحجري القديم وفيه استعمل الإنسان آلات حجرية كبيرة لم يتقن صنعها كان يستغلها في المدافعة عن نفسه وفي الصيد واثار هذا العصر نجدها في قرنه (بالقرب من الأقصر) وفي العباسية

(٢) العصر الحجري المتوسط وفي هذا العصر استعمل الانسان آلات صغيرة في حجمها مصنوعة ايضا من الحجر واثار هذا العصر نجدها في حلوان ثم بالقرب من كوم امبو عند قرية السبيل ثم في الفيوم

(٣) العصر الحجري الحديث وهنا بدا الإنسان يتقدم في حضارته وطرق معيشته فذهب صنع آلات واستعمل الطمي في تكوين انيته ونجد اثار هذا العصر في نقاده — بلاص — العبرة البلينه — والكاب

وقد كان الجميع يعتقدون ان اثار عصر ما قبل التاريخ محصورة في مصر العليا ومصر الوسطى وان الدلتا لم تشارك اقسام مصر الأخرى في حضارتها بل ظن الكثير ان الدلتا لم تكن لها حضارة البتة . حتى وفق الاستاذ يونكر في سنة ١٩٢٨ إلى العثور على بعض اثار من العصر الحجري الحديث في مرمده بنى سلامة غرب الدلتا وعلى بعد خمسين كيلومتر من القاهرة . وقام الاستاذ محفائير هناك منذ عام ١٩٢٩ واثبت ان للدلتا حضارة ترجع الى هذا العصر وبعد ان تم اكتشاف اثار الدلتا يحق لنا الآن ان نقسم حضارة مصر في العصر الحجري الحديث إلى قسمين .

: حضارة الشمال ب حضارة الجنوب

حضارة الشمال

ونجدها ممثلة كما قلنا في حفائر مرمدة بنى سلامه . وفيها نرى أن الإنسان عرف كيف يستغل الأرض بزرعها ثم كان يربي الحيوانات المنزلية مثل التيران والغنم والكلاب والخنازير ولم يترك الصيد بل كان لا يزال يصطاد الوحوش والسمك وحصان البحر وبهذا نرى واضحا أن الإنسان العاصر الحجري الحديث بذ أخاه الذي عاش في العصور المتقدمة والذي اقتصر في معيشته على الصيد والقنص .

زرع الإنسان الدلتا القمح في المزارع التي تحيط بقريته وبعد الحصد كان يجلب القمح ويخزنه في أكياس كبيرة موضوعة في حفر في الأرض . أما القرية فكانت مستديرة يحيط بها سور من جذوع الأشجار . يتوسط القرية « العشش » التي كانت أيضا مستديرة سطحها عال يشبه « الشمسية » وجدرانها قليلة الارتفاع مصنوعة من القش . ثم في أيام الشتاء الباردة كانوا يلجأون إلى حجرات بيضاوية مبنية من الطمي ومدفونة إلى نصفها في الأرض وكانوا لا يننون لها بابا بل كانوا يصعدون إليها ثم يزلون فيها بواسطة سلم بسيط درجاته من عظام فرس البحر

أما ما وجد من آلات استعمالوها في حياتهم المنزلية فيبدل على تقديم حضارتهم وهذه الآلات كانت الخناجر والسكاكين والبلط من حجر الصوان ثم أوانهم الفخارية كانت متعددة الأشكال منها ما يشبه الأطباق « والسلاطين » والزجاجات .

وهذه الحضارة مهمة جدا لأنها أرتنا لأول مرة طريقة جديدة في دفن الموتى فبينما اعتاد الناس في مصر العليا ومصر الوسطى دفن موتاهم في جبانات بعيدة عن قراهم نجد أن هذه العادة غير مستعملة في مرمده فهنا كانت الموتى تدفن في وسط القرية وذلك لكي يشاركوا الأحياء الأحياء في أكلهم وشربهم وفي أعيادهم وأغرب من هذا أنهم لم يضعوا مع الميت حاجياته الخصوصية

على نحو ما كان يفعل مصري الجنوب في هذا العصر وكل المصريين القدماء في
المصور التاريخي.

حضارة الجنوب

١ « مصر الوسطى »

وهي جزء من المناطق التي تمت حضارتها بالصلة إلى حضارة الجنوب
ونجدها ممثلة أولاً - في العمري « بالقرب من حلوان » وهي تشابه في بعض
نواحيها حضارة « مرمد » إذ أن العرش كانت أيضا مستديرة ولكن المقابر
كانت بعيدة عن القرية وكل مقبرة كان يعلوها تل صغير من الأحجار لتمييزها
وبالقرب من كل مقبره مربع يحيطه سور قليل الارتفاع من الحجر لأجتماع أهل
الميت عند زيارتهم للمقبرة . وهنا بدأت عادة إعطاء الميت بعض حاجياته التي كان
يعتز بها أثناء حياته

ونجد أيضا هذه الحضارة ممثلة في الفيوم : والحفائر في هذه المنطقة لم تتم
بعد وما وجد فيها يدل على أن التشابه بين حضارة الفيوم وحضارة مرمد ضئيل
وأقل بكثير من تشابهها بحضارة العمري

(ب) مصر العليا

ونحن نتابع تقدمها في الحضارات الآتية

(١) حضارة نازا ٢ حضارة البداري (٣) حضارة نقادة الأولى (٤) حضارة

نقادة الثانية :

١ حضارة نازا

هذه الحضارة كانت غير متقدمة من الناحية الفنية سبقت حضارة البداري
أوانيها الفخارية رديئة الصنع وأدوات الزينة كانت قليلة بسيطة غير متقنة لا تعدى
القواقع أو عظام الحيوانات أو خرز المصنوع من العاج .

٢ حضارة البداري

وهي تلي حضارة نازا وعلى حضارة البداري هذه

بنيت حضاره العصر التاريخى المصرى فيها نجد مبدأ تطور الحضارة وتقدمها
خطوة خطوة حتى زهت في عصر الأسرات . وفي كل ناحية من نواحيها نجد
مصرية المصرى مطبوعة بطابعها المصرى المحض . فالديانة وفن البناء وطريقة الدفن
والاعتقاد في الحياة الأخرى . كل هذه الأشياء نجدها في تطورها الأولى
ظاهرة في آثار هذه الحضارة

كانت القرية حينئذ صغيرة في مساحتها و « العشة » بسيطة في طريقة
بنائها و « الشونة » كانت عبارة عن حفرة عميقة في الأرض تشبه عش النحل
عرف أهل هذه الحضارة الزراعة وتربية الماشية والصيد والقنص وتمتاز هذه
الحضارة عن حضارة الشمال الممثلة في مرمره بما يأتي : -

(١) استعمال السراير من الخشب وقاعدته مملوءة بالقش المجدول

(٢) استعمال وسائد من التيل أو من الجلد

(٣) تقدم صناعة الأواني الفخارية تقدما كبيرا فكانت الأواني محروقة
حرقا جيدا دقيقة في صنعها رقيقة في شكلها

(٤) استعمال الحلس بكثرة منها القلائد والأساور والأقراط للأذن والأنف

(٥) الجبانات كانت قريبة من الترية والموتى كانوا يدفنون عادة على شكل
القزفصاء ويوضعون في حصير والرأس على وسادة

(٦) وجود مقابر دفن فيها تيران وغزلان وهذا يدل على أن أهل هذه
الحضارة عبدوا هذه الحيوانات وبذلك نرى عبادة الحيوانات المشهورة عند
قدماء المصريين ممثلة في مظهرها البدائي في هذه الحضارة

حضارتا نقاده

اعتاد الأستاذ بترى أن يعتبرهما حضارة واحدة ولكننا لو أمعنا النظر
لوجدنا أن هذه الحضارة التي وجدت آثارها بكثرة بالقرب من قرية نقاده تنقسم
إلى قسمين الثاني يكمل الأول ولذلك إعتدنا الآن أن نسمي القسم الأول حضارة

نقاده الأولى والثاني حضارة نقاده الثانية

وأول من قام بحفائر واسعة في هذه المنطقة هو الأستاذ بترى وكان ذلك في عام ١٨٩٥ وشاركه في هذه الحفائر الأستاذ Québell كويل وكما ذكرت من قبل فوجيء بترى بأثار هذه المنطقة واعتبرها حضارة شعب جديد نزل أرض مصر واستوطن هذه الجهة وأسهب في ذلك وأرخ مجيئهم بعصر الأسرة السابعة ولكن بترى اضطر إلى تغيير نظريته واقتنع بأن هذه الحضارة ليست إلا حضارة مصرية لشعب مصرى عاش في عصر فجر التاريخ

ونظرا لكثرة ما عثر عليه من آثار في هذه المنطقة والفرق الشاسع بين بعضها والبعض الآخر في طريقة الصنع وتقدم الفكرة بحيث أن كان من الواضح أن كل هذه الآثار لا يمكن أن تكون من عصر واحد . ولكي يجد حلا لترتيب تطور درجات هذه الحضارة ترتيبا تاريخيا قام بعمل نظرية مشهورة وهي تسمى التأريج المتتابع : وذلك أنه قسم حفائره إلى طبقات وعمل جدولا بما يعثر عليه من آثار في كل مقبرة تقع في طبقة من الطبقات التي قسم إليها حقل الحفائر وفي هذا الجدول دون عدد الآثار التي عثر عليها وخصوصا عدد الأواني الفخارية وشكل كل آنية . ثم قسم هذا الجدول إلى مائة قسم ترك من واحد إلى ٣٠ لما عساه أن يعثر عليه في المستقبل ثم من ٣٠ إلى ٨٠ لآثار هذا العصر ومن ٨٠ إلى ١٠٠ تركه أيضا للمستقبل ثم وضع أشكال وأنواع الأواني الفخارية الغالبة الموجودة في أعماق الطبقات في ٣٠ ثم النادرة من هذه الأنواع والأشكال في ٣١ أو ٢٢ معتمدا على النظرية القائلة إن كثرة عدد الأواني في مقبرة تدل على قدم عصرها بالنسبة إلى الأواني الأقل عددا في هذه المقبرة وهكذا تدرج صاعدا في الطبقات .

- حضارة نقاده الأولى -

وقد وجدنا أن حضارة نقاده الأولى احتلت من جدول من ٣٠ إلى ٢٩ .

وأنواع الأواني الغالبة في هذا العصر هي

- ١ « النوع الأحمر
 - ٢ « النوع الأحمر ذو الحرف الأسود
 - ٣ « النوع الأحمر المرسوم عليه باللون الأبيض
 - ٤ « النوع الأسود ذو الحفر البيضاء
- حضارة نقاده الثانية .

تشابه هذه الحضارة مع حضارة نقاده الأولى من أوجه عدة . وخصوصاً من ناحية أن الأواني الفخارية كانت لا تزال تستعمل بكثرة فيها أيضاً . غير أنه ظهر في هذه الحضارة نوعان آخران من الأواني

١ « أواني ذات آذان موجهة

٢ « أواني صفراء أو حمراء مرسوم عليها بالأحمر الغامق « القاني »

وهناك من يؤكد أن حضارة نقاده الثانية منشأها الدلتا وأنا أميل إلى الاعتقاد بهذه النظرية وها هي ذى الأسباب التي تؤكد كدها

أولاً : من بين آثار هذه الحضارة نجد صولجاناً يشبه الكثرى وهذا النوع لم يظهر في حضارة تازا أو حضارة البدارى أو نقاده الأولى بينما ظهر في حضارة مرمد « بني سلامه » في عصر يسبق هذا العصر بمئات السنين : وهنا تجب الملاحظة بأن صولجان حضارة نقاده الأولى كان يشبه الطبق

ثانياً : انتشار الأواني الفخارية المسماة بالأواني ذات الآذان المموجة في منطقة فلسطين وهذا يدل على أنها ظهرت في الدلتا ثم انتشرت شمالاً وجنوباً مع ملاحظة أن هذا النوع من الفخار لم يظهر في شمال إفريقيا أو بين شعوب آسيا القريبة .

ثالثاً الأواني الصفراء والحمراء المرسوم عليها باللون الأحمر الغامق كانت

تحتوى مناظر تدل على أن منشأها الدلتا . فمثلا رسومات القوارب المتعدده تدل على أنها كانت تستعمل عند قوم تعودوا أن يجولوا مناطق مملوءة بالمياه . ثم على سارية كل قارب من هذه القوارب علامة للأقليم التابع له هذا القارب وإذا جمعنا كل هذه العلامات وعددها ٢٨٨ علامة وجدنا أن ١٩٦ منها تدلنا على أقاليم واقعة في الدلتا .

رابعا أواني عصر حضارة نقاده الأولى الرسوم عليها بالأبيض كانت تصور حيوانات أفريقية مثل الفيل والزرافة وفرس البحر مع أن هذه الحيوانات لم تصور قط على أواني حضارة نقاده الثانية

خامسا ظهر بين آثار حضارة نقاده الثانية نوع من الفخار المطلى بطبقة ملونة لونها أخضر وهو ما نسميه بالخزف واسم هذا النوع باللغة المصرية تعحنو الذى يطلق أيضا على وادى النطرون فى غرب الدلتا . ولعل ذلك لأنه صنع هناك لأول مرة ويشبه ذلك تسمية « الصينى » باسم البلد « الصين » الذى اكتشف وصنع فيها لأول مرة .

عصر ما قبل التاريخ فى نوبيا

بلاد النوبة

ظهرت فى نوبيا حضارة معاصره لحضاره البدارى وتشابهها كل الشبه وخصوصا فى كثرة الأواني الحمراء ذات الطرف الأسود Blacr Aoppes وهذا يدلنا على أن حضارة البدارى انتشرت فى مصر ونوبيا على حد سواء وهذا أمر ليس بالغريب فحضارة البدارى اختص بها الجنوب فى مصر بعد ذلك تأثرت نوبيا بحضارة نقاده الثانية وكان هذا التأثير متأخرا ثم من الغريب أن نوبيا لم تشارك مصر بعد ذلك فى تقدمها السريع بل وقعت وبما

يدهشنا أن وقوفها هذا أو قل جمودها بلغ إلى عام ٢٠٠٠ ق . م اذ اتنا وجدنا في نوبيا الجنوبية من عصر الدولة المتوسطة أواني فخارية لا يمكننا أن نضعها إلا في عصر !قاده الثانية في مصر

تأريخ عصر ما قبل التاريخ

ونقصد بالتأريخ تحديد البدء والنهاية لأقسام هذا العصر بالسنين ولقد سبق أن تحدثت عن هذا التاريخ وقلت أنه من الصعب علينا أن نؤرخ عصور تاريخ مصر في عصر ما قبل التاريخ وقلت أيضا إنه من المهم أن نعرف أنه انتهى عام ٣٢٠٠ ق . م ولكن هناك من حاول تأريخ هذا العصر المظلم على حد التقريب وهو كما يأتي :-

١ « العصر الحجري القديم ما بين سنة ٨٠٠٠ ق . م ، ٧٠٠٠ ق . م

٢ « العصر الحجري المتوسط ما بين ٧٠٠٠ ق . م ، ٦٠٠٠ ق . م

٣ « العصر الحجري الحديث ما بين سنة ٥٠٠٠ حتى ٣٢٠٠ ق . م

وعلى ذلك تكون المدة ما بين ٦٠٠٠ ، ٥٠٠٠ فترة تطور ولعلنا نرى هذا التطور مبينا أوضح تبين في المقارنة بين آثار العصرين المتوسط والحديث . إذ نجد الفرق كبيرا إلى درجة تحمل على الاعتقاد بأن هناك حلقات في سلسلة التطور الطبيعي قد سقطت فلا بد من تقدير فترة مناسبة تكفى لاتصال اللاحق بالسابق .

مصر وحضارتها

لقد صدق الذي قال إن مصر منحة النيل : فكلنا يعرف أن النيل أنجب مصر وهو الذي يمدّها بالحياة، مصر وهي هذه الواحة الكبيرة الممتدة إبتدأ

طويلا . قد حوت شعبا يعد أول شعوب الأرض حضارة وتمدينا . فالحضارة المصرية غذت شعوب الأرض وعلى أسس هذه الحضارة الرائعة بنى أهل اليونان حضارتهم التي يمتز بها إلى الآن شعوب أوروبا ويرجعون حضاراتهم إليها .

وطابع المدنية المصرية لا يمكننا أن نصفه إلا بأنه طابع نبلي زراعى فالنيل في خطره الداهم وفيضانه الموسمى الذى إذا لم ينظم أصبح كارثة بدلا من نعمة ثم في امتداده الطويل واختراقه لكل المناطق المصرية أصبح الطريق الوحيد للمواصلات وقد أجبر النيل المصرى من ناحية على التعاون والاتحاد لكى يتقى شر فيضانه ولكى ينظم هذه النعمة التى خلقت له واديه والتى إذا لم يعرف كيف ينظمها انقلبت شرا وهدمت له قراه وأغرقت حقوله ثم من ناحية أخرى سهل النيل على المصرى التعاون والاتحاد إذ أنه أسهل وأحسن طريق يوصل بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال

ثم أرض مصر الخصبة الغنية بمحصولاتها جعلت المصرى رجل سلام لا يحب التنقل ولا يفكر فى الهجره وجعلته أيضا يتقدم فى حضارته تقدما سريعا فالكسب الهين والحياه السهلة لا تعوق الفزان عن عمله .

عاشت المدنية المصرية مده لا تقل عن أربعة آلاف سنة . ويمكننا أن تؤكد أن مصر طوال هذه القرون العديده أعطت أكثر مما أخذت فهي أول من أقدم للعالم ثمارا يانعة لتفكير طويل وجهود جبارة ، فى مصر اخترعت الكتابة وأصبح الإنسان قادرا على تدوين ما ينطق به وأهمية هذا الاختراع ظاهرة لا تحتاج إلى بيان ثم فى مصر ظهرت القوانين وعلوم السكيا والهندسة والطب والحساب والعلوم الفلكية ثم الفن المصرى الرائع سواء فى التماثيل أو فى الرسومات البارزة كل هذا معروف لا يرتاب فيه أحد

ويمكننا أن نقول أن مصر هى أول من نادى بكلمة الحق والواجب فللحق إله بين الهة المصريين والواجب من أعجد الصفات عند المصريين القدماء

هذه الأمة عاشت حتى هرمت وظهرت أمم أخرى مجاورة عرفت الحياة بعد أن تمسكت بأهداب الحضارة المصرية وحدثت في تكوينها جذو مصر ثم دارت الدوائر على مصر وسقط منها علم القيادة وهاجمتها شعوب فتية فبدأ الغزو الآشوريون ثم الفرس ثم البونان فالرومان . وحلت الديانة المسيحية محل عبادة رع وازوريس ثم العرب فدخل الدين الإسلامى أرض مصر وأدخل لغة اللغة العربية وأصبحت هذه اللغة بمد وهالة لغة البلاد حتى خيل للبعض أن حلقة الاتصال بين مصرنا الآن ومصر الفرعونية قد قطعت ولكن هذا خطأ فإنه إذا كان ديننا الإسلام وإذا تحدثنا باللغة العربية فنحن كنا ولا زلنا مصريين بل أن طرق تفكيرنا والتعبير عن أنفسنا تمت بصلة كبيرة محسوسة إلى المصريين القدماء ثم هناك عادات كثيرة بقيت منذ عصر بناء الأهرام إلى عصرنا هذا نقوم بها ونسير عليها دون أن نعرف أن هذه العادات مصرية قديمة . ولعل من الطريف أن نذكر لكم بعض هذه العادات لتروا إلى أى حد بلغت هذه الصلة بين ماضينا البعيد وحاضرنا الراهن . فمن التعبير المصرى القديم قولنا فلان قام قال كذا ، ويسمى لسانه عليه ، ويتف فى عبه ، كما أن اسم بتاو وبصارة وكلمة توت حاوى ولعبة الميس والسيجة كلها مصرية قديمة .

تقديس الشمس

لما كانت الشمس من الالهة التى عبدها المصريون جميعاً منذ ظهور الحضارة المصرية إلى أن قضى على الديانة المصرية فقد ظلت فى مصر بعض عادات تمت إليها بالصلة حتى اليوم : وأكبر دليل على ذلك أن بعض الناس فى الوجه البحرى لا يزال يقسم القسم الآتى : « وحياة الشمس الحره » (كما فى بلدة سند بسط مصر كز زفتى) وهناك من يقسم قائلا (وحياة اللى تشوفنى ولا أشوفهاش)

أما في الوجه القبلى فهناك من يقسم قائلا (وحياة البهيه عندما تطلع من جبلها)

الشكوى إلى الشمس

وكانت العادة عند قدماء المصريين أن يتشاكوا إلى الشمس ويحكوها في أمورهم ومن بقايا هذه العادة ما يصنع كل طفل مصرى عندما تسقط سن من أسنانه . فيرمى هذه السن المخلوعة طالبا إلى الشمس أن تبدلها بسن أحسن منها فالولد يقول يا شمس يا شمس خدى سن الحمار وهاتى سن الغزال أما البنت فتقول : يا شمس يا شمس خدى سنة الجاموسة وهاتى سنة العروسة :

تقديس بعض الحيوانات مثل ١ القطط (وكانت القطط تدعى بالمصرية

القديمة باست ولا يزال الاسم باقيا في اسم البلد الذى كانت تعبد فيه وهي تل بسطه بالقرب من الزقازيق . ولا تزال القطط من الحيوانات المحبوبة جدا في مصر ومن الغريب ما نقوله عنها . إن القطط بسبع أرواح وهذا ما كان يعتقد المصري في القطط التى كان يتمثل فيها الآلهة رع وهو الذى كان معروف فى المثلثون المصرية بأن له سبعة أرواح) ثم مثل ٢ التمساح الذى بقى احترامه حتى يومنا هذا فنرى بعض البيوت المصرية الحديثة تعلقه على واجهاتها صنما للشر وتتمينا به ويشاهد ذلك فى معظم جهات القطر مع العلم بأن هذا الحيوان أصبح معذوما فى كل جهات القطر المصرى ولا نجده اليوم إلا فى أعلى النيل

ثم الثعبان وعبادته وتقديسه فى مصر القديمة معروف مشهور وبقي هذا التقديس إلى يومنا هذا فى العادة الغريبة التى تؤمن بها وهي أن لكل بيت حارسا وهذا الحارس هو ثعبان ضخم كبير يغالى بعض الناس حتى يقدم إليه اللبن يوميا .

أما تقديس الأشجار التى كانت تعبد فى مصر القديمة فهو شئ نلاحظه

(٤) أما تقديس الأشجار التي كانت تعبد في مصر القديمة فهو شيء نشأ هذه كل يوم . وأهم الأشجار التي تقديس في مصر هي الجيزة والنخلة والسسنة وأهم الأشجار احتراماً هي شجرة الجيزة واحترامها شائع في كل جهات القطر إذ قلما نجد جبانة دون أن يكون في وسطها أو على حافتها شجرة حمير ويعتقد العامة أن قطع الجيزة من الأشياء المحرمة لأنها تروى الموتى وتظللهم

أما العادات المأتمية فأكثرها مصرى قديم : — فتغسيل الميت عادة إسلامية ولكن غسل الميت بماء الورد عادة مصرية (جاء هذا في ورقة اللوفر البردية ترجها Maspero) وأحياناً نجد في الوجه القبلي بعض القرى تغسل موتاهم بماء النبق وقد عثر على نقوش تثبت ذلك في متون الأهرام ولا زلنا نعتقد أن أكل النبق مطهر للفم

ثم عادة قراءة العتاقة للميت مصرية قديمة ولكن هناك بعض الناس يقيم لنفسه عتاقة قبل مماته فيأتي بالفقهاء الذين يقرأون الصمديّة ومنهم من يخط طويل وفي كل دفعة تعقد عقدة حتى تصل العقد إلى عدد محدود ويحتفظ بهذا الخيط لكي يدفن معه .

وكذلك الذبيحة . وتسمى كفارة أو ونيسة

كسر القوارة

كان قدماء المصريين يكسرون وراء الميت عند خروجه من البيت إناء ويضعونه معه في قبره منعاً من أن تعود قرينته إلى الأحياء فتؤذيهم . وهذه العادة موجودة لدينا سواء عند الأحياء حتى لا يعود الزائر الثقيل أو وراء الميت إذا كان قد مات قتيلاً حتى لا ترجع روحه لتؤذي الأحياء

ثم الاحتفال بالدفن

وتوزيع الرحمة : وقولهم رحمة ونور على روح الميت

جهاد مصر في سبيل الاتحاد

طبيعة مصر وامتدادها الطويل لم تسهل في أول الأمر أن تتجاوز مقاطعتان في منطقة واحدة وخصوصاً في مصر العليا . وعندنا من الدلائل ما يجعلنا نعتقد أن مصر كانت حتى عصر فجر التاريخ مقسمة الى طوائف أو جماعات تسكن كل جماعة منها منطقة محدودة . ولم يسهل التجاور بين هذه الجماعات ومناطقهم . سهل في الدلتا إذ أن طبيعتها سمحت بذلك . فساقتها من من الشرق الى الغرب كانت متسعة اتساعها من الشمال الى الجنوب . وكل منطقة من هذه المناطق كانت تسكنها جماعة أو قبيلة يحكمها حاكم ولكل حاكم رمز أو شعار خاص به اتفق العلماء على تسميته توتم هذا الشعار يمثل قوة فعالة مقدسة تكون مصدر حياة وحركة للمنتسبين اليه

ويختلف الشعار أو التوتم باختلاف القبائل ومقاطعاتها . ولقد كان في مصر في العصر التاريخي ٤٢ مقاطعة نظن أنها كانت في الأصل الأقاليم المختلفة التي كانت تسكنها القبائل قبل اتحادها . ويختلف التوتم أيضاً في شكله ونوعه فقد يكون شجرة مثل شجرة الجيز أو طائراً كبيراً مثل الصقر أو أبي فردان .

وكنا نعتقد الى عهد قريب أن مينا هو أول ملك حكم مصر ووحيد أقاليمها وأنه أول من ركز الملكية في مصر ولسكننا عثرنا على حجر تاريخي من عصر الأسرة الخامسة دون عليه أحد ملوكها أسماء أجداده ملوك مصر وكم كانت دهشتنا أن هذا الحجر ذكر أسماء ملوك عدة سبقوا حكم مينا . وهذا جعلنا نرجع الى بحث كل ما كتب في العصر التاريخي من المصريين القدماء أنفسهم وما خلفوه لنا من قصص ديني خاص بهذا العصر الغامض .

وأصبح الآن من المؤكد أن مصر وحدث قبل عصر مينا ثم انقسمت على نفسها ثم أتى الملك مينا ووحدها للمرة الثانية.

ومما يستلفت النظر من بين القصص المصرية المعروفة قصة أوزوريس إذ تزواج الآلهة جب (آله الأرض) مع الآلهة نوت (آلهة السماء) ثم ولد لهما هذين الزوجين أولاد أربعة هم أوزوريس وزيت وايزيس وتفتيس

أما أوزوريس فورث عن أبيه عرش الدنيا وكان عادلاً محبوباً أحسن سياسة الملك ، وعلم الشعب الزرع وشرع له الأحكام والقوانين بينما أخوه زيت كره أن يؤول الملك إلى أوزوريس ويبقى هو حاكماً لمدينة الجنوب فقط بينما أخوه في أول أمره كان يحكم مثله مدينة في الشمال

كاد زيت لأخيه مكيدة ودماه لكي يحضر معه وليمة وكان قد صاغ له تابوتاً من الذهب وبعد أن جلس الناس يتسامرون وفرغوا من أكلهم ولهوهم جرىء بالتابوت وأظهر الملائكة إعجابهم به وتسابقوا في الاضطجاع فيه حتى إذا جاء هور أوزوريس واضطجع فيه أمرع زيت بأغلاق التابوت وإحكام عطاءه عليه ثم رموا بالتابوت في النيل وحملته الأمواج إلى البحر الأبيض ثم إلى بلاد سوريا ثم قذفت به الأمواج على ساحل (جبيلين) وما كاد التابوت يستقر على الشاطئ حتى نبتت شجرة كبيرة أظلتها وغطته عن أعين الرقباء . وبعد حين مر بالشاطئ حاكم (جبيلين) فراقته الشجرة فأمر بنقلها وفيها التابوت الذهبي إلى قصره

أما ايزيس فقد ذهبت تبحث عن أخيها وزوجها في كل مكان حتى قدر لها العثور على الشجرة في قصر الحاكم وما زالت هناك حتى تمكنت من نقل التابوت إلى مصر ووضعته في مكان أمين بين أحراش الدلتا وبقيت بجانبه مدة تندية وتبكيه ثم تركته إلى حين لكي تذهب إلى وحيدها حوريس الذي

بقي في مدينة Buto بوتو

وبينا هي مع ولدها حوريس اذا بزيت يعثر اثناء تجواله في احواش الدلتا على تابوت أخيه فيتور لذلك ويخرج الجثة ويمزقها ويرمي بكل جزء منها في إقليم من أقاليم مصر

وبعد أن تعرض حوريس قام لينتقم لآبيه وبعد نزاع طويل وكفاح مر تمكن من استرداد الملك وأصبح بذلك ملك مصر بأجمعها
إننا إذا تأملنا في هذه القصة التي أصبحت فيما بعد قصة دينية تحدثنا عن الآلهة أوزوريس وزيت وحوريس وازيس نجد أنها تحدثنا عن الحالة السياسية في عصر فجر التاريخ . فالآله أوزوريس كان مقره شرق الدلتا وحوريس غرب الدلتا وزيت مقره مضر العليا .

وفي هذه الحالة يمكننا أن نفسر هذه القصة بأن أشد حكام الجنوب تمكن من مهاجمة الدلتا وقوض أركان حكم ملكها ويعتدوهة تمكن أحد حكام شرق الدلتا من إرجاع السلطة ومن توحيد الجنوب مع الشمال .
ثم هناك أدلة أخرى تدلنا على أن الحالة السياسية في هذا العصر تطابق ما استنتجناه من هذه القصة

(١) عبادة أوزوريس كان منشأها الدلتا ثم استقرت بعد ذلك في مضر العليا في ابيدوس (العراة المدفونة)

(٢) انتشار حضارة نقاده الثانية في الوجه القبلي ولقد أثبتنا قبل ذلك أنها نشأت في الدلتا

(٣) ثم كان أوزوريس يلبس أولا تاجا مكونا من ريشتين
ثم لبس بعد ذلك حوريس تاجا مزدوجا مكونا من تاج الوجه القبلي وهو التاج الأبيض ومن الريشتين

مصادر التاريخ المصري

الآن وقد تركنا فجر عصر التاريخ سنبدأ نشرع في العصر التاريخي وأعتقد أن كلا منكم سوف يتساءل : ماهي المصادر التي نستمد منها ما نعرفه عن مصر القديمة .

هذه المصادر تنقسم الى قسمين : الأول وهو وهو أو ثقتها ما خلفه لنا المصريون من آثار عديدة ونقوش لا تحصى وخصوصاً القوائم التي أراد بعض ملوك مصر أن يخلدوا عليها أسماء الملوك الذين سبقوهم في الحكم وهي : (١) أقدم هذه القوائم هي التي نسميها قائمة حجر بالرمو وهي التي تحدثت عنها فيما سبق وتذكر ملوك مصر حتى الأسرة الخامسة

(٢) قائمة ملوك أبيدوس وهناك نسختان منها إحداها في متحف القاهرة والثانية في المتحف البريطاني . نقشتا في عصر الملك سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة (حوالي عام ١٣٢٠ ق. م) وذكر فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر من أول مينا حتى عصر سيتي الأول وحذفت من هذه القائمة أسماء الملوك الذين حكموا في عصر الهكسوس وكذلك أسماء عصر اخناتون ثم سمنخكارع وتوت عنخ آمون والملك إي . والسبب في ذلك واضح إذ أن ملوك الهكسوس كانوا أجانب دخلوا مصر فازين متعسفين ولا يهتمون بأي صلة الى مصر . أما عصر اخناتون فكان يعد عصر الملوك الذين خرجوا على دين آمون وادخلوا البدعة الجديدة في رأي المعبرين وهي عبادة الآله آتون وتوحيد الآلهة في مصر .

(٣) قائمة ورقة ثورين البردية : كتبت هذه الورقة البردية أيضاً في عصر الأسرة التاسعة عشر وهي تمتاز بذكر أسماء الملوك ومدة حكمهم بالسنين والشهور

واليوم ولقد ذكرت كل الأسماء ولم يحذف أى عصر ولكن نأسف لأن هذه الورقة البردية ممزقة شر تمزيق ولقد ضاع جزء كبير منها ولكن مع هذا ساعدنا ما تبقى منها على معرفة أسماء ملوك عصر الهكسوس وكذلك ملوك الدولة الوسطى الذين ذكروهم الورقة وحفظ الجزء المكتوب عليه هذه الأسماء تمام الحفظ

(٤) قائمة سقارة : كتبت على جدران مقبرة لأمير هاش في عصر الملك رمسيس الثانى (١٣٠٠ الى ١٢٣٤ ق م) ولقد حذف هنا عصر الاضمحلال الأول وعصر الاضمحلال الثانى (وهو عصر الهكسوس)

(٥) قائمة الكرنك : كتبت في عصر الملك تحتمس الثالث (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر) (حوالى عام ١٥٠١ الى ١٤٤٧) وهو الجدول الوحيد من عصر هذه الأسرة ولقد أخطأ كاتبه كثيراً في ترتيب الملوك وتقسيم الأسرة فكتب ملوك الأسرة الثالثة عشرة بعد ملوك الأسرة الخامسة . ثم ملوك الأسرة الحادية عشرة بعد ملوك الأسرة الثامنة عشرة . أما ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد أخطأ في ترتيبهم بأن جعل آخر ملوك الأسرة أول ملوكها وانتهى بأول ملوكها .

المصدر الثانى

ويعمدنا ببعض المعلومات التاريخية وهو ماوصل إلينا من نبد عديدة كتبها المؤرخون القدماء عن مصر في كتبهم التاريخية . وهؤلاء المؤرخون قدموا الى مصر في عصر متأخر ، ويجب ألا ننسى أن مصر في عصورها الأولى كانت مغلقة في وجه الأجانب الذين إن أتوا الى مصر فهم يأتون فقط لمشاهدة معالم حضارتها وتعلمينها . وتقدم عمراتها وأول من سهّل للأجنبي دخول مصر كان .

بسماتيك الأول أول ملوك الاسرة السادسة والعشرين (حوالى عام ٦٦٠ ق.م) والسيب في ذلك ان هذا الملك تبوأ عرش مصر بعد أن ساعده ملك اليونان بجيشه . وبعد النصر أدرك هذا الملك أن عرشه وأمرته لن يتمكننا من البقاء في مصر دون مساعدة الجند المرتزقة وعطف الشعب اليوناني عليه . فسمح لهؤلاء الجند بالبقاء في مصر وشجع اليونان على السفر الى مصر فحضر اليها نفر كبير واعجبوا بها وبمخاضاتها .

هذه البدعة الجديدة أجبرت المصري أن يفكر في طريقة يرضى بها أسئلة هؤلاء الزوار أو السياح . ولذلك نجد ان أول تاريخ كتب عن مصر كان مصدره هؤلاء التراجمة الذين كان من الصعب عليهم أن يخلصوا في مهنتهم إذ أن الأجنبي الذي يتكبد مشاق رحلة طويلة ويحضر الى مصر يود أن يرى ويسمع فقط ما يلد له سماعة وما يلد للسائح يبعد كل البعد عن الحقائق التاريخية ودون لا أول مرة هكاتيوس من مدينة ميليتي الذي زار مصر حوالى ٥٢٠ ق . م ما سمعه من تراجمة مصر في كتابه عن مشاهداته فيها . ثم تبعه هيردوت (أتى الى مصر حوالى عام ٤٣٠ ق . م) ونحن اذا اعتمدنا على هذين المصدرين فانما نعتمد عليهما لأنهما يريانا صورة واضحة لمصر في العصر الذي زار مصر فيه هؤلاء السياح أى العصر الاخير من تاريخها .

ومن أهم من كتبوا عن مصر كان مانيتون الذى كتب تاريخ مصر في ثلاثة أجزاء . ومانيتون عاش في عصر بطليموس الأول أى حوالى ٣٠٥ الى ٢٨٥ ق . م وخصص هذا المؤرخ في كتابه هذا جزء للتاريخ وآخر للديانة وثالثاً للحياة الاجتماعية وملاحظاته الشخصية .

ومانيتون كان كاهناً مصرياً ولو أنه اعتمد أيضاً في كتابة تاريخه على ما كان يتناقله الشعب من أحاديث عن ملوك مصر القدماء وما كان معروفاً عند كهنة

هذا العصر من التاريخ القديم إلا أنه كان بلا نزاع أقرب الى الحقيقة من هؤلاء الزوار اليونان الذين استقوا معلوماتهم من تراجمة الآثار

ومما يؤسف له ضياع كتاب هذا المؤرخ فلم يصلنا منه إلا ما نقله عنه بعض المؤرخين الذين عاشوا بعده بسنين عدة إذ نقلوا بعض أجزاء من كتابه لكي يستشهدوا بها على نظريات أرادوا تحقيقها ومما يؤسف له أيضاً أن هؤلاء المؤرخين لم يهتموا إلا بالجزء المحصر لديانة قدماء المصريين . ولقد اهتم اليهود خصوصاً بما كتبه مانيتون عن الديانة إذ أرادوا أن يظهرُوا هكسوس مصر بأنهم اليهود الذين طردوا في عصر الملك أحس

وأهم هؤلاء الكتاب (١٠) يوسفوس الذي كتب في آثار اليهود وعلق على ما كتبه مانيتون في طرد الهكسوس

(٢) يوليوس أفريكانوس (٣) أويزيليوس

ولقد قسم مانيتون ملوك مصر الى ٣٠ أسرة وأخذنا بنظريته وخصوصاً بعد أن وجدناها تنطبق على ما عثرنا عليه من آثار لهذا العصر الطويل ثم كتب في تاريخ مصر في أوائل ظهور المسيحية ديودور واسترابون .

عصور التاريخ المصري

نقسم التاريخ المصري الى الاقسام الآتية :

- (١) عصر الامرات الاولى ويشمل الاسرة الاولى والثانية
- (٢) عصر الدولة القديمة ويشمل الاسرة الثالثة الى آخر السادسة
- (٣) عصر الاضمحلال الاول ويشمل الاسرة السابعة الى آخر العاشرة
- (٤) عصر الدولة الوسطى ويشمل الاسرة الحادية عشرة الى آخر الاسرة الثالثة عشرة

(٥) عصر الاضمحلال الثاني (الهكسوس) يشمل الأمرة الرابعة عشرة الى آخر الأمرة السادسة عشرة

(٦) عصر الدولة الحديثة ويشمل الأمرة السابعة عشرة الى آخر الأمرة العشرين

(٧) عصر حكم الكهنة يشمل الأمرة الحادية والعشرين
(٨) عصر حكم اللايبيين يشمل الأمرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

(٩) عصر حكم النوبيين يشمل الأمرة الخامسة والعشرين
(١٠) العصر المصاوي يشمل الأمرة السادسة والعشرين
(١١) عصر حكم الفرس يشمل السابعة والعشرين الى آخر الثلاثين
(١٢) عصر حكم اليونان وذلك بدخول اسكندر الأكبر حوالى عام ٣٣٢ ق.م
(١٣) عصر البطالسة من عام ٣٣٢ الى ٣٠ ق م
(١٤) العصر الرومانى من عام ٣٠ ق.م الى دخول العرب ٦٤١ ميلادية

عصر الاسرات الاولى , الاولى والثانية

لقد حدثتكم فى دروسى السابقة عن توحيد القطرين فى عصر فجر التاريخ وقلت ان اول محاولة لضم الجنوب الى الشمال أتت من الدلتا وحكم مصر ملوك تسميهم ملوك مقاطعة الصقر وكانت عاصمة مصر فى هذا الوقت (ونحن نؤرخ هذا الحادث بعام ٤٢٤٠ ق.م على وجه التقريب) ثم ضعفت هذه الامرة وانتصبت مصر مرة ثانية الى جزئين : الوجه البحرى والوجه القبلى . وتقسيم مصر الى وجهين أمر تحتته طبيعتها ، ومن الغريب أن كلا من الوجهين اعتر بتقاليده وحافظ على حضارته وساق هذا التعادل فى القوة والمدنية

الى تشابه كبير بين الوجهين . فالوجه البحرى كانت له عاصمتان : (١) بوتو (٢) بي
والوجه القبلى نجد له عاصمتين أيضا : (١) نخبت (٢) ونخن . ثم فى الشمال نجد
أن الآله الذى يحمى العاصمة هو الحية (أوتو) بينما الجنوب له العقاب
(نخبت) . والآله الذى يحمى دولة الشمال كان حوريس الذى كان مقره
دمهور والآله الذى يحمى دولة الجنوب كان حوريس آخر ومقره أدفو

ثم ملك الشمال كان يلبس تاجا أحمر

بينما كان ملك الجنوب كان يلبس تاجا أبيض

ثم كان علم الشمال نبات البردى

بينما كان علم الجنوب نباتا لعله القش

ونحن إذا بدأنا الآن بتاريخ الاسرة الاولى فأنما نقصد بذلك تاريخ الاسرة

التي وجدت مصر للمرة الثانية وقد أتى هذا التوحيد الثانى من الجنوب إذ
قام به حكام مدينة طينة .

من أحد حكام هذه المدينة الغارة على الدلتا واضطرها للخضوع وهذا

الكشفاح نجده ممثلا على صولجان هذا الحاكم وهو الذى أصبح معروفا فى

التاريخ بالملك العقرب . فنراه مصورا وعلى رأسه التاج الأبيض

(تاج الوجه القبلى) وبجانبه فأس يهدم به حصون الوجه البحرى

اسماء ملوك هذا العصر

الأسرة الأولى :—

- (١) نارمر مينا (٢) عجا (٣) بحر (٤) زت (ال شعبان) (٥) دن (٦) عنج إيب
(٧) سمرخت (٨) كم

الأسرة الثانية :—

- (١) جتب سخوى (٢) نبرع (٣) نتر إن (٤) سخم إيب (٥) بر إيب سن
(٦) خاسخوى

وذكر مانيتون المؤرخ المصرى فى كتابه ان ملوك هاتين الاسرتين كان
عددھن ثمانية عشر ملكا وان مدة حكمھن ٤٠٠ سنة ولقد اثبتت الآثار التى
عثرنا عايلھا من هذا العصر ان مانيتون لم يخطئ كثيرا فى نظريته .

ولقد اقتطعنا هذا العصر من الدولة القديمة وسميناه عصر الاسمران
الاولى لیس لانه يقل فى اهميته عن عصر الدولة القديمة بل لانه ذو طابع خاص
ولانه كان العصر الذى اشد فيه النزاع بين الوجه البحرى والوجه القبلى
والذى فيه كونت مصر لنفسھا أسر الحضارة الزاهرة التى تباھى بها كل أم
التاريخ القديم .

ان التوحيد الثانى لم يتم إلا بعد حروب طويلة رأينا آثارھا منتشرة فى
كل ما عثرنا عليه من وثائق مكتوبة من هذا العصر . وأهم ما وصل إلینا هو
لوحة نارمر المحفوظة فى المتحف المصرى وهى من حجر الاردواز . ولقد مثل
على احدى جانبيھا الملك نارمر متوجا بتاج الوجه القبلى قابضاً بيمينه على
صولجان يهوى به على رأس العدو الجائى بين قدميه . ثم أمام الملك نرى رمز
المقاطعة التى خرج منها الملك وهو الصقر (أى الاله حوريس) يقدم الى
الملك ٦ آلاف أسير من سكان الدلتا . وفى أسفل هذا الجانب من اللوحة

نرى أسيرين يهربان وذلك رمزا لهروب أعداء الملك أمام بطشه وعلى الجانب الثاني نهد الملك متوجا بتاج الوجه البحرى الاحمر خارجا من قصره وأمامه وزيره وأعلام اقباطل التي اتحدت معه خرج ليتفقد قتلى الحرب بعد أن وطد ملكه ويطش بأعدائه . وبأسفل اللوحة نرى ثورا كامرا يهدم بقرنيه قلاع الاعداء الذين يرمز اليهم بأسير ولى الفرار . هذا الثور الكامر كان رمز الملك حجر بالرمو : ثم اشهر حوادث الامرة الاولى والثانية دونت على الحجر التاريخى المحفوظ فى متحف بالرمو . (ولقد عثر حديثا على قطعة حجر مكمله له محفوظة فى متحف القاهرة ثم على قطع كثيرة وجدت فى المقابر الملوكية فى ابيدوس وسقارة .

آثار أخرى : والآن قد كثرت آثار هذا العصر بعد أن نجح المستر امرى ومساعدته زكى افندى سعد فى حفائرها من هذا العصر فى سقارة وكما ذكرت كان من أهم الأمور التى اهتم بها كل من جلس على عرش مصر هى توطيد الحكم وإخضاع الثائرين على نظام وحدة السلطة وهناك دلائل عدة توضح لنا تماما كيف كانت سياسة الدولة فى عصر هاتين الامرتين متجهة بكليتها هذا الاتجاه

من هذه الدلائل (١) استعان نارمر على إخضاع الشمال بأن تزوج مع بيت من صبا الحجر وامم السيدة التى تزوج منها نايث حيث
(٢) تزوج الملك زت بأحدى أميرات الوجه البحرى واسمها صريت نايث وهى أم الملك دن

(٣) كانت العادة ان يضع كل ملك اسمه فى مربع مرسوم على هيئة واجهة القصر يعلوه الصقر وهو كما تعرفون آله المنطقة التى منها خرج الملك الذى وحد القطرين (نارمر)

ثم فى عصر الاسرة الثانية وجدنا بعض الملوك وضعوا بدلا من الصقر
حوريس صورة الاله زيت

ثم وجدنا ملوكا آخرين من ملوك الاسرة الثانية وضعوا كلا الالهين على
هذا المربع وهذا دليل على أن كل ملك كان يعتز
برمز الاله الخاص بمنطقته التى خرج منها ثم اتجه
الملوك فيما بعد الى التوفيق بين المقاطعتين المتنافستين
على السلطة .

مميزات هذا العصر

(١) اللغة فى عصر الاسرة الاولى والثانية تكونت لغة المصريين القدماء
وأصبحوا قادرين على أن يعبروا بها عن كل مايجول بنفوسهم وفى عصر الاسرة
الثالثة أصبحت اللغة كاملة تحوى الافعال والمصادر والمشتقات وهذه الخطوة
نراها فى تدرجها بشدائد واضح إذ انها كانت فى أول أمرها لا يمكن التعبير بها
إلا من الاعلام فمثلا على لوحة الملك نارمر المحفوظة فى متحف القاهرة كان
كل ما أمكنهم أن يصلوا إليه هو أن يكتبوا اسم الملك واسم الوزير وأسماء
المناطق التى انضمت الى الملك ولم يكتبوا جملة تعبر عن هذا الحادث التاريخى
بل اقتصروا على رسم هذا المنظر مع إيضاح الأشياء بأسمائها . ولكن بعد
ذلك فى عصر الاسرة الثالثة نجد جملا تحوى أفعالا وأسماء وحروفا .
وعلى ذلك كانت اللغة المصرية فى أول أمرها عبارة عن مجموعة صور ثم
تقدمت وأصبحت كلمات .

(٢) أما فى الفن : فكانت آثار مصر فى عصر فجر التاريخ تشابه آثار كل الأمم
المجاورة ثم بدأت مصر تفصل نفسها عن هذه الأمم فى العصر الذى يتبع عصر

الأميرات وكونت أنفسها فنا ذا طابع خاص له مميزات خاصة لم تتغير حتى آخر
عصور التاريخ المصرى القديم ظهرت بواذر هذا الطابع على لوحة الملك بحر
المحفوطة فى المتحف المصرى ثم على لوحة الملك زت المحفوطة فى اللوفر
(٣) أما الديانة المصرية فلا يمكننا أن نحكم عليها حكمنا على الفن ولكن
يمكننا أن نقول أن كل ماوصل إلينا عن هذه الديانة وجدت أصوله فى عصر
الأميرات الاولى

مصر والامم المجاورة لها

فى عصر الأمرين الأولى والثانية

تحيط بمصر من الجنوب بلاد النوبة ومن الشمال الغربى ليبيا ومن الشرق
البحر الاحمر الذى يفصل بلاد العرب عن مصر ثم من الشمال الشرقى شعوب
الاسيويين .

ولم تتصل مصر ببلاد النوبة اتصالا وثيقا إلا فى عصر الدولة القديمة فطبيعة
الأرض فى جنوب اسوان كانت ولا تزال جذبة لاخضرة فيها ثم أن النيل نفسه
فى هذه المنطقة تغرضه شلالات هائلة الحجم لا تسمح ألبتة لأى سفينة أن
تعبرها ولكننا نعرف أن المناطق الواقعة بين الشلال الاول والثانى كانت
مستكونة بقبائل من عنصر حامى لىبى قريب من العنصر المصرى له مدينة تشبه
مدينة مصر فى عصر فجر التاريخ ، ولكننا نلاحظ ان هذه المدينة لم تتقدم
وتتطور كما كان حالها فى مصر إذ أن البيئة هناك لم تساعد على هذا التطور ،
ولقد حدثتكم فى محاضراتى عن عصر فجر التاريخ وقد عثرنا على آثار فى
بلاد النوبة من عصر تؤرخه بعصر الدولة المتوسطة ولكنها كانت تشابه فى
شكلها وطابعها آثار عصر حضارة نقادة الثانية فى مصر

لقب المصريون البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثاني بمنطقة ستي كما
سموا سكانها النحسين

ولما توغل المصريون في العصور المتأخرة في بلاد النوبة فيما وراء الشلال
الثاني تحدثوا عن منطقة اسمها خنتي حن نفر ثم كانت في جنوبها منطقة أخرى
يسكنها شعب الكوش الذى يجاور بلاد الحبشة . وكانت هذه البلاد تقدم
لمصر كميات وفيرة من الماشية والعاج والجلود والاشجار

ثم كانت الحدود الغربية أيضا آهلة بالسكان الذين عاشوا على ما تنتج
أراضي الواحات (ولا يزال منها حتى الآن الواحات الخارجة والداخلة وقرارة
وسيو) وكلمة واحه أصلها مصرى قديم (وات) أخذها اليونان وأصبحت في
لغتهم وازيز وكان يسكن هذه المناطق الغربية شعب اللبيين الذين يلقبون
بهمم تحنو وتدل آثار ملوك الأسرة الأولى على أن المصريين اشتبكوا معهم
في حروب .

أما في الشمال الشرقي فكانت مصر محاطة بشعوب كثيرة يلتصقون الى
الجنس السامى . وهؤلاء كانوا دائماً يشنون الغارة على مصر طامعين في خيراتها
فأرسل من بلادهم الفقيرة .

وكان المصري يسمى هذه الشعوب بأسماء مختلفة منها : حروم (الذين
يعيشون على الرمل أى البدو) ثم العامو والمنتيو

ومصر كانت متصلة اتصالاً وثيقاً منذ عصر الأسرات الأولى ببلاد
موريا حيث كانوا يجلبون الأخشاب التى يستعملونها فى إنشاء السفن
وبناء المعابد ثم اتصلوا أيضا بشبة جزيرة سيناء حيث تكثر المعادن

الديانة عند المصريين القدماء

نحن نعرف أن الانسان والحيوان يشتركان في صفاتهما العامة وإنما ميز الله الأول على الثاني بميزة التفكير ، ونعرف أيضاً أن الحيوان يصرخ ليعبر بذلك عما في داخله من شعور بينما الانسان يتحدث ، ونعرف كذلك أن الغريزة التي حملت الحيوان على أن يعيش في قطعان حملت الانسان على أن يكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة ، كما أن الغريزة التي تدفع الحيوان إلى التماسل دفعت الانسان إلى الحب والزواج ، وكذلك ترى الغريزة التي تدفع الحيوان إلى الخوف والحرب أمام كل شيء لا يعرفه هي التي دفعت الانسان إلى احترام تلك القوى الخفية التي تسير السكون من حوله وتسيطر على كل شيء ، ومن هذه الغريزة نبتت أول جذور ما نسميه نحن « الدين » فما الدين إلا الاعتقاد بأن هناك قوى لا يعرف كنهها الانسان وإن كان يشعر بغلبتها وسيطرتها عليه. وإن كان ليس في مقدور الانسان أن يرى هذه القوى الخفية وأن يصل إلى أصلها إلا أنه كان يشعر بأنه يعرفها بل يكاد يحسها ويميزها ويفرق بين بعضها والبعض الآخر ويعطي كلا منها اسماً خاصاً به ، وكان يعرف أن بين هذه القوى ما ينفعه فيجعل منها قوى يصادقها وأن بينها ما يضره فيجعل منها قوى يعادىها ، وليس في مقدوره أن يميز بينها على نحو آخر فهو إنسان له صديقه وله عدوه ؛ وكان يعرف أن الصديق من ينفع وأن العدو من يضر وإنى إذا حاولت أن أبين لكم الدافع الأول للانسان إلى الاعتقادات التي تكون منها الدين فإنه ينبغي أن أبدأ بالانسان الأول من يوم ظهر في هذه الدنيا متمتعاً بما أسلفنا من غرائز متميزة على الحيوان بالعقل . فما لاشك فيه أنه توجه باحترامه وخضوعه إلى تلك القوى الخفية التي كان يشعر بوجودها

حتى ليكاد يلحسها وإن كان لا يراها .

ثم إذا ما سرت العصور الأولى على الإنسان فتكون الأسرة ثم القبيلة ثم الأمة . فإن هذا التقدم في أساليب الحياة الاجتماعية لم يقلل ألبتة من شعور الإنسان بمحاجته الماسة إلى تلك القوى التي ذكرناها وضرورة تنظيم علاقته بها ، لا سيما أن الإنسان لم يكن محتاجا إلى معين له فحسب بل كان محتاجا أيضا إلى إله يلوذ به ويناجيه إذا خلا بنفسه .

ويجب ألا ننسى أن طبيعة كل بلد لها أكبر الأثر في ديانتها ، فإن الشعوب التي تسكن الشواطئ ترى حوالها طبيعة تختلف كثيرا عن الطبيعة التي تراها شعوب الغابات أو السهول كما أن الشعب الذي سكن أرضاً خصبة وعرف الزراعة تربطه هذه بأرضه إنما يتخيل إلهه على وجه يختلف اختلافا بينا عما يتخيله أهل المناطق المجردة المتقلين وراء الماء والخضرة غازين مكافحين . ولذلك اختص الدين المصري بطابع يميزه عن غيره ، طابع يوافق طبيعة مصر الخصبة وشعبها الهادئ العصور الذي اعتاد أن يزرع جقوله ويربى ماشيته معتمدا على نيله الفيض الذي يجلب إلى أرضه الخصوبة ويعظم فيضانه ميرة في كل عام .

بل كانت في مصر قوى طبيعية أخرى سوى النيل أجبرت المصري على أن يفكر فيها ويحاول أن يعرف كنهها ، فهناك الشمس تظهر فجأة صباح كل يوم من وراء الجبال فتغمر السكون بنورها وتدفع الأرض بحرارتها وتهب الزوابع الحياة وتساعد على النضج ، ولكنها كانت تصلية في الصيف نارا حامية ، ثم هناك القمر والنجوم التي تظهر ليلا فقط بعد اختفاء الشمس وراء الجبال في الغرب وكذلك رأى المصري كيف تغرق السحب أحيانا حتى تحجب الشمس

وكيف يدوى الرعد ويلعب البرق ثم ينهمر المطر . كما لو كانت هنالك في السماء
حرب عوان قامت بين قوى لا يعرف من أمرها شيئا ...

لقد كان ذلك كله دافيا أن يبعث المصري الى التفكير الطويل في هذه
المظاهر الغريبة محاولا تفسيرها والاهتمداه الى من يثيرها أو يديرها ، ولقد
فكر ثم أمعن في التفكير ثم لم يستطع إلا أن يجعل من هذه القوى المتعددة
آلهة مختلفة بل اعتبرها الآلهة الكبرى

ولكن المصري تساءل في حيرة — وهو ذلك المخلوق الضعيف الذي يعيش
على الأرض — عن علاقته بهذه الآلهة الكبرى : هل كانت تهتم بأمره وتخف
إلى معونته إذا دهشته الخطوب ؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع لنجدة إذا
هاجمه عدو أو مرضت ماشيته ؟ إنها بعيدة عنه كل البعد وهو محتاج الى آلهة
قريبة منه تساعد وتشد أزره وتخفف من ويلاته ، ولم يصعب على المصري
أن يجد هذه الآلهة فقد وجد بين مظاهر الطبيعة التي تحيط به ما يلقى الرعب
في قلبه كما وجد بينها أيضا ما يثير دهشته ويؤده إعجابا : فهناك الحيوانات
التي كانت تسكن نيله انقباض أو الصحراء التي تحيط بمصر كالتمساح وفرس البحر
والأسد وبعض الزواحف كالتمبعان ، وكذلك رأى هذه الأشجار الضخمة
الشاهقة التي نبتت في حقوله من أزمان بعيدة لا يعرف متى زرعت
ولا من زرعها

كل هذه الأشياء رأى فيها المصري قوى خفية عليه أن يستجلب رضاها
ويستدفع أذاها لاسيما أنها قريبة منه فما أمرع ماتئاله بذلك كله ، وهكذا
تكررت تلك الآلهة المتعددة التي يصعب علينا حصرها فقد تعددت بتعدد
أغراضها والمناطق التي عبدت فيها وقد نجد بعضها عبد في منطقة واحدة ،
وبعضها في مناطق مختلفة بأشكال مختلفة أو بشكل واحد ، وبأسماء مختلفة أو
تحت اسم واحد

ولقد بقيت الحال كذلك فلكل قبيلة أو جماعة ولكل جهة أو مدينة آلهتها الخاصة بها حتى العصر الذى تكونت فيه مصر سياسيا واختفت تلك القبائل فتكونت المقاطعات ثم تضامت هذه فتكونت منها الأقاليم ثم الوجهان البحرى والقبلى ثم اتحدت مصر وأصبحت دولة

فإن هذه المراحل السياسية قد أثرت فى الحال الدينية تأثيرا عظيما. فرأينا هذا العدد الهائل من الآلهة قد تطور بحيث يمكن تقسيمه ثلاثة أقسام :

أولا : آلهة عبدوا لأنهم مثلوا للمصرى قوى الطبيعة مثل إله الشمس (رع) وإله القمر (خونسو) وإله الأرض (جب) وإله الهواء (شو) وإله المحيط (نو) وإله النيل (حابى) وغير ذلك

ثانيا : آلهة عبدوا لأن المصرى اعتقد أن في عبادتهم استرضاء لهم ودفعاً لبطشهم لأن هذه المخلوقات كانت تؤذيه وتسمى إليه وذلك كالتمساح (سوبك) وابن آوى (أنوبيس) والشعبان (أوررت) وغير ذلك

ثالثا : آلهة رمزية عبادت في المدن المختلفة والمقاطعات الكثيرة مثل الآلهة هوريس في مدينة دمنهور في غرب الدلتا ، والآلهة عنجدتى في شرق الدلتا والآلهة نايت في وسط الدلتا والعجل في شمال الدلتا والآلهة نخبيت في مدينة الكاب والآلهة أمون في الأقصر والآلهة خنوم (الكبش) في اسوان

فأما الآلهة الأولى فكانت عبادتها منتشرة في جميع البلاد ، وأما الثانية فكانت عبادتها في الجهات التى تظهر فيها ويعظم خطرها وتكثر اعتداءاتها وأما آلهة القسم الثالث فإن عبادتها كانت محلية فقط إلا إذا تمكن حاكم المنطقة التى يعبد فيها أحد هذه الآلهة أن يسيطر على مناطق أخرى فيلزم أهلها أن يعبدوا إلهه ، حتى إذا تمكن من بسط سلطانه على مصر جميعا فرض عبادة إلهه على البلاد جميعها فأصبح إلهها للدولة .

على أن المعروف أيضاً أن المصري من أول التاريخ حتى آخر عصوره اعتقد
أن هنالك إلهما خلق الأرض وهو يحافظ عليها ، عينه اليمنى الشمس وعينه
اليسرى القمر وتفسه هو الريح ، وهنالك مناجاة وصلت إلينا من عصر الدولة
الحديثة تقول :

« انت الاله الذى وجدت أولا حيث لم يكن فى الكون أى إله آخر أو
أى ائمة لأى شىء قد وجد ، إذا فتحت عينيك اللتين ترى بهما أمكن كل
مخلوق على الأرض أن يرى النور »

وكان المصري القديم يفسر اختفاء القمر ورجوعه خلال الشهر القمري بأن
هذا الاله قد فقد عينه فهو يناضل ويكافح حتى يسترجعها
وربما كان هذا أساسا للعادة الموجودة عندنا الآن ، وهى أنه كلما حدث
خسوف للقمر نرى العامة يسرون فى الطرقات ضائحين يقرعون الصفائح
والظليل وبعضهم يطاق النصارى لى ينبجوا القمر من العدو الذى يحاول
أن يسرقه

وبما ينبغى ذكره أيضاً أن المصري القديم كان يعتقد وجود إله آخر وأنه
واحد يشكو ليه ويطلب منه العون وهذا الاله كانوا يذكرونه بعنوان
(الاله) بحسب غير منسمى باسم خاص كأسماء رع وأتموم وهوريس مثلا
ومما عرف من أقوالهم (١) « الانسان من طين وقش والاله هو بانيه »
(٢) « حقا أنت لاتعرف مايفكر فيه الرب كما لاتعرف ماذا سيأتى به الغد ،
ولكن ألق بنفسك بين يدي الاله »

هذا ثم إني أؤكد لكم أن هذه الديانة المصرية هى أصعب الديانات القديمة
فى دراستها إذ أن تنوع آلهتها وتشعب نظرياتها وتناقضها يجعل من الصعب
أن نكون عنها فكرة كاملة متسلسلة كما نفعل مثلا عند دراسة التاريخ المصري .

ولعل من أسباب ذلك : ١) التقدم السريع الذي أحرزته مصر في تدرجها من بلاد عرف إيمانها الصيد فقط وكانت ساكنة السكوف ، الى بلاد تقدمت وترعت فيها الحضارة فعرف أهلها الزرع والحصاد ووضعوا النظم والقوانين الاجتماعية التي تلزم الحياة في جماعات ذات قوانين وأنظمة خاصة يجب أن يسير عليها ، ثم أيضاً انتقال مصر من مجموعة مقاطعات الى بلد واحد عرف الملكية ، كل هذه التطورات المريعة التي مرت بها مصر كانت ذات أثر كبير في دينها إذ تبع هذه الانقلابات الثقافية والاجتماعية والسياسية انقلاب ديني اختلطت فيه العقائد وتمددت وتشعبت إلى درجة خطيرة حتى كانت تجمع بين المتناقضات

٢) وقد ساعد على ذلك محافظة المصري على القديم فكان اذا ظهرت فكرة أو عقيدة جديدة أخذ بها فضمها الى عقيدته القديمة دون أن يفكر فيما بينهما من تناسق أو تناقض ، وهذا مما يجعلنا نرتاب في أن المصري القديم كان فيلسوفاً أو أنه استعمل المنطق في الحكم على الامور

٣) الكهنة المصريون وقد كانوا — كأمثالهم في جميع البقاع والمصور القديمة — فئة من الرجال أخذوا على عواتقهم القيام بخدمة هذه الآلهة المتعددة والعناية بها ولقد تمتعوا في ظل هذه الآلهة بمركز سام بين أوساط الشعب لم يكن لهم أن يحملوا به لولا تلك الآلهة فكان عليهم إذن ليحتفظوا بنعمتهم ومجدهم أن يعتكفوا عن الشعب ويتشجوا بالغموض وينشروا الأساطير عن آلهتهم ويحتفظوا بغميزاتها وأمرار طبيعتها ما استطاعوا حتى يكونوا وسطاء بينها وبين هذا الشعب الجاهل لا ينازعهم في ذلك أحد ، وقد كان إيمانهم في التحويل ووضع الأساطير لتوطيد مركز الآلهة من أسباب التشعب والغموض والتناقض في الديانة المصرية القديمة

درجات الكهنة

كان الملك يلقب « نترعا » أى الإله الأكبر كما كان يعتبر الكاهن الأول الذى يقوم بكل المراسيم الدينية . وقبل دخوله قدس الأقداس لأداء الشعائر كان يطهر بالماء ومحلول النظرون ويتطيب بالبخور ويتضمخ بالعطور . ولما كان من الصعب أن يقوم الملك يوميا فى المعابد كلها بالمراسيم الدينية فقد طأونه الكهنة الذين كانوا يخرجون من مدرسة طيبة فى معبد الكرنك ، أو مدرسة « أون » بمدينة عين شمس حيث يتلقون العلم والغش الدينى على كهنة أكفاء ، وكانت لهم درجات منها :

(١) الكاهن (خريحاب) وكان يقوم عادة بقراءة التراتيل القديمة فى الحفلات وكان يسمى كاتب الكتاب المقدس ويعتبر من علماء الأدب القديم .
(٢) الكاهن (أواعب) المطهر وهو الذى كان يقوم بعمامة التطهير ، ويقال أيضا إنه كان يمتحن دماء الحيوان الذى يذبح قربانا ويشهد بسلامته من الأمراض

(٣) الكاهن (حم نتر) خادم الإله

ثم كان هناك عدد لا يحصى من صغار الكهنة بجانب كبارهم يقومون بالأعمال المختلفة بالتناوب ويجب على الكاهن « أن يكون على معرفة تامة بأنواع القرايين التى تقدم للإله وبأوقات تقديمها وأن يحفظ الصور المختلفة للإلهة وشاراتها المقدسة وأن يعرف (پردوات) أى بيت الصباح وهو المكان الذى يدخله الملك للغسل والطهارة فى أول النهار . وأن يقوم بوضوح المسوح على تمثال الإله وأن يحمله فى المناسبات والحفلات الدينية الرسمية ولا يدخل قدس الأقداس إلا وهو متطهر ومرتد ملابسه الخاصة ويتحتم عليه أن يحتفظ بأمرار وظيفته ولا يبيع بها ولدينا ثفن كتبه أجد كهنة الأميرة الثامنة

عشرة وفيه يقول (قمت بوظيفة «أواعب» الذي يدخل معبد أمون ووضعت
المسوح المقدسة على تمثال الاله وصنعت أحمل تمثاله على منكبي وكنيت
أنحني احتراماً أمامه ولم أرفع صوتي أبداً في قدس الاقداس ولم يلمس في
القرايين المقدسة ولم أبج بشيء مما يقال ويعمل مرا في المعبد »

الحفلات الدينية

كان الكهنة على اختلاف درجاتهم يقومون بواجبات وظائفهم في المعابد
كل يوم ، ويتبعون في عملهم طقوساً مرسومة مصحوبة بأناشيد وتراتيل
خاصة سواء في ذلك الحفلات الدينية والمواسم والأعياد وسائر أيام السنة
وهناك بعض التراتيل التي كانت تتلى عند تأدية العبادة في المعبد :

- (١) ترتيلة لإيقاد النور
 - (٢) ترتيلة إشعال نار المباخر
 - (٣) ترتيلة حمل المباخر
 - (٤) ترتيلة السير الى باب قدس الاقداس
 - (٥) ترتيلة فض الاختتام التي على باب قدس الاقداس
 - (٦) ترتيلة فتح باب النافوس
 - (٧) ترتيلة دخول النافوس
 - (٨) ترتيلة تقبيل الأرض أمام الاله
 - (٩) ترتيلة رفع الغطاء عن وجه الاله
 - (١٠) ترتيلة رؤية وجه الاله
 - (١١) ترتيلة الجثو والتمرغ أمام الاله
 - (١٢) ترتيلة وضع العطور على التمثال
- وكان علي الكاهن عند فتح باب النافوس أن يحرق البخور ويضعه أمام

أنف تمثال الآله وينحني احتراماً مرتلاً الأناشيد لصوت شجى ثم يخرج
 الأواني المختلفة من صندوق يحمله ويقوم بعملية التزيين اللازمة للآله بأن
 يرش الماء مرتين على وجهه ، ثم يضع عليه الملابس السكتانية البيضاء والخضراء
 والحمراء ثم يعطرها بالعطور ، ثم يقدم أمام تمثال الآله الطعام والشراب من
 خبز ولحوم وأوز ونبيد وأزهار لتتغذى بذلك روح الآله
 وقد كان بالمعبد أيضا عدد كبير من الكاهنات اللائى يقمن بالرقص
 والعزف على الآلات الموسيقية للآله

الدولة القديمة

٢٧٨ — ٢٢٧٠ ق.م.

عصر بنات الاهرامات :

بالأسرة الثالثة تبدأ الدولة القديمة . وعنوان هذا العصر الاهرامات التى
 تمتد من ميدوم الى دهشور الى سقارة الى أوصير ثم الى الجيزة وأبو رواش
 واذا كان العصر الذى سبق الأسرة الثالثة عصر الانتقال من الاقطاعات
 الى الاتحاد ومن انفكك الى الاندماج ومر اللامركزية الى المركزية فان العصر
 الحالى الذى يبدأ بالأسرة الثالثة عصر يذكّر التاريخ فيه مدمر ككثرة
 واحدة لا انشقاق فيها إلا حروب أهلية . فكانت مصر من شمالها الى أقصى
 جنوبها يحكمها ملك واحد ويدير دفتها هو وحده وله أن يأمر وينهى من
 يشاء كما يشاء . بل كان الملك فى عصر الدولة القديمة ابن الآله ويلقب نفسه بالآله
 من حقه أن يحكم مصر لانه الهها الارضى الذى له الحق فى الاتصال بعالم الآلهة
 أما ما عدى الملك من كهنة وموظفين فهم ليسوا إلا أشخاصا خلقوا لكي
 يساعدوا الملك فى حكمه فلا سلطة لهم البتة هذا العصر الذى سمعنا فيه أن
 وزراء الجنوب ينقلوب إلى الشمال كما أن حكام مديريات الوجه القبلي كانوا

يحكمون أيضا بعض مديريات الوجه البحري . مما يدل على الاتحاد التام
والمركزية الثابتة

هذا وان كان الانفصال الاول بين الوجهين بقى ظاهرا في بعض مظاهر
الحكم فمثلا كان الملك يلقب دائما بملك الارضين أو بملك الجنوب والشمال
وكانت هناك ارادتان إحداهما لشئون الجنوب والاخرى لشئون الشمال وكذلك
محكمة للشمال ومحكمة للجنوب ولكن هذه الارادات كانت تابعة من ناحية
أخرى للحكومة المركزية التي كان مقرها العاصمة منفيس

ونحن إذا وصفنا هذا العصر بأنه عصر ذهبي فيجب أن نميزه عن العصور
الذهبية الاخرى بأنه لم يظهر كنتيجة لعوامل خارجية مثل الفتح أو كثرة
الاموال المتدفقة من الجزية أو لكثرة الامرى الذين يستخدمون لتقوية
شأن مصر . بل هذا العصر الذهبي الاول انما كان نتيجة لاتحاد مصر إذ
نهضت ككتلة واحدة لا تميز فيها بين مصرى الشمال ومصرى الجنوب
ولكن ليس معنى هذا أن تفضل هذا العصر الذهبي على العصور الذهبية
الاخرى مثل عصر الدولة المتوسطة (الأسرة الثانية عشر) ثم عصر الدولة
الحديثة (الأسرة ١٨ - ١٩) ثم في العصر المتأخر (الأسرة ٢٦) بل
لكل عصر طابعه الخاص وما أثره الحميدة في المساهمة في تقدم حضارة مصر
وشعبها . ولكن يمكننا أن نقول بأن العصر الذهبي الاول هو العصر الوحيد
الذى تتمثل فيه قوة الملك وبطشه هذه القوة التى جعلت من الحجر تماثيل
فاخرة وأبنية شاهقة تضارع فى فنها وهندستها أحسن أبنية الشعوب القديمة هذه
القوة الجبارة التى دفعت مصر فى طريق العلم والمعرفة ففى هذا العصر عرف
المصرى الطب فأتقنه ثم اهتمدى الى العناصر الكيماوية التى برع فى مزجها
وحفظ بها حيث موتاه بطريقة لا تزال الى اليوم أعجوبة من أعاجيب البشر .

الأمرة الثالثة :

تولت الأمرة الثالثة الحكم في مصر بعد معارك كثيرة رأينا آثارها ظاهرة واضحة في الأمرة الثانية . بعد أن تمكن الملك خاسخوى من إذلال الشمال وضمه الى الجنوب وتوحيد القطرين توحيدا متقدما أنه كان سياسيا فقط ونؤكد هذا الاضطرار أول ملك الأمرة الثالثة الى التزوج من أميرة شمالية اسمها « نيمعات داب » أم الملك « زوسر » أشهر ملوك الأمرة الثالثة

ملوك الأمرة الثالثة

(١) زوسر — تترخت (٢) سانبخت (٣) نب كا (٤) حوى .
زوسر : نحن لا نعرف الكثير من أعماله الحربية . ولقد عثرنا على لوحة تذكارية في منطقة شبه جزيرة سيناء نرى فيها الملك زوسر وهو يعاقب العدو الجاني بين ساقيه بأن يضربه بالصولجان . هذا العدو هو قبائل البسدي التي تسكن الصحراء الشرقية .

ثم هناك لوحة أخرى نسميها « لوحة المجاعة » كتبت في عصر متأخر وتحدثنا عن المجاعة الطويلة المدى والتي حدثت في مصر في عصر الملك زوسر وهي تذكر كيف أن الملك فرض على بلاد النوبة (التي كانت خاضعة وقتئذ لحكم مصر) جزية تساوى عشر المحصول تقدمها الى مصر أو بمعنى آخر إلى إله الشلال (خنوم) وذلك لكي يخفف الملك من وطئه المجاعة التي كانت في مصر .

ونحن نأسف من أنه لم تصلنا أخبار كثيرة عن الملوك الذين ورثوا عرش زوسر .

نب كا : ولا نعرف عن « نب كا » إلا أنه حاول أن يبني هرمه له ومات قبل أن يتمه ولا زالت آثاره موجودة في المكان الذي نسميه الآن بزاوية العريان جنوب الجزيرة .

حورنى : أما الملك حورنى فهو الذى بنى هرم دهبور المنكسر الاضلاع وبذلك أصبح الحلقة الثانية من سلسلة تقدم فكرة الهرم التى بدأها زوسر بأن بنى هرمه بشكل مدرج ثم بلغت أوجها فى عصر الملك سنفر وبأن أصبح الهرم هرمى الشكل ممتد الاضلاع .

وكانت للملك حورنى ابنة اسمها حوتب هرس تزوجها الملك سنفر وأول ملوك الأسرة الرابعة وأنجبت منه الملك خوفو أشهر ملوك الأسرة الرابعة . إن ما وصلت اليه الحضارة المصرية فى عهد الأسرة الثالثة لم يظهر لنا بوضوح إلا بعد إزالة الرمال عن منطقة هرم زوسر المدرج فى سقارة . فلقد ظهرت لنا الحفريات التى قام بها الاستاذ فيرت وكوبيل ثم الآن الميسولو وير عن أبنية استعمل فى بنائها فن كنا نعتقد الى مدة قريبة أن موطنه اليونان وليس مصر . هذا الفن الذى أقيمت سقوفه على عمد مضلعة كل ضلع منها قليل الاستدارة . هذه العمدة التى أطلق عليها poto dorie قد عثر عليها فى سقارة فى عصر يسبق عصر ظهورها فى بلاد اليونان بعدة قرون . ثم كشفت لنا هذه الحفريات عن أول أبنية من الحجر . وأهمية هذا الاكتشاف عظيمة جدا اذا عرفنا أن المصرى استعمل الحجر لأول مرة فى عصر الأسرة الاولى ولكنه استعمله فقط فى أرضية المقبرة التى بنيت فى أبيدوس للملك Den ثم استعمل الحجر بعد ذلك فى مقبرة الملك خاسخموى من الأسرة الثانية

فالتقدم السريع الذى تمكن المصرى أن يجتاز درجانه بمثل هذه السرعة أدهش رجال الفن فى العالم الحديث ولقد قال بعض العلماء ان هذه الدرجة

التي وصل اليها فن البناء في عصر الامرة الثالثة كان كنتيجة لتقدم مستمر ظهرت آثاره في عصر الامرة الاولى حيث كانت العادة أن يبنى الملوك مقابرهم من الطين ثم ظهرت فكرة استعمال الحجر في مقبرة واحدة ثم بعد ذلك في الامرة الثانية وجدنا مقبرة واحدة بنيت جدرانها من الحجر وعلى ذلك وجب أن نعث في عصر الامرة الثالثة على بناء ضخم كله من الحجر . ولكن من الغريب أن الملك زوسر كان قد بنى في أول أمره مقبرة هائلة في بيت خلاف من الطوب النى . أى أنه نعى نحو ملوك الامرة الثانية في ذلك ولكنه فجأة ترك مقبرته الاولى في بيت خلاف وذهب إلى سقات حيث بنى هرما ومعبدًا ضخمًا كله من الحجر الجيري الأبيض . وعلى ذلك أصبحنا نعتقد الآن أن هذه الخطوة الجريئة لم تكن كنتيجة لتقدم فكره بل كانت نتيجة عبقرية فنان كبير . هذا الفنان الجريء هو وزير زوسر المعروف بهذا المهندس الذي كان طبيبًا ووزيرًا والمشرف على كل صغيرة وكبيرة في شئون المملكة . ولقد كان هذا الرجل أشهر من نار على علم وتحدث بنبوغه كل مصري عاش حتى الاجيال المتأخرة ولقد بلغ تقدير المصريين له أن جعلوا منه الها يخلف الاله بتاح اله الفن والصناعة . ونحن نعرف أنه أصبح عند اليونان اله الطب ومحموه Ascleopios . ومن البديهي أن نعث على نص تحدث فيه كاتبه الذي عاش في عصر داريوس الاول (أى بعد ٣٠٠٠ سنة) بهذا الوزير النابغة

الاسرة الرابعة

٢٧٢٠ - ٢٥٦٠ ق.م

ملوك الاسره الرابعة :

(١) سنفر (٢) خوفو (٣) ددفرع (٤) خفرع (٥) منقرع (٦) شيسسكاف

سنفرو : أخذ الملك « سنفرو » أول ملوك هذه الأسرة ابنة الملك حوني

زوجة له واسمها « حوتب.هر.س » ويظهر أنها كانت واسعة النفوذ حتى إنها وصفت في مقبرة زوجها بالوصف الآتي : « أم أولاد الملك التي إذا أمرت بأى شيء نفذ لها فى الحال »

من آثار الملك سنفرو هرمه فى ميدوم بالقرب من الفيوم ثم هرمه الثانى فى دهشور بالقرب من سقارة

وفى عصره حصنت مصر حدودها وأمنت على نفسها من الغارات الأجنبية ولقد قام سنفرو بحملة حربية ضد قبائل النخسين الذين سكنوا بلاد النوبة وهزمهم وأمر منهم سبعة آلاف شخص واستولى على عشرين ألف رأس من الغنم . ثم حارب البدو فى بلاد شبه جزيرة سيناء وبعد إذ هزمهم بنى القلاع . ثم ورد على حجر بالرمو اسم الملك سنفرو وذكرت ثلاث سنوات من حكمه : السنة الأولى سميت بسنة احضار الاربعين سفينة الحملة بخشب الأزرق الذى كان ينبت فقط على تلال لبنان وهذا يدلنا على أن العلاقات التجارية كانت قائمة بين مصر وسوريا فى هذا العصر ونستدل بذلك أيضا على أن هذه العلاقة كانت بلا ريب قائمة أيضا فى عصر يسبق سنفرو .

أما السنة الثانية فسميت بسنة تعداد الماشية السابع وعلى ذلك يجب أن

يكون قد سبق هذا التعداد ستة تعدادات أخرى للماشية

ثم فى الثالثة ذكرت غزوته لبلاد النوبة السابقة الذكر ومن الأشياء المهمة التى يجب ذكرها هنا أن أحد آثار هذا الملك ذكر لنا احضار حجر (نصف مكريم) أزرق اللون ومن المعروف أن هذا الحجر كان المصريين القدماء يستوردونه فى العصور التالية من بلاد القرس وهنا تتساءل هل كانت مصر فى أول عصر الأسرة الرابعة فى علاقات تجارية مع بلاد القرس ؟

خوفو : لقد خلد هذا الملك اسمه في التاريخ ببناؤه هرمه المعروف في
الجزيرة . وإني أعتقد أن هذا البناء العظيم هو أكبر دليل على قوة الحكومة
في هذا الوقت وعن عدم شتغلها بحروب أو فترحات أيًا كانت وعلى ذلك
يمكننا أن نتحدث عن الأسرة الرابعة بأن عصرها كان عصر هدوء تيم
بمركزت فيه السلطة في يد الملك . ولذلك انصرف ملوك الأسرة الرابعة الى
بناء إهراماتهم الهائلة ومعابدهم الواسعة وقلما نجد في عصر هذه الأسرة
حوادث خارجية تستحق الذكر . وسوف نكرر دراستنا للأسرة الرابعة
قاصرة على دراسة آثارها الخالدة دراسة تمكننا من فهم هذه الآثار والوصول
إلى المنزى الذي من أجله بنيت .

الهرم

في أوائل الأسرة الثالثة كان الملوك والمصريون أجمعون يبنون
مقابرهم بالقوالب المصنوعة من الطمي الغير المحروق (الطوب الني) ولقد
عرفنا كيف أن الملك زوسر نفسه بدأ بأن يبنى مقبرة له من الطوب الني
وفجأة تمكن المصري من استغلال الخجر في بناء مقابر وإهراماته وكان
ذلك في عصر الملك زوسر أيضا .

وكانت المقبرة تنقسم الى قسمين . قسم في جوف الأرض معد لدفن
الجثث وآخرون فوق الأرض . ولأن الجزء المبني فوق سطح الأرض كان
مائل الجوانب اضطلع الاثريون على تسميته « مسطبة » وذلك لأنه يشابه
مساطب الفلاحين في العصر الحديث .

وعلى ذلك تكون المسطبة في أول أمرها عبارة عن بناء إما من الطمي
أو من الحجر مستطيل الشكل مائل الجوانب . ومن سطح هذه المسطبة تنخفض

بئر عميقة يتراوح عمقها بين ٣ أمتار و ٢٥ متر يوصل الى حجرة الدفن التي
يُدفن فيها الميت فى تابوت إما من الخشب أو من الحجر .
ومن المسطبة نشأت فكرة الهرم . اذ أن الهرم المدرج ليس إلا ستة
مساطب الواحدة فوق الأخرى ومن أول الأسرة الرابعة تقدمت فكرة بناء
المساطب المدرجة أو ما نسميه نحن الأهرامات المدرجة وظهرت الأهرامات
الحقيقية التى بنيت لتكون مقابرا للملوك حتى أوائل الأسرة الثامنة عشرة
وأول هرم بناه سنفرى أول ملوك الأسرة الرابعة موجود فى دهشور

لماذا بنى الهرم

يعتقد المصرى فى خلود الروح ونأنها ستجى حياة لانهاية لها ولذلك عمل
بجهد على أن يسهل على الروح هذه الحياة وعرف أن من شروط هذه الحياة
أن تبقى الجثة محفوظة لا تفقد أى شىء من معالمها . ولذلك بنى المسطبة
ووضع الجثة فى تابوت محكم واخفاه فى اعماق الأرض ثم حلى جدران المسطبة
بكل ما اعتقد أنه سيجتاج إليه فى حياته الثانية فمن قوالب لعبور النمل الى مناظر
الصيد والزرع الى مناظر الصيد على اختلاف أنواعها الى المناظر التى تجرى
فى منزله من المطبخ وتربية الحيوانات المنزلية وغير ذلك وزود كل هذه المناظر
بنصوص تفسرها حتى لا تتحير الروح فى التعرف اليها أو تذكرتها ثم خاف
أيضا أن الزمن ربما يتغلب على الجثة المحفوظة فيبليها أو يجعل العطب يدب
اليها فرمم صاحب المقبرة فى موافقه المتعددة ثم قطع من الحجر عدة تماثيل
على صورة صاحب المقبرة وأودعها مكاناً خاصاً فطلق عليه اسم « السرداب »
والهرم ليس إلا مقر الخلود للملك . لا يحوى بنوه إلا جثة الملك وأحيانا
يوضع جثة الملكة فى حجرة خاصة بها أو يبنى لها هرم صغير بجانب
هرم الملك

وفي الدولة القديمة كانت مساطب الأشراف وكبار الموظفين تبنى مرصوفة في خطوط مستقيمة عند سفح الهرم وذلك يطل الملك عليهم في دار الخلود ويراهم كما كان الحال في دار الدنيا

ومجد بجوار كل هرم من أهرامات الجيزة معبدان الأول معبد خاص يسمى المعبد الجنائزي يبنى عادة شرقي الهرم ينحصر لسكبار الكهنة والبيت المالك تقام فيه الطقوس الدينية وتقدم فيه القرابين إلى الملك الراحل . ثم المعبد الثاني وهو مائس فيه معبد الوادي أي المعبد الذي يقام في الوادي بالقرب من النيل وكان بمثابة مدخل كبير تصل إليه الوفود من كل جانب حتى إذا اجتمع شملهم صعدوا إلى المعبد الجنائزي بواسطة عرطويل يصل المعبدان .

هرم الجيزة الأكبر

بناء خوفو وهو بناء هندسي محكم ، أضلاعه متساوية ، وأركانه الأربعة متجهة نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب .

وطول القاعدة ٢٢٧ر٥ متر هذا مع العلم بأن طول هذه القاعدة الأصلي أي بالغطاء الذي كان يكسو الهرم كان ٢٣٠ر٣٨

وارتفاع الهرم الآن ١٣٧ر١٨ متر وكان في الأصل ١٤٦ر٥٩ متر

ولقد أراد بعض المهندسين الأوربيين أن يعرفوا مقدار ضبط المقاييس عند قدماء المصريين فانتبهت أبحاثهم إلى أن الاتجاهات الضلعية لجوانب الهرم لم تحمل عن خطها المستقيم إلا بضعة مليمترات

أخذت الأحجار لبناء هذا الهرم من محاجر طره والمقطم والبعض من المنطقة نفسها . ونحن إذا تصورنا العدد الهائل الذي يحتويه بناء الهرم

ومعبدية من الأحجار وتصورنا أين قطعت هذه الأحجار وكيف نقلت من محاجرها إلى سفح الهرم حيث صقلت وأعطيت الزوايا اللازمة لموضعها ثم نقلت إلى مكانها لوجدنا أن هذا عمل شاق يحتاج إلى نظام دقيق وهندسة عالية ودقة في العمل وتوزيعه ثم على قوة إدارية محكمة لا يمكن للفرد العادي أن يتخيلها وقد ذكرنا أن محاجر طره كانت المصدر الرئيسى للأحجار التى بنيت منها الأهرامات فى الجزيرة استغللت أيضا لهذا الغرض . أما ما استعمل من حجر الجرانيت فكان يجلب من أسوان .

وكانت الطريقة المتبعة فى قطع الأحجار هى أن توضع أوتاد (قطع خشبية طويلة) فى فجوات تنحت من الصخر على أن يكون طول وعرض الصخر بين هذه الفجوات مناسبة لمقاييس قطع الحجر اللازمة فى البناء ثم تبلل هذه القطع الخشبية بالماء حتى إذا كمل تبليل هذه القطع زاد حجمها فتنفصل الصخور التى حفرت فى جوانبها الفجوات المذكورة .

ثم تنقل هذه الأحجار بعد ذلك على زحافات حتى شاطئ النيل وبعد ذلك على المراكب حتى تصل قرب هضبة الهرم ومن هنا كانت تنقل مرة ثانية على زحافات يجرها آلاف من العمال أو اشيران على سطح مائل من الرمال والطوب ملس معبد يعلو سطحه بالتدرج كلما ازداد ارتفاع الهرم ومن الغريب أن الملك خوفو الذى خلد اسمه فى التاريخ إلى الأبد بينائه الضخم لم يترك لنا سوى تمثال صغير من العاج عثر عليه فى أبيسدوس وهو معروض الآن فى المتحف المصرى .

وقد بدأ خوفو بناء هذا الهرم عند توليته عرش مصر مباشرة وكان يجمع العمال اللازمين للقيام بهذا العمل العظيم فى وقت الفيضان حينما تعلو مياه النيل وتغمر المزارع وتجير الفلاح على المسكن فى داره طوال أشهر الفيضان

م — ٤ تاريخ مصر القديم .

ولقد أخبرنا هيرودوت المؤرخ الاغريقى الذى زاد مصر عام ٤٥٠ ق.م أن مائة ألف من العمال كانوا يعملون فى بناء هذا الهرم وكانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر وكانت لهم مدينة خاصة بهم وكان على الملك أن يطعمهم ويؤويهم وحدثنا أيضا هذا المؤرخ بأن الملك أمصى عشر سنوات فى قطع الأحجار اللازمة لبناء هذا الهرم بينما البناء نفسه استغرق عشرين سنة أخرى ولقد قام أحد مهندسى الألمان المشهورين بإسمه الاستاذ بورخارت بأبحاث علمية قيمة استدل منها على أن الملك استغل لبناء هذا الهرم نفس العدد الذى حدثنا به هيرودوت وهو مائة ألف عامل ولكنه يعتقد بأن الهرم لم يستغرق فى بنائه مع قطع الأحجار ونقلها أكثر من ٢٠ عاما أما الباب الأصلى لدخول الهرم فكان فى الجانب الشمالى ويقع هذا المدخل على ارتفاع ١٥ متر من القاعدة . وبأسفل الباب فتحة فتحها الخليفة المأمون ابتغاء الوصول الى داخل الهرم . ويؤدى مدخل الهرم الأصلى إلى طريق مائل ارتفاعه ١٢٢ ر.م وعرضه متر .

الملك خفرع : أهم ما بناه هذا الملك هو هرمه الثانى الذى يظهر كما لو كان مرتفعا عن الهرم الأكبر بينما هو أصغر منه ويبلغ ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا وطول القاعدة الحالى ٢١٠ مترا (مقابل ٢٣٢ مترا فى هرم خوفوا) وسبب ظهوره أعلى من هرم خوفو أنه بنى على هضبة تعلو الهضبة التى بنى عليها هرم خوفو .

ويظهر أن الملك خوفو كان قد أستنزف جزءا كبيرا من موارد البلاد في بناء هرمه لأن بناء هرم « خفرع » جاء أقل منه اتقانا . ولهذا الهرم مدخلان في الجانب الشمالى أحدهما لا يرتفع الا قليلا عن سطح الهضبة والآخر يعلو سطح الهضبة بنحو ٤٥ متر وكلاهما يؤدي الى غرفة الدفن التى يوجد بها تابوت من الجرانيت الاحمر ليس عليه نقوش أو كتابات . وكانت الاهرامات عادة مكسوة من الخارج ببلوحات حجرية ملساء ولقد بقى جزء من هذا الكساء في أعلى الهرم الثانى وقد ذكرنا أن لسكر هرم معبدين المعبد الجائزى ومعبد الوادى ولقد بقى معبد الوادى لهرم خفرع حتى الآن

وواجهة هذا المعبد كانت تشبه في بنائها المصطبة وكان يوجد أمامها في الوسط ناووس حجرى يحتمل أنه كان يحرى تمثال الملك . وكان لهذا المعبد مدخلان أمام كل منهما تمثال لأبى الهول بقيت منها الى الآن قواعد المستطيلة وهذان المدخلان يوصلان الى دهليز مستطيل يوصل من ناحية أخرى إلى ردهة بشكل حرف T الافرنجى بها ستة عشر عمودا مربعا من الجرانيت ستة أعمدة في الذراع العرضى وخمسة أعمدة على كل جانب من جانبي الذراع الطولى . وكان ارتفاع كل منها خمسة أمتار . أما هذه الردهة فكانت تضاء بواسطة فتحات منحرفة في روايا السقف . فيسقط الضوء على الارض المكسوة

بالممر وعلى الجدران الجرانيتية وينعكس لذلك ضوء جميل فى جوانب الردهة ولم يكن بهذه الردهة ولا الدهليز أى نقوش أو صور .

وكان أمام جدران هذه الردهة ٢٣ تمثالا للملك خنجرع يدلنا على ذلك الحفرات المستطيلة التى احتفرت لتكون قواعد لهذه التماثيل . وقد نقل بعض هذه التماثيل الى المتحف المصرى بالقاهرة وأغلبها من المرمر كما كانت البعض منها من حجر الديوريت الأزرق الجميل وحجر الشيست الأخضر .

وتوجد فى الواوية الجنوبية الغربية للذراع الطولى من الردهة عدة مخازن مكونة من طابقين يعلو أحدهما الآخر وبكل طابق منهما ثلاث غرف وفى الواوية الشمالية الغربية للذراع العرضى للمعبد ممر به غرفه مبنية كلها من المرمر تشتهر باسم غرفة البواب . وأمام هذه الغرفة مستوى مائل يودى بك الى سطح المعبد وأرضية هذا المستوى وحوائطه مبنية من حجر المرمر ، ولهذا المعبد باب فى جانبه الغربى حيث يبدأ منزلق طويل نسميه الممر مرصوف بحجارة جيرية ضخمة ولقد أنتجت الأبحاث الجديدة فى منطقة الهرم أن هذا الطريق كان مسورا ومسقوفا وكان يضاء بفتحات صغيرة

(٥٣)

أبو الهول

فى شمال معبد الوادى لهرم الملك خفرع نجد تمثال « أبو الهول » وكان فى الأصل صخرة طبيعية نحتها الفنانون على شكل أسد رابض له وجه الملك خفرع . فكأنه صورة الملك رابضاً كالأسد ومولياً وجهه ناحية الشرق لمعبد الشمس .

وارتفاع أبى الهول ٢٠ متراً وطوله ٤٦ متراً وعرض وجهه أربعة أمتار وارتفاع الاذن متر وثلث والأنف متر ونصف وعرض الفم متران ونصف ويوجد على رأسه جزء من تاجه وبقية من الحية (رمز الملكية) التى كانت على جبهته .

وقد طمرته الرمال فى عصور التاريخ المختلفة وأزيلت عنه عدة مرات وكان أول من قام بذلك الملك تحتمس الرابع ودون لنا ذلك فى اللوحة الجرانيتية التى بين يديه إذ يقول : انه خرج مرة للصيد فى الصحراء ثم غلبه النعاس فنام قليلاً ورأى فى نومه الملك خفرع فى هيئة أبى الهول وبشره بأنه سيرتقى عرش مصر وطلب منه أن يزيل عنه الرمال . وقد نفذ الملك هذه الرؤيا عنده جلوسه على عرش مصر

ثم أزيلت عنه الرمال ورسم التمثال فى عهد البطالسة وكذلك فى عصر الرومان وأضافوا إليه فى نفس الوقت مذبحاً للقرايين وكذلك السلام التى بالجهة الشرقية

ثم فى العصر الحديث قامت مصلحة الآثار بدورها فى إزالة الرمال عنه حتى ظهر بارزاً جميعه

هرم الجيزة الثالث

بناه الملك منقرع وارتفاعه في الأصل ٦٦ متراً والآن ٦٣ متراً وطول القاعدة وعرضها ١٠٦ أمتار .

وبدل بناء هذا الهرم على أن البلاد في عهد الملك منكورع كانت قد أنهكت قواها ونضبت موارد أثروة فيها فلم يتمكن من إقامة بناء ضخم كما فعل كل من خوفو وخفرع من قبل . فكما نرى يبلغ ارتفاع هرمه نصف ارتفاع الهرم الأكبر . ويمكن أن تفسر صغر هرم الملك منقرع بأن الملك لم يعمّر طويلاً حتى يتمكن من إنشاء هرم كبير . فبينما خوفو عمر ٦١ سنة وهاش خفرع ٦٣ نجد أن منقرع حكم فقط مدة لا تزيد عن ثمانية سنوات . وعلى كل حال كان الملك منقرع ملكاً ضعيفاً ازداد نفوذ كهنة عين شمس في أيامه فأضعف هذا من سلطته .

وما زال هذا الهرم محتفظاً بجزء كبير من كسوة قمته التي كانت من الحجر الجيري . أما أسفله فكان من الجرانيت الأحمر . ومدخله في الجهة الغربية . وقد كسيت أرضية مدخله بالجرانيت ويؤدي هذا المدخل إلى غرفة أولى مزينة بمربعات منحوتة في الصخر ثم نجد ممراً أفقياً يؤدي إلى غرفة يظهر أنها لم تلتها بعد يبلغ طولها ١٤ متراً وعرضها أربعة أمتار وكان القصد منها تضليل اللصوص وقد وجد فيها تابوت باسم الملك منقرع . وفي هذه الغرفة ممر مختلف في الأرض يؤدي إلى غرفة الدفن الحقيقية وهنا وجد تابوت جميل من حجر البازلت بدون نقوش ووجد غطاؤه المكسور والجنحة في الممر (والجنحة موجودة الآن بالمتحف البريطاني) .

وقد أخرج التابوت البازلت وأرسل إلى لندن ولكن السفينة التي نقلته
غرقت به بالقرب من الساحل الاسباني
وتحت هذه الغرفة غرفة أخرى كان بها تماثيل الملك

ووجد في الجهة الشرقية من هذا الهرم على بعد ١٢ مترا أطلال قاعدة
المعبد الجنائزي ويظهر أن معبد الوادي لهذا الهرم لم يتم بل بني فقط بالطين
(الطوب الني)

ددف رع : هذا الملك ذكرت في مبدأ محاضراتي عن الأسرة الرابعة
بعد أن أملك خوفو والسبب في ذلك أنه ذكر في جدول أبيدوس وسقارة بين
الملك خوفو وخفرع . ولو أن هناك من يضعه بعد الملك منقرع معتمدين
في ذلك على مانيتون ومما يؤسف له أننا لم نعثر على آثار لهذا الملك سوى
خاتم مستدير مكتوب عليه اسمه . والأستاذ يونكر يضع هذا الملك بعد
خوفو . ويقول أنه نقل جباتته من منطقة الجزيرة إلى شمالها في منطقة
أبو رواش التي تبعد ١٠ كيلو متر عن الجزيرة . ولقد اختار هضبة عالية ليبنى
عليها هرمه وهذه الهضبة كانت منحدره انحدارا مستقيما في جانبها الشرقي .
ثم إن هرمه كان يختلف في فن بنائه عن أهرامات الجزيرة وهو يشبه هرم الملك
خوفو الموجود في المنطقة التي نسميها «زاوية العريان» . أي أنه يحفر أساس
الأهرام على مساحة واسعة جدا مربعة الشكل عميقة يتوسطها تابوته ، والمدخل
يبدأ من سطح الأرض وينحدر تدريجيا باستقامته إلى الجزء الأسفل حيث
التابوت ويعتقد الأستاذ يونكر أن حكومة الملك ددف رع عمرت حوالي
ثمانية سنوات

شيسسكاف : خلف منقرع ولقد ذكر اسمه على لوحة بالرمو وربما كان ابن منقرع ونعرف عنه أنه حكم ما يقرب من أربع سنوات ولم نعث له على هرم ولكن حجر بالرمو ذكر سنة من عصر هذا الملك سماها « سنة بناء الهرم » ولذلك بحث العلماء في منطقة أهرامات الجيزة عن هرم له واعتقد البعض أن هرمه هو ذلك البناء المتهدم الذي بقى منه أساسه فقط في منتصف الطريق بين معبد الوادي للملك خفرع ومعبد الجنائزي

هجر الملك شيسسكاف المنطقة التي اعتاد أجداده أن يبنوا أهراماتهم فيها وهي منطقة الجيزة وذهب إلى سقارة وبنى لنفسه مقبرة ضخمة تشبه في شكلها التابوت بغطائه المقوس . وفي الجهة الشرقية منه بنى معبدا صغيرا يختلف في نظام بنائه كل الاختلاف عن معابد أهرامات الجيزة . وهذا البناء هو المعروف عند أهالي سقارة بمصطبة الفرعون .

يجدر بي هنا وما زلنا في الحديث عن الأسرة الرابعة أن أحدثكم قليلا عن الاكتشاف المهم الذي عثر عليه الدكتور سليم حسن بك في منطقة الأهرام بالجيزة وهذا الاكتشاف هو ما اصطاحنا على تسميته بالهرم الرابع وقد بنته ملكة لم تكن معروفة قبل ذلك اسمها « خنت كاوس » تعتبر في الغالب من أواخر الأسرة الرابعة . ويعتقد الكثير بأنها أخت الملك شيسسكاف . وبنت الملك منقرع ويتبين من المنظر العام أن الملكة اختارت موقعا في الجبل الغربي كان الجزء الأكبر منه عبارة عن صخرة مرتفعة جعلتها على شكل مربع وغطتها من الخارج بطبقة من الحجر الجيري الأبيض ثم أضافت إلى هذه الصخرة عدة أجزاء فتم لها الشكل الهرمي .

ومما سبق عرقتم أن لكل هرم معبدين معبد جنازي يقام بمجوار الهرم

ثم معبد الوادى وقد أرادت هذه الملكة أن يكون معبدها الجنائزى منحوتا داخل الصخرة الطبيعية المصكونة للجزء المهم من هذا الهرم أما معبد الوادى فقد عثر عليه بجوار معبد الوادى الخاص بهرم سنقرع

الامرة الخامسة

حكمت الامرة الخامسة من حوالى عام ٢٥٦٠ إلى عام ٢٤٧٠ ق . م وطامعة البلاد بقيت في منفاسروما جاورها وآثار هذه الامرة معظمها موجود في سقارة ثم في أبوصير شمال سقارة وفي دهشور .

وتاريخ الامرة الخامسة يظهر لنا مدى التطور الفكرى والاجتماعى الذى وصات اليه معمر بعد تلك الخطوات السريعة التى قطعتها الحضارة المصرية منذ الامرة الاولى حتى آخر الامرة الرابعة . وهو تطور طبيعى نراه ممثلا في حياة كل الامم المتحضرة . هذا التطور الذى تدعو اليه بل تحتّمه النظم الاقتصادية في بلاد كصر استمرت السلطة المركزية فيه قابضة على ناصية الامور كلها قروناً عديدة . ومن الصعب بل من المستحيل أن تستمر هذه السلطة المركزية في تصفها هذا قائمة بكل الالتزامات المطلوبة منها دون أن يأتى الوقت الذى تواجه فيه للمعضلة الاقتصادية التى تواجهها كل الامم الديكتاتورية الآن . ألا وهى نقص موارد الدولة واستنفاد كل مجهود الامة لتحقيق فكره أو هدف واحد .

وقد كانت السلطة المركزية في عصر الامرات الاولى التى سقت الامرة الخامسة ونخص بالذكر الامرة الرابعة قابضة بيد من حديد على جميع موارد الامة فكانت صاحبة الحق في توزيع الاراضى على من تثق فيهم من الامرات

الغنية في مصر وكانت صاحبة الحق في السماح لرجال الدولة ببناء المقابر وصناعة التوابيت والتماثيل في معامل ومصانع الدولة وترى ذلك ظاهرا في كل مقبرة فيذكر صاحبها أن صاحب الجلالة الملك رضى عنه أو أعجب بمؤهلاته وأظهر هذا الرضى بأن أمر بمحاطبه أن يمنعوا تمثالا لهذا الموظف ثم أمر بنائيه ببناء مقبرة له على أرض وهبها الملك له لهذا الغرض

ثم وظائف الدولة الكبيرة مثل الوزير — قيادة الجيش — رئاسة الكهنة — حامل الختم الملكي — كانت منحصرة في يد أفراد البيت الملكي

وما أن انقضت الأسرة الرابعة وجلس ملوك الأسرة الخامسة على عرش مصر حتى ضعفت السلطة المركزية ووزعت الوظائف الكبيرة على أفراد من الشعب وأصبح لحكام الأقاليم شيء من النفوذ والسلطة الحامية ولو أنهم ظلوا متصلين كل الاتصال بالسلطة الرئيسية في العاصمة

ثم هناك ظاهرة جديدة ظهرت في عصر الأسرة الخامسة . وذلك أن الأمة المصرية بدأت تبدي عنايتها بالبلاد الواقعة وراء حدودها وخصوصا بلاد النوبة بينما كانت الأمة في عصر الأسرة الرابعة تبذل كل جهودها وتصرف نشاطها في شئون داخلية مثل بناء إهرامات ضخمة ومعابد واسعة ولم تكن بالبلاد المجاورة لها الغنية بأخشابها ومعادنها وما حلت الأسرة الخامسة حتى رأينا البعثات قد تعددت ، فأرسلت في عصر كل ملك بعثات إلى سوريا وإلى بلاد الصومال ثم إلى بلاد السودان فيما وراء الشلال

ونحن إذا قارنا بين الأمرتين الرابعة والخامسة وجدنا أن أهم الاختلافات بين عصريهما هو من الناحية الدينية .

فإن الأسرة الخامسة هي التي جعلت الإله رع (إله الشمس) إلها للدولة ونحن إذا رجعنا إلى الماضي أي إلى ذلك العصر الذي وحدث فيه مصر لأول

مرة لتذكرنا أن هيليو بوليس مقر عبادة الاله رع كانت عاصمة مصر المتحدة
 وفي عهد الامرات الاولى حتى آخر الامرة الرابعة كانت منفيس عاصمة مصر
 المتحدة . وفي عهد الامرات الاولى حتى آخر الامرة الرابعة كانت منفيس
 عاصمة الدولة وكان إله الدولة فيها هو حوريس وعند ما رجعت كفة كهنة
 هيليو بوليس وتمكنوا من الاستيلاء على الحكم قربوا بين الالهين وأدعجوها
 وجعلوا منهما الها واحدا سموه حوريس رع وصوروه على شكل انسان له رأس
 الصقر وعلى رأسه قرص الشمس ، وأحيانا صوروا قرص الشمس وجعلوا له
 جناحين هما جناحا الصقر

ولقد كانت هيليو بوليس مدينة اشتهرت بمدرستها الفلكية حتى أن رئيس
 كهنتها لقب بالفلكي العظيم واليه يرجع الفضل في وضع أساس الفكرة
 الدينية « كيف وجد العالم » . فمن تعاليم كهنة هيليو بوليس أن الاله : « أتوم
 رع » أول الالهة المعمورة خلق من نفسه الهين : شو وكان الاله القضاء ثم تفنوت
 الاله الماء ثم تزواج هذان فأنجبا « جب » الاله الارض و « توت » الاله السماء
 فتزاوجا وأنجبا أوزوريس وإيزيس ثم زيت ونفتيس وتزاوج الاولان فكان
 ولدهما حوريس الذي انتقم لاييه من عمه زيت ، وهذه المجموعة من الالهة
 الناشئة عن التزاوج تسمى (تاسوعة هيليو بوليس) ، وهذا وهناك تعاليم
 أخرى عن خالق المعمورة ظهرت في مدرسة منفيس الدينية وهي تقول إن
 الاله بتاح هو أول الالهة العالم وهو الذي خلقه ثم أتوم كان فكرته وجوريس
 قلبه وتمحوت لسانه وعلى ذلك استعان الاله بتاح بالفكرة والقلب واللسان
 في خلق العالم . ولقد بقيت هذه التعاليم بجانب تعاليم هيليو بوليس ولكن لم
 تفصل في قوتها وانتشارها إلى ما وصلت اليه تعاليم هيليو بوليس

ولم يتمكن الآله رع أن يصبح إلهاً للدولة إلا في عصر الأسرة الخامسة
ولكن ظهرت في العصور التي تسبق الأسرة الخامسة بعض مظاهر تدل على
أن هذا الآله وجد بين رجال المناطق المجاورة من بجاله وبعثقه : فمثلاً نعرف
أن ثاني ملوك الأسرة الثانية كان اسمه زب رع أى « الآله هو رع » ثم نجد
ثلاثة من ملوك الأسرة الرابعة ذكروا رع في أسمائهم وهم ددف رع - خفرع -
منقرع . وأيضاً ظهور لقب خامس من القاب ملوك مصر ألا وهو « ابن رع »
ظهر هذا القاب في عصر الملك منقرع وهذا اختلاف كبير بين لنا مركز
الملك الدينى فكما نعرف كان الملك حتى الأسرة الرابعة هو حوريس وكان يطلق
على نفسه اسم الآله العظيم ونجأة أصبح الملك ابن الآله رع وليس هو الآله رع
بنفسه ، وفوق ذلك فقد اكتفى بأن يلقب نفسه « بالآله الطيب » وجعل
« الآله العظيم » كصفة من صفات الآله رع .

هذا كله يدل على أن الملكية في مصر أخذت شكلاً آخر وأن الآله وضع
في درجة أعلى من درجة ملك مصر وكان ذلك كما ذكرت من أول الملك منقرع
الذى بدأ بأن يسمي نفسه ابن الآله رع وأخذت هذه الفكرة الدينية مظهرها
الكامل في عصر الأسرة الخامسة

بردية وستكار : ولقد وصلت إلينا بردية قديمة تحدث كاتبها عن ملوك
الأسرة الخامسة .

هذه البردية اسمها بردية وستكار (وسميت بهذا الاسم تخليداً لاسم من
عثر عليها في مصر (مس وستكار) ولقد باعت هذه السيدة هذه الورقة
البردية الى العالم الألمانى لبيوس وانتقلت من هذا الى متحف برلين ولا تزال
باقية فيه .

وتدل لغة هذه البردية على أنها كتبت في عصر الأسرة الثانية عشرة غير

أن العصر الذي تحدث عنه الكاتب كان عصر الأميرة الرابعة ولقد ورد من أسماء ملوك هذه الأميرة خوفو وخفرع . وبدأ كاتب هذه القصة التي كتبت على بردية وستكار حديثه فقال :

ذات يوم لما كان الملك خوفو يحكم كل البلاد قال لسكبير رجاله وكان واقفاً أمامه: اذهب وناد جميع أبنائي ووزرائي لأسألم عن شيء . فحضر أولاد الملك ووزراؤه ووقفوا أمامه وعندئذ خاطبهم قائلاً : هل يعرف أحد منكم رجلاً يمكنه أن يقص على شيئاً من أعمال السحرة.

وهنا كتب بعض القصص التي حكيت للملك من أولاده عن رجال قاموا بأعمال سحر عجيبة وعاثوا في أزمنة خاطرة . وبعد أن انتهوا من ذلك تقدم إليه ابنه (حور ددف) وقال :

لقد سمعت جلالتك قصص السابقة التي لا يعلم صدقها أحد ولكني سأجلب رجلاً لجلالتك يعيش في أيامك ، فسأله الملك : ومن يكون هذا الرجل ؟ فأجابه أنه رجل يدعى « ددى » له من العمر مائة سنة وعشر . يأكل كل يوم . . . رغيف ونفذ عجل ويشرب مائة كأس من الخمر إلى هذا اليوم . وهو يعرف كيف يعيد الرأس بعد فصلها وكيف يحجر الأسد ورائه . وهو يعرف زيادة على ذلك صور منازل تموت التي يبحث عنها جلالتك منذ زمان بعيد ليعمل مثلها في هرمه .

وفعلاً أحضر الملك هذا الساحر وقام أمامه بكل أحاجييه السحرية ونجح فيها كل النجاح .

ثم سأله الملك خوفو : وهل حقاً ما يقال أنك تعرف رسوم منازل تموت ؟ أجابه ددى ولا أنا لا أعرف هذه الرسوم ولكني أعرف مكانها .

فسأله الملك وأين هذا المكان ؟ فأجابه ددى : يوجد صندوق حجري في غرفة اسمها غرفة السطح في مدينة هيليو. وليس على إحضارها اليك إلا رجل واحد . فسأله الملك ومن يكون هذا الرجل ؟ أجابه ددى : هو أكبر الثلاثة الأبناء الذين في جسم (رد - ددى) فقال جلالتة : ومن تكون هذه السيدة فأجابه ددى هي زوجة أحد كهنة رع وقد هلكت هي من رع بمولد هؤلاء الأبناء الثلاثة ولقد وعدوها الآله بأن أولادها بالتتابع سيتولون الحكم على بلاد مصر

فخزن الملك على ذلك واسكن ددى أكد له أنه — أى الملك خوفو — سيحكم ثم بعده أولاده ثم بعد ذلك أولاد هذه السيدة.

الأدب والفن : لقد تحدثت اليكم عن الانقلابات التي حدثت في مصر في عصر الأسرة الخامسة من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية . وبقي على أن نتحدث عن الناحية الأدبية والفنية :

عصر الأسرة الخامسة عصر غنى بوثائقه الأدبية ولقد وصلت إلينا أوراق يردية دلتنا على مظاهر الفكر المصرى في ذلك العصر .

ومن بين هذه الأوراق ما تحدث عن واجبات المصرى كفرد في المجموعة وصاغها كاتبها (واسمه بتاح حوتب) في قالب نصائح وبين فيها للمصرى قواعد الحديث ثم العادات المتبعة في الزيارة وواجب الابن نحو أبيه ثم الصداقة وأسستها وحقوق الحاكم والتزاماته

وأعطيك الآن أمثلة من هذه النصائح :-

(١) إذا دخلت مجلسا فتكلم فيما تعرفه والتزم الصمت إذا جهات أمرا لأن الكلام صناعة وفن وهو أصعب من أى فن آخر .

(٢) لا تعتمد على الثروة إذا أصبحت من أصحابها ولا تنس أنها هبة من الله

وانها لاتعطى لك الحق فى احتقار من هو أصغر منك .

(٣) إذا كنت صديقا لشخص فلا تكثر عليه الأسئلة ويكفى إخلاصك له
وعندك منك إظهار صداقتك له من حديثك اليه

(٤) إذا دعاك كبير إلى طعام فاقبل ما يقدمه لك ولا تطل نظرك اليه ولا
تبادره الحديث قبل أن يسألك . لأنك تجهل ماوافق مشربه بل تسكلم عندما
يسألك فيمجبه كلامك .

(٥) لاتنخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك .

(٦) إذا دخلت منزلا لغيرك فاحذر أن توجه ذهك الى خدر نسائه فكم
هلك أناس من جراء ذلك .

(٧) إذا كنت عاقلا فرب ابنك حسبا يرضى الله تعالى . وإذا شب على مثالك
وجد فى عمله فاحسن معاملته واعتمد به . أما اذا طاش وساء سلوكه فهدب
أخلاقه وأبعده عن الشرور لئلا يستخف بأمرك .

(٨) إذا كنت عاقلا فاتخذ لك زوجة . ودبر لنفسك منزلا . وحب
زوجتك التى هى شريكك فى حياتك وقدم لها الطعام والشراب والملبس
وأحضر لها العطور وأدخل عليها السرور . ولا تكن شديدا معها فبالين
تملك قلبها . وأد مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك

(٩) لاتترك التحلى بحلية العلم ودماثة الاخلاق .

كذلك وصل الينا من عصر الأميرة الخامسة والأمره السادسة ما نسميه
« نصوص الاهرامات » . وهى مجموعة قديمة جداً نقشت على جدران حجرات
الدفن فى هذه الاهرامات . هذه النصوص ليست إلا الطقوس الدينية التى
كانت تقام عند الوفاة . وفى أيام الأعياد . كتبت فى قالب أغاني تحوى آمال
وتمنيات الميت فى الخلود . زد على ذلك أنها تشير الى بعض العادات والنظم

في العصر القديم . ولذلك فهي تعد مجموعة تاريخية سجلت تطور المصري في حياته وعقائده الدينية والاجتماعية .

أما الناحية الفنية فمعروف يطول شرحها إذا أردت الأسهاب ويكفيكم أن أن تعرفوا أن الأسرة الخامسة كانت تختلف عن الأسرة الرابعة من ناحية الفن . فنحن إذا نظرنا إلى الأسرة الرابعة . وجدنا أبيتها ضخمة عظيمة واسعة خالية من النقش والزخرفة . أعمدتها مربعة بسيطة . أما أبنية الأسرة الخامسة فكانت صغيرة بالنسبة للأسرة الرابعة . مزخرفة تكثر فيها الألوان والنقوش والرسومات . أعمدتها مستديرة أو مثمنة أو لها ١٦ ضلعاً تلتهم بقمة كقمة النخلة أو كزهرة اللوتس .

اسماء ملوك الأسرة الخامسة

- (١) أومركاف
- (٢) ساحو رع
- (٣) نفر إدكارع
- (٤) شيسكارع
- (٥) نفر إف رع
- (٦) ني أومر رع
- (٧) منكاحور
- (٨) ددكارع (اسيني)
- (٩) أوناس

لقد بنى كل ملك من ملوك الأسرة الخامسة هرمًا له ثم معبداً للشمس . وبذلك انفرد الآلهة بعبادة خاصة تقام في معبد خاص . هذه المعابد الشمسية

كانت تختلف عن المعابد الجبائزية الملحقة بالهرم فكانت تبني حول مسلة ضخمة مقامة على قاعدة عالية يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترا . وكانت هذه المعابد لا تحوى صورة للاله أو تمثالا له . فآله الشمس لم يكن كالألهة الأخرى التي تعيش على الأرض أو تختبئ في جسم حيوان أو جماد . فالشمس تسطع في السماء وترسل أشعتها على الأرض . هذه الأشعة كانت تتجمع على قمة هذه المسلة الذهبية ثم تنعكس ثانية إلى الأرض

أومر كاف : أول ملوك الأسرة الخامسة وكان من رجال الدين لم تقع في عصره حوادث تذكر لأنه كان مهتما بتوطيد سياسته في الداخل .
سحور رع : أما الملك سحور رع فكان أول ملك احتفل هدوء الحالة في مصر وصرف همه إلى التوسع واتجه في سياسته إلى ما وراء الحدود . فأرسل أسطولا إلى بلاد فينقيا حيث هزم شعبها وأمر عددا كبيرا منهم وجلب إلى مصر رؤساء القبائل وأولادهم ونساءهم ثم عددا كبيرا من الماشية . وكذلك اشتبك في حرب مع القبائل التي سكنت بلاد ليبيا وهزمهم شر هزيمة وأرسل أسطولا بحريا إلى بلاد بونت (الصومال) لجلب الأخشاب الثمينة . والصمغ والبخور كما أنه أرسل حملة برية إلى شبه جزيرة سيناء .
ولقد حافظ الملوك الذين خلفوا سحور رع على عرش مصر على علاقاتهم السياسية فيما وراء الحدود وكانوا تارة يخفون وقارة ينجحون في مهمتهم هذه يدفعهم إلى ذلك فضول الثروة مصر واحتياجهم إلى توطيد سلطانهم على حكام الأقاليم الذين بدأوا يشاركون الملك في سلطته المركزية سائلين منه هذه السلطة رويدا رويدا .

ومما يؤسف له أننا مازلنا غير قادرين على إعطاء صورة واضحة لمصر على

ملك من ملوك الأسرة الخامسة الذين خلفو سحر رع . وفكتي بحديثنا عن
مظاهر الحضارة في عصر هذه الأسرة

الأسرة السادسة

٢٤٢٠ — ٢٢٧٠

لقد انتهت الأسرة الخامسة بموت ملكها الأخير أوناس ونحن لا ندرى
الدواعي التي أدت الى انقراض هذه الأسرة كما لا نعرف هل أتت الأسرة السادسة
بعد أن تزوج أول ملوكها بأميرة من بيت الأسرة الخامسة أم اغتصب الحكم
بالقوة . وكل ما نعرفه أن الأسرة الجديدة بقيت في منفيس وحكمت البلاد على
أسس الحكم القديمة .

وملوك هذه الأسرة هم :

- (١) تيتي : ويظهر أنه حكم طويلا ويقدر أن مدته حكمة بعشرين عاما
- (٢) أوسركا رع : ولا نعرف عنه إلا النزر القليل
- (٣) بيبي الأول (ميرى - رع) حكم ٢٠ عاما
- (٤) مرنرع الأول : حكم ٥ أعوام
- (٥) بيبي الثاني (نفركار رع) : ولقد تولى عرش مصر حينما كان عمره ستة
أعوام وتولى العرش تحت وصاية أمه ولقد عاش مائة عام ويكون بذلك قد حكم
٩٤ سنة وهي أطول مدة حكم فيها ملك أمة .

ونلاحظ أن عصر الأسرة السادسة كان عصرا حافلا بمحادثات خطيرة كادت
تهدم كيان الأمة المصرية وتقودها الى الخراب لولا نقطة السلطة المركزية
وتجود قواد بارعين في أساليب الحرب أخلصوا وتعاونوا في الدفاع عن
حدودها وسدد ذلك الثبات الجسار من القبائل المهاجرة التي تركت أوطانها

وهاموا على وجوههم لاهم لهم إلا الغزو والحرب وتدفعوا الى مصر من حدودها الشرقية . ونحن نعرف أن القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . كان محتازاً بلقب قرن الهجرة . وذلك أن قبائل عديدة سكنت الجزء الغربي والشمالي من بلاد القرم تحركت من أوطانها واتجهت محتاجة كل ما وجد أمامها نحو الغرب والجنوب ووصلت في هجرتها الى حدود مصر محتازة في طريقها بلاد الأموريين والسكنعان ثم فلسطين .

ولقد استطاع الملك يبي الاول أن يقضى على الغزاة وتمكنت مصر في ذلك العصر أن تتقى شر هذه القبائل طوال الأسرة السادسة ولو أنها فشلت في التغلب عليهم لوقعت في المأزق الذي وقعت فيه عندما هاجمها الهكسوس في عصر الأسرة الثالثة عشرة فدخلوها وخربوا معابدها وأبادوا حضارتها ورجعوا ببلد نبتتها أجيالا الى الوراء .

العهد الأقطاعي ومظاهرة

ولقد عرفنا أن الأسرة الخامسة أسست من بين كهنة الآلهة وكان من المعقول أن هؤلاء الملوك وجهوا جل عنايتهم الى الأمور الدينية . أرادوا بذلك أن يوطدوا ملكهم بتوطيد دينهم ومعتقداتهم ولكن في نفس الوقت أغفلوا قليلا مشئون السياسة وجعلوها تفلت من أيديهم وتركز في أيدي رؤساء الأقاليم الذين انتهزوا هذه الفرصة وأخذوا يعملون على جمع السلطة في أيديهم ونجحوا في ذلك كل النجاح بل تمادوا الى أكثر من هذا وجعلوا مناصبهم وراثية يتولاها الأبناء عن الآباء وتركوا العاصمة وأمرعوا الى ولاياتهم ومكثوا فيها لا يتركونها إلا إذا تحتم عليهم ذلك . أما قبورهم التي كانت تبني حول هرم ملك مصر بأذن خاص منه فقد أصبحت الآن تبني في الأقاليم بالقرب من مدنها . بل ذهبوا الى أكثر من ذلك . إذ أنهم بعد أن

شعروا بسلطتهم أحاطوا أنفسهم بالحرس والموظفين وأصبح كل منهم أشبه بملك صغير وسموا أنفسهم (أمراء الاقاليم العظام) بدلا من حكام الاقاليم . هؤلاء الأمراء أصبحوا قوة يخافها كل من جلس على عرش مصر وهذا هو ما حدث فعلا إذ أن ملوك الامرة السادسة بدؤا حكمهم بأن توددوا الى هؤلاء الحكام وأمعنوا في التودد فكانوا يضيفون أبناءهم في القصور الملكية ويربونهم مع أبناءهم . ولم يكن هذا التردد لخوفهم منهم فقط بل كان أيضا سياسة أرادوا به أن يضمنوا ولاءهم للعرش . وكانوا يستميلونهم الى سكنى العاصمة كي يتمتعوا بتعليمها وينغمسوا في ملاذها فيلهبهم ذلك عن التفكير في الجاه والسلطان . ونحن نكاد نشبه ذلك العصر بالعصر الاقساعي في أوروبا الذي حدث في القرن الخامس والعاشر بعد الميلاد حيث كان حكام الاقاليم الذين يلقبون (بالدوق والكونت والمركيز) لهم من السلطة ما جعل الملوك يخرجون بخيوشهم لمحاربتهم وسلب السلطة منهم وإضعاف شوكتهم كما حدث ذلك من ملوك الكارولينجين .

ولكن هؤلاء الحكام استطاعوا أن يستردوا سلطتهم مرة أخرى بعد موت شارلمان.

بيي الأول : ولقد كان الملك بيي الأول بلا نزاع أقوى وأعظم ملوك هذه الامرة . سياسته الداخلية كانت ناجحة إذ تمكن من أن يستميل حكام الاقاليم وبذلك أمن جانبهم وتفرغ للشؤون الخارجية . ولقد استعان بخدمات رجل فذ حكيم من بين موظفيه اسمه أونى أولاه كل ثقتة وجعله قاضيا ثم كاهنا ثم ناظرا على أملاكه ثم قائدا أعلى لجيوشه .

ولقد نجح أونى هذا في محاربة قبائل الهندو الذين هاجموا حدود مصر الشرقية . ولقد جمع جيشا جرأا من المصريين والنوبيين والسبيين واضطلع

أن يصد هجماتهم خمسة مرات وفي كل مرة يوقع بهم خسائر فادحة ويطاردونهم إلى مدنها ويحرقونها ويتركها قاطا صنفقا . ثم بعد ذلك اضطر أوتى هذا نزولا على أمر ملكه بيبي الاول أن يذهب مرة سادسة إلى فلسطين على رأس حملة بحرية نجحت كل النجاح وفتك بالعدو ورجع سالما .

مرزوع : واصل دام حكم بيبي الاول عشرين عاما كانت مصر فيها تتمتع بعصر ذهبي لم تر مثله في عصر أى ملك آخر من ملوك الأسرة السادسة . ولما مات بيبي الاول خلفه ابنه مرزوع الذى احتفظ بالوزير أوتى ورفاه إلى حاكم الجنوب وذلك لظهور الاضطرابات في بلاد النوبة واضطراره أن يوجه همه الآن إلى هذه البلاد لأرجاع السكينة والهدوء إليها . وفعلا توجه أوتى إلى بلاد النوبة على رأس جيش كبير وتمكن من هزيمتهم وجعل حدود مصر وراء الشلال الثانى ورجع بننائهم لأعد لها إلى مصر .

بيبي الثانى : عاش الملك مرزوع مدة قصيرة ومات بعد أن حكم خمس سنوات وخلفه أخوه بيبي الثانى وهو فى السادسة من عمره وكما قلت لكم عاش حتى بلغ المائة فكانت مدة حكمه أطول مدة عرفها التاريخ .

ولقد مات أوتى فى أوائل عصر هذا الملك وخلفه فى منصب حاكم الجنوب رئيس أسرة كانت تحكم جزيرة النوبة التى تواجه أسوان واسمها حرخوف .

ولقد قام حرخوف بعدة حملات إلى بلاد النوبة وتوغل فيها وتمكن من الوصول أيضا إلى ما وراء الشلال الثانى وأخضع القبائل للثائرة هناك وفى أواخر أيام بيبي الثانى انتهز أمراء الأقاليم فرصة ضعفه لشيخوخته واستعادوا كثيرا من مملكتهم وجبروتهم وبعد وفاته خلفه ملك ضعاف حكموا مديدا قصيرة

كلمة عامة عن الحالة الفكرية في الدولة القديمة

يصعب علينا أن نشبه المصري بالأغريق في ناحيته الفكرية .. فالمصري لم يهتم بالعلوم من ناحيتها العلمية الخضة ، فعلى الأغريق بل اهتم بها من ناحيتها العلمية . فما استفاد منها عملياً درسه وتعمق فيه . ومن العلوم التي اهتم بها الفلك والحساب والهندسة والطب . ونخص الطب بالذكر وخصوصاً بعد أن ظهرت الورقة البردية التي نسميها بردية ادوين سميت ؟ (هذه الورقة كتبت في عصر يسبق الأسرة الثانية عشرة ولكن في أسلوبها وتراكيبها الفقهية ما يثبت أنها ألقت في الدولة القديمة) هذه الورقة تحدثت بأسباب عن التقسيم الأناتومي لكل أعضاء الجسم ثم ذكرت دواء كل مرض وحظرت على الطبيب أن يصف الدواء قبل أن يشخص الداء .

ولقد ذكر لنا هيرودت أن الطب في مصر متقدم الى درجة جعلت لكل نوع من الأمراض طبيباً خاصاً وقال إن هناك في مصر أطباء مختصين بالعيون وآخرين بالأسنان ثم بالأمراض الباطنية . ولقد أثبتت الأبحاث صدق هيرودوت وخصوصاً الحفريات التي عملت في منطقة الجيزة أن كشفت لنا مقابر لأطباء مختلفين . ولقد عثر الأستاذ يونيسكر في منطقة الجيزة على جثة لامرأة ظهر فيها تقدم طب الأسنان ظهوراً جلياً إذ أن إحدى أسنان هذه السيدة دلت وتثبتت بواسطة سلك ذهبي بالسن المجاورة . ولقد دلتنا القباب هذه الطائفة على نظامها الدقيق وتقسيمها البدني . المؤسس على آثار الطبيب ومجهوده

الشخصي فمذاك الطبيب ثم رئيس الأطباء ثم طبيب الملك ورئيس أطباء البلاط بل
هناك أيضاً طبيب أسنان الملك ثم رئيس طباء الاسنان في البلاط الملكي .
وهكذا .

وإن نظرة بسيطة نلقيها على أبنية الدولة القديمة من أهرامات ومعابد
ومصاطب ترينا تفوق المصري في علوم الهندسة والحساب والعلوم الرياضية بأجمعها
أما النظم الاجتماعية والكالات الخلقية التي كان يرنو اليها المصري فقد رأيناها
واضحة في النماذج التي ذكرتها لكم والتي خلفها لنا الوزير بتاح حوتب

عصر الاضمحلال الاول

وهو العصر الذي يفصل بين الدولة القديمة التي انتهت حوالي ٢٢٧٠ وبالدولة

الوسطى التي بدأت حوالي ٢٠٠٠ ق م

لقد عاش بيبي الثاني قرناً كاملاً يحكم البلاد منه ٩٤ سنة وبذلك طالت مدة
حكمه وقضى على الاميرة السادسة وانجلى بموته . وخلفه ملوك على عرش
مصر لا نعرف عنهم شيئاً والسبب في ذلك عدم عثورنا حتى الآن على آثار
تحدثنا عنهم . ومن هذا ترونا مصطرين أن نعتقد فقط على القوائم التي
وصلتنا من عصور متأخرة وذكرت لنا أسماء بعض الملوك من هذا العصر .
نحن نعرف من هذه القوائم (الجداول) أن ملكاً اسمه مريزح الثاني خلف بيبي
الثاني على العرش . وأن مدة حكمه كانت سنة واحدة . ويقول مانثون أن
سيدة اسمها نيتوكريس تولت عرش مصر بعد ذلك . ويقول أيضاً أن مصر
حكمت بسبعين ملكاً كل ملك منهم حكم يوماً واحداً . هؤلاء كانوا ملوك
الاميرة الخامسة وإذا صح هذا كان ملوك الاميرة السابقة ليسوا إلا أكبر

رجال الدولة المصرية الذين أقاموا من أنفسهم مجلسا يشبه بمجلس الوصاية على العرش وحكم كل منهم يوما واحدا حتى تحتب الأتور وينتخب الملك على مصر . وعلى ذلك نرى أن من الواضح أن الأسرة السابعة لم تكن أسرة وأن ملوك هذه الأسرة لم يكونوا ملوكا

وماتيتون عرف ملوك الأسرة الثامنة وعد منهم ١٨ ملكا حكموا ١٤٦ سنة ولكن جدول بردية تورين (وهذه البردية تهشمت وخصوصا في الجزء الذي يتحدث عن هذا العصر) يذكر بعد الملك مرنرع الثاني ثمانية ملوك وأعطى لسبعة الملوك الآخرين (الذين انتهت بهم الأسرة) سبعة سنوات أى أن كلا منهم قد حكم سنة واحدة . وجدول سقارة ذكر بعد ملوك الأسرة السادسة ملوك الأسرة الحادية عشرة تاركا كل ما يتعلق بملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره بينما جدول أبيدوس ذكر بعد الملك مرنرع الثاني ١٧ امما ملوك نرى تشابها بين أسماءهم وأسماء الأسرة السادسة ، فتلا خمسة منهم كانوا يسمون باسم يبي الثاني نفركارع وأحد هؤلاء الملوك كان اسمه نفر-أبردكارع (وهو كما تعرفون اسم ثاني ملوك الأسرة الخامسة) من هذا نرى أن هذه الأسرة اعتلت عرش مصر لأنها كانت تحت يطة القرابة الى الأسرة السادسة ولكن للأسف ما زلنا غير قادرين على التوفيق بين أسماء جدول أبيدوس . وجدول بردية تورين . وبين الملوك الذين ذكرهم ماتيتون وليس السبب في عدم معرفتنا بمصر الأسرة الثامنة هو عيديم عثورنا على آثار هؤلاء الملوك فحسب بل أيضا لأن مقابر أبراف هذا العصر (ولدينا منها الكثير في سقارة وفي دندره) لم تذكر أسماء هؤلاء الملوك ، بل عند الحديث عنهم يذكرون فقط اسم « صاحب الجلالة » ولقد أصبح حكام الأقاليم أصحاب السلطة في أقاليمهم . وأكبر مثل على ذلك أن أحدم ويدم ، حنقو

قال في نصوصه انه حكم في أول الامر مقاطعته بالاشتراك مع أخيه خمرع ثم حكمها بعد ذلك وحده . ولقد وصف هذا الرجل نفسه بشكل يجعلنا نشك في قدرته على الحكم . فقد قال في وصف محاسنه وما آثره . وقل من كان كذلك كانت هذه الخواص ناقصة فيه . لقد تحدث قائلا : موجهها حديثه الى أفراد شعبه .

« لقد كنت رجلاً ثقيلاً أحبني آباؤكم وأثنى على أمهاتكم ولقد سميت الى دفن الكهول منكم كما آويت من فقد أباه وأمه . ولم أحاول مرة أن أستعيد ابنة لأحدكم وأعطيت الطعام للجائهم واللباس للفقير المعدم (لامريان) واقبضت ملائكت حقر لاسم بالماشية بل لقد أطعمت الدواب في الجبل والنسور التي تحلق في السماء . ولقد أمانحت ما تهدم من أبنية مقاطعتي وملائكتها بعد ذلك بالماشية والرجال الذين أخذتهم من مقاطعات أخرى (ولم يذكر لنا كيف تمكن من احضار الرجال والماشية والمقاطعات المجاورة هل بالحرب والامر أم بطرق سلمية) وأصبح بذلك من أستعبد قبلاً من أصحاب الاراضي الآن »

هذا الوصف يعطينا أولاً فكرة عن سيطرة صاحب الحكم في المقاطعة وأنه أصبح الآن بعيداً كل البعد عن تلك السلطة الممثلة في ملك البلاد الذي كان يقطن في ذلك الوقت أيضاً منفيص . ومن ناحية أخرى تعطينا فكرة عن الحالة الاجتماعية في البلاد حيث الجوع والفقر والتهديم الظاهر في أبنية القوم وألا فلماذا فخر حثقو بذلك ولماذا تحدث رجل آخر من هذا العصر عما يأتي (وهو من حكام مقاطع أسبوط) قال بعيد أن فخر بأعماله وسيفيه لاحتلال الهندوه بين رجال مقاطعته : « وأصبح كل موظف يجلس في مقر وظيفته وانتهى القتال والتمتلك الذي كان يتضي على الطفل الذي جلس بجانب أمه ويسلب الرجل من امراته »

ولقد كان هذا العصر عصر ثورات داخلية . أتى على وصفه بكل صراحة
 زنجي اسمه ايبوور ؟ وبعض فقرات مما قاله تعطينا فكرة عن حالة مصر في
 ذلك العصر قال .

« لقد انقلبت الملة في مصر رأسا على عقب . حقيقة النيل لا يزال
 يجري ويأتي بفيضان وسار لا تقدم أي مصرى على حرث أرضه بل يقول
 كل منهم نحن لا ندرى ماذا حدث بمصر . حقا لقد وقعت مصر في الهاوية
 ولقد عم الحزن البلاد وانتشر العويل . الأغنياء يولولون والفقراء عمهم الفرح
 ورجال كل مدينة يقولون : فلنقمز على رجال السلطة الآن . ولهم الحق في ذلك
 إذ أن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تكاثرت حول أعناق الخادومات
 (العبيد) بينما نساء البيوت (الطبقة الراقية) يهيمن على وجوههن ويقلن
 هل لنا من كنزة فأكلها . أنظروا لقد فسد النظام وأصبح الناس كلماشية
 بدون راع لها . أنظروا من كان في الوقت السالف يرتدى أحسن الملابس
 أصبح يدير الآن وعليه خرق . ومن كان لا يملك نولا واحدا أصبح الآن
 يرتدى أفقر أنواع الكتان . أنظروا من كان لا يملك رغيفا يأكله
 أصبح الآن من أصحاب الثمن ولكن هذه يملؤها بغلال الآخرين . أنظروا
 من كان معدما أصبح الآن من أغنياء البلاد ، ومن كان غنيا أصبح فقيرا ،
 الاسبيونون قد انتشروا في البلاد وحضر الأجانب إلى مصر أفواجا وأصبح
 كل مصري له ضمير يسير والحزن يملأه لما يحدث في البلاد إذ أن الاجنبي
 أصبح هو الآن ابن البلاد . حتماً إن الناس قليلون على الأرض ولكن في مصر
 أصبح كل أخ يقتل أخاه . لقد أصبح الجميع ينادون : ليتنا كنا أمواتا
 أو الأطفال يقولون ليت أمهاتنا لم تلدنا »

ولقد اهتم الأستاذ يونسكر (وهو من أكبر العلماء الألمان المشتغلين بالآثار) بهذا العصر وتمكن أن يستدل من حالة الآثار التي عثر عليها . على الحالة التي وصفها لنا ايبو ور . فقد كانت كل المقابر التي بنساها عظماء الأسرة السادسة وما قبلها في حالة سيئة تدل على القوضى التي شرت في البلاد في ذلك الوقت . وكانت التماثيل متروعة من مواضعها في المعابد ومهشمة إلى آلاف من انقطع . وحجرت الدفن قد سرقت . والتواييت قد كسرت واستعملت بعد ذلك لبناء المقابر وللنازل وكذلك الأبواب الوهمية والمناظر الجميلة التي حفرت باتقان على جدران المصاطب هشتت بطريقة وحشية هذه الحالة وهذه الثورة لم تؤثر فقط على النواحي الاجتماعية في مصر بل أيضا أثرت على الحالة الدينية وأصبح المصري يرى مثله العليا تعاب أمام غيبه بكل أذى ويلحق بها الدمار بطرق وحشية . أصبح الملك العنوبة في أيدي حكام الاقليم . وأصبح أشبه بالسجن في عاصمته . وضاع بذلك مركزه الديني الذي تتمتع به والذي وضعه طوال الدولة القديمة كاله ثم في عصر الأسرة الخامسة والسادسة كان الاله واسكنه كان في كلتا الحالتين الوسيط الوحيد بين دنيا الأرض ودنيا الآلهة . لم ير المصري هذا فقط بل رأى أيضا حياته الثانية التي كان يحيا على الأرض من أحلها وكان يعمل ويكد ويجهد نفسه ويجمع المال ويعلف بنفسه لكي يسهل لنفسه السبل التي تحفظ له الحق وتمكنه من حياة خالدة هائلة كلها سعادة إن الأمل فيها قد ضاع . رأى المقابر تسرق والتماثيل تهشم والمناظر والنقوش يهزأ بها ورأى أكثر من ذلك أن الجاني لا يعاقب . وهنا تسائل المصري أولا عن معنى الحياة . وثانيا عن أهمية اعتقاداته الدينية . ولأول مرة في تاريخ مصر صادفتنا مثل هذه الاسئلة . وكلنا يعرف تماما كيف كان المصري يحرص على آلهته ويحرص على معتقاداته . ولقد وصلت

الينا ورقة بردية محفوظة الآن في برلين كتبها رجل اسمه نيسو تماهـل هذا الرجل هل هناك من فائدة للحياة وقد حل بعصر الدمار وأصحت الحياة كلها هموما ومتاعب . وهو في تساؤله هذا لم يفسر لنا حالته الشخصية بل كان يتحدث عن المجموعة التي هو واحد منها ويحق له أن يكون مثلاً طاماً المصريين وكيف لا يبحث عن الموت ويؤهد في الحياة وقد تركت البلد لمجرميهـا يحكمونها ويواصلون العبث ضد آلهتها وينتهكون حرمة معابدها ويطئون قوانينها بأرجلهم ويحولون العار بتاريخها المجيد

أما النقطة الثانية التي عرض لها فهي . المعتقدات الدينية : هل من الواجب أن يعتقد الإنسان في الحياة الثانية وفي الخلود هنا انقردت مآلرد القرينة ولقد كان التحدث بين نيسو (وهو الرجل المصري الفاضل الذي يود أن يحتفظ بمعتقداته ويود أن يذهب بسرعة إلى دنبا الخلود حتى يتمتم بما أخذ منه في دنبا الأرض) كطرف أول وبين قرينته (روحه) كطرف ثانى . أما القرينة فكانت تطلب منه ألا يفكر في دنبا الخلود وألا يسمى وراء الموت بل يجب عليه أن يأخذ حياته كما هي ويبحث عن الفرح ويلهو به ويطرد عنه الحزن والهم ويقنع بما مسمح له القدر به من حظ وحياة

وبحق لنا أن نقول إن القرينة انتصرت وإن المصري كان قد تنهى في ذلك العصر عن العقيدة الراسخة بحياة الدنيا الأخرى ويدلنا على ذلك لوحة تذكارية من عهد الأسرة الحادية عشرة نقش عليها الأغنية الآتية :

« كن سعيداً واجعل قلبك ينسى أنك ستموت يوماً وأكثر من سعادتك على الأرض حتى يحل اليوم الذى يندبونك فيه . فتأكد أن أوزيريس ملك الدنيا الثانية لن يستمع إلى صراخهم ولا يمنع العويل الموت عن أى رجل ولذلك فاحتفل بيومك السعيد ولا تجعل للتعـب اليك سبيلاً في هذا اليوم ولا تنس أن من مات لن يعود إلى الحياة ثانية »

هذا العصر كان عصر فوضى قسم المصريين في معتقداتهم الى قسمين :
 الاول يفضل المرح والسرور يسعى جهد طاقتة أن يقنع بما هو فيه وفي
 نفس الوقت يحقر الدنيا الثانية ولا يعتقد فيها . أما القعم الثاني فهو هؤلاء
 الرجال الذين عرفوا الحياة وشعروا بالآزمة ولكنهم لم يفقدوا الأمل وبقوا
 على اعتقادهم في الدنيا الثانية وأملوا أنفسهم بالسعادة فيها ولكن عرفوا أن
 هذه السعادة والتمتع لا ينالونها بما يضعون من أثاث فاخر وما كل مترا كمة
 وملابس حريرية في المقبرة بل بما صنعوا في الحياة . فمن عمل صالحاً طاش
 حياة كلها متعة ومن كان محرماً ضيقت عليه آثامه التمتع في الحياة الثانية .
 هذه الفكرة ظرت لنا بعد ذلك واضحة في الدولة المتوسطة : فأصبح
 الميت يقدم أمام المحكمة التي تزن حسناته وسيئاته وعندئذ ياتي ملك الدنيا
 الثانية ورئيس المحكمة الاله أوزوريس بحكمه على ذلك الميت
 وأحسن مثل يضرب لذلك ما قاله مري كارم من الاميرة العاشرة معذراً
 للناس : لا تطمئن إلى حياتك الطويلة على الارض فان قضاء محكمة العدل
 ينظرون إلى سنى حياتك كما لو كانت ساعة واحدة . الانسان سيبقي بعد
 موته أعماله ستبقى بجانبه . سنحى حياة الخلود في الدنيا الثانية وأحق
 كل من لا يعتقد في دنيا الخلود . ومن يقدم أمامه (امام أوزوريس) ويجده
 قد خلى من السيئات أبقاه وجعله يسير كالأله بحرية »
 وعصر الاضمحلال الاول أوجد عقيدة جديدة نشأت وترعرعت ألا وهي
 عقيدة أوزوريس الاله المرتى وملك الدنيا الثانية .

عصر حكام اهناسيا

الاسرتان التاسعة والعاشره

في عصر الامر الثامنة وجد حكام اهناسيا (غرب مدينته بنى صوف
 الحالية) القرمة مائحة لكي يمدوا نفوذهم على ما جاورهم من المقاطعات

أملين بذلك أن يسقطوا ملوك الأسرة الثامنة ويتقلدوا هم الحكم في البلاد ويكونوا أسرة من أنفسهم وعلى ذلك نعتقد بأن هؤلاء الحكام (أو الملوك حسب تسمية مانيتون) حكموا النصف الجنوبي من مصر في نفس الوقت الذي كان فيه بعض ملوك الأسرة الثامنة يتقلدون مهام الحكم الوهمي في منفيس. ومؤسس هذه الأسرة كان اسمه ختي وتبعه ملكان آخران يحملان هذا الاسم ثم ملك ثالث اسمه برى كارع. ولا نعرف أسماء أخرى لملوك هاتين الأمرتين غير هؤلاء الملوك الأربعة.

ومن هذا العصر عثرنا على مقابر لحكام مقاطعة أسيوط وكانوا أيضاً يشمون أنفسهم Cheai ويظهر أن هذا الاسم كان منتشراً في ذلك العصر ولقد تحدث هذا الحاكم عن علاقته مع ملكة الذي أحبه وقال أيضاً أنه نشأ في بلاط اهناسيا وتعلم السباحة مع أولاد الملك بينما أمه قامت بإدارة شئون المقاطعة.

ولقد عثرنا على لوحة تذكارية لملك اسمه ختي (من ملوك هاتين الأمرتين) في جنوب مصر أي أنهم تمكنوا فعلاً من حكم كل البلاد المصرية وتمكنوا بذلك من القضاء على ملوك الأسرة الثامنة ولكن هذا الحكم لم يبق لهم طويلاً بل انفصلت عنهم المقاطعات التي بجوار طيبة وانضوت تحت لواء حكم طيبة وقد قام هؤلاء الحكام بحركة يناوئون بها حكم أسرة اهناسيا. وكونوا أسرة حكمت الجنوب بأجمعه بينما الشمال كان تحت حكم أمراء اهناسيا وبذلك يمكننا أن نقول، كما كانت الأسرة الثامنة والتاسعة تشارك في الحكم اشتركت أيضاً الأمرتان العاشرة والحادية عشرة في الحكم

الدولة المتوسطة

الاسرة الحادية عشرة :

نشأت الاسرة الحادية عشرة في طيبة وفي البلدة المجاورة لها المعروفة باسم ارمنت الواقعة على الجانب الغربى من النيل ولقد تبادل الحكم أفراد عائلة انتف ومنتوحتب

وعلى ذلك كانت مصر في هذا العصر منقسمة الى ثلاثة أقسام . الدلتا وكان يحكمها أجانب حضروا الى مصر من أسيا وذكهم Tpu-wer في حديثه ووصفه لحالة مصر ثم مصر الوسطى حتى أسيوط وكان يحكمها أفراد أسرة خيتى وهم ملوك الاسرة العاشرة المعروفون بحكام اهناسيا ثم الجنوب حتى اسوان ويحكمه أفراد أسرة انتف .

ولقد اشتهد النزاع بين حكام طيبة الذين منهم يتكون ملوك الاسرة الحادية عشرة وبين حكام اهناسيا الذين يتكون ملوك الاسرة العاشرة . وهناك صعوبة في ترتيب ملوك الاسرة الحادية عشرة فانيتون ذكر ١٦ ملكا حكموا ٤٣ سنة بينما بردية تورين ذكرت ٦ ملوك فقط حكموا ١٦٠ سنة ولسكن الغريب أن ماوسل لبنا من آثار هذه الاسرة دلتنا على أن ملوكها كانوا أكثر من ستة . ونحن نعرف من ملوك هذه الاسرة أربعة سموا بأسم انتف وستة آخرين سموا بأسم منتوحتب وكما قلت يظهر أن عائلة منتوحتب هذه كانت فرعا آخر لعائلة انتف .

ولقد خلدت لنا بعض الآثار السكفاح الذى قام بين حكام طيبة وحكام اهناسيا ونذكر مثلاً ما كتبه وزير انتف الرابع واسمه زينى الذى قاد الجيوش ضد حكام أسيوط وعلى الأخص الحاكم تف إيب الذى كان يحارب في صف

ملوك اهناسيا . ولقد بقيت هذه الحرب سجالات بين الطرفين طوال حكم
أربعة من حكام طيبة اسمهم انتف وبن اثين آخرين اسمهما منتوحتب حتى
تمكن منتوحتب الثاني من أن يسجل لنفسه النصر وتمكن من إخضاع الشمال .
وأن ينتصر انتصاراً كاملاً على ملوك اهناسيا وأمكن ملوك طيبة أن يرجعوا
التوحيد الكامل الى مصر وأن يجمعوا منها أمة واحدة

وخلف منتوحتب الثاني ابنه منتوحتب الثالث ويظهر انه شعر بقوة
الداخلية ولذلك اتجه بأطباعه نحو الجنوب وغزا بلاد النوبة ونجح في غزواته
هذه والدليل الباطن على استتباب الامن في مصر ان هذا الملك تمكن من
بناء مقبرة ضخمة في المكان الذي نطلق عليه اليوم البحرى هذه المقبرة
بقيت بشكل آخر يختلف كل الاختلاف عما بنى في عصور مصر السابقة

ثم تبعه منتوحتب الرابع الذي حرص على الاحتفاظ بعلاقات مصر
التجارية بالمناطق التي فتحها أبوه في الجنوب . وهناك نص يحددنا بأنه جلب
ثلاثة آلاف مصرى معهم من بلاد الدلتا وأرسلهم في بعثة كبيرة الى وادى
الحمامات لقطع الحجر . ولقد نجحت هذه البعثة الهائلة كل النجاح وخصوصاً
النظام الدقيق الذى اتبع إذ أن كل رجل كان يأخذ يومياً إريقين من الماء
وعشرين قطعة من الخبز ولكي يتغلبوا على وعورة الطريق اضطروا أن
يحفروا ١٥ متراً على طول الطريق . ولما وصل هنسو الى شواطئ البحر الاحمر
بنى هناك مركبا كبيرا سافر بها ومعه بعض رجال البعثة الى بونت

وكذلك منتوحتب الخامس وكذلك منتوحتب السادس أرسلوا البعثات

الكبيرة الى وادى الحمامات لقطع الاحجار

الدولة الوسطى

سنة ٢٠٠٠ إلى ١٧٨٨

لقد قدر لمصر مرة ثانية ان تستعيد مجدها وأن ترى عصرها ذهبيا في عصر
الأمرة الثانية عشرة . ولكن يجب ألا ننسى عند المقارنة بين
العصر الذهبي الأول (في الدولة القديمة) وعصر الدولة الوسطى الذهبي ذكر
الاختلاف الكبير بين ملوك تلك الدولة وهذه الدولة لقد تمكن ملوك الدولة
الوسطى أن يستعيدوا مركزهم وأن يحكموا مصر متحدة وان يسيطروا على
كل كبيرة وصغيرة فيها ولكن مع هذا لم يكن لهم ما كان لملوك الدولة القديمة
لقد عرفنا ملوك الدولة القديمة آلهة لهم سلطانهم في دنيا الآلهة كما كان لهم
سلطانهم على الأرض ولكن عصر الاضمحلال الأول سلب الملوك كل ما كان
لهم وأصبحوا أشباحا يتلاعب بهم حكام الأقاليم فان أرادوا ناصروهم وان أرادوا
ثاروا عليهم وبقي الحال هكذا حتى عصر الأمرة الحادية عشرة وتمكن حكام
مقاطعة طيبة أن يهزموا حكام اهناسيا وكتب النصر لهم واستطاعوا أن
يرجعوا إلى مصر اتحادها ويطشوا بحكام الأقاليم الذين ناوؤوهم ولكن هذا
كله لم يحدث إلا بعد أن استعانوا بمساعدة بعض الحكام الذين أملوا في توسيم
نفوذهم وسلطتهم اذا دأبتم النصر ثم إن ملوك الأمرة الثانية عشرة ساروا
على منوال ملوك الأمرة الحادية عشرة بأن ولدوا سلطة الملك بالايقاع بين
الحكام والاستعانة ببعضهم ضد البعض الآخر وهكذا كان أو أصبح لملوك
هذه الأمرة أن يتغنوا بنصرهم واعادة الاتحاد بين أقاليم مصر ولكن في نفس
الوقت تركوا بعض السلطة للحكام الذين ساعدوهم على نيل هذا النصر . وعلى
م — ٦ تاريخ مصر القديم

ذلك فالسلطة المطلقة التي تمتع بها ملوك الدولة القديمة لم تكن لملوك الدولة الوسطى .

ولأن هذا لا يمنع البتة أن يكون العصر الذهبي المتوسط قد بلغ في أهميته وتقدمه ما بلغه عصر الدولة القديمة الذهبي . فالحرب الطويلة التي قاصبتها مصر والاضطراب الذي شملها طوال هذا العصر والحنة التي شعر بها كل مصري ساعدت في نفوج العقل المصري على وجه الإطلاق .
ثم بينما كانت العاصمة والملك هما موضع السلطة ومنهما فقط تستمد مصر بأجمعها قوتها ونشاطها ويقدمها في سبيل المدنية أصبح الآن بجانب العاصمة مراكز أخرى تهتم بمظاهر الحضارة وتعمل على ترقيتها وتنميتها تلك المراكز ليست هي إلا قصور حكام الأقاليم .

ملوك الدولة الوسطى

- (١) أمنمحت الأول (حوالي ٢٠٠٠ الى ١٩٧١)
- (٢) سنوسرت الأول (حوالي ١٩٧١ الى ١٩٣٦)
- (٣) أمنمحت الثاني (١٩٣٦ الى ١٩٠٣)
- (٤) سنوسرت الثاني (١٩٠٣ الى ١٨٨٨)
- (٥) سنوسرت الثالث (١٨٨٨ الى ١٨٥٠)
- (٦) أمنمحت الثالث (١٨٥٠ الى ١٨٠١)
- (٧) أمنمحت الرابع (١٨٠١ الى ١٧٩٢)
- (٨) الملكة سبكتنفرورع (١٧٩٢ الى ١٧٨٨)

أمنمحت الأول: ملوك هذه الأسرة لا ينتمون إلى ملوك الأسرة الحادية عشرة ولم يمتوا اليهم بعلة القرابة ويظهر ذلك جليا من الاختلاف في

الاسماء . ولكننا نعرف أن أمانمجت كان يتقلد أكبر المناصب في أيام مننوحوتب الثالث وبقي متقلدا هذه المناصب حتى آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة (مننوحتب السادس) وتحدثنا بعض النصوص أنه نشأ في مدينة الكاب وان أمة كانت زنجية ولعل ذلك السبب في اختلاف تسميته إذ أن ملامحه تدل على ذلك الأصل إذن فامنمجت الأول اغتصب الملك ولعله استعان على ذلك ببعض الحكام وخصوصا لأن حاكم مقاطعة بني حسن واسمه خنوم حوتب ذكر لنا أنه حارب في صف هذا الملك وكانت هذه الحرب بحرية واشترك فيها ٢٠ سفينة كبيرة ولصكته لم يذكر العدو ولأنها وقعت في مصر وعلى النيل نطن أن العدو لم يكن إلا بعض الحكام المناوئين لامنمجت . ويساعدنا على هذا الظن ما كتبه حفيد خنوم حوتب في مقبرته وقد تحدثنا قائلا : —

« لقد استعان أمنمجت الأول بمساعدة جدية . وتمكن الملك من هزيمة الأعداء وأعاد بناء ما هدم وأرجع حدود كل مقاطعة إلى ما كانت عليه حتى يعرف كل حاكم حدوده واقدصنم ذلك لأنه كان يعرف هذه الحدود واستعان على ذلك بالخطوط والكتب القديمة . ولقد صنع هذا لانه (الملك) يحب العدل كل الحب » .

إذن صادف أمنمجت الأول عتبات كثيرة في أول حكمه ومن البديهي أن أول هذه المشاكل كانت رغبة أسراء الأقاليم الاستمرار في استقلالهم والافتراء بالحكم وإقطاعاتهم وكما قلت لم يكن من الميسور أخذ هؤلاء الأسراء بالشدة لأنهم ما زالوا أقرباءة لك على ذلك المقابر الهائلة التي حفرها في الصخور كل بالقرب من عاصمته ولدينا مقابر بني حسن (مركز أبو قرص)

لامراء المنيا ثم مقابر البرشة « مركز ملوى » لامراء الاشمونيين ثم مقابر مير
« مركز منفاروط » لامراء اسيوط

حصل أمنمحات الاول على التفرقة بين هؤلاء الامراء ومن والاه واعترف
بحكمه سمح له بقسط كبير من الاستقلال الداخلى وأبقى عليه ما كان لاسلافه
من التزامات وواجبات كرفع الضرائب وإمداد الملك بالجيش عند الحاجة .
ثم عرف أمنمحات الاول بعد بلدة طيبة من منتصف القطر وبالتالى بعدها
عن الشمال فتركها وبني عاصمة جديدة فى نقطة تتوسط مصر على بعد ٣٠ كم
إلى جنوب منف وسمّاها iat - Azwi (أى القابضة على الوجهين) ومكانها
الحالى بالقرب من اللشت الحالية بمركز العياط وأصبح الآن يستطيع من هذه
العاصمة أن يشرف على الدلتا وعلى مصر العليا

وبعد أن استتبّت الأمور فى مصر اتجه بفتوحاته الى بلاد النوبة واخضعها
وتوغل فيها حتى ~~هك~~ ورسكو واستغل مناجم سيناء وأدى الحملات
ولكن يضمن العرش لابنه من بعده وقد رأى المصاعب الجمة التى لاقاها
فى حكم البلاد من سنة جديدة ألا وهى إشراك الابن الأكبر فى الحكم مدة
حياته وتدريبه عليه وبذلك أشركه فى السنة العشرين من حكمه وهذه السنة
الجديدة سار عليها كل ملوك الأسرة ١٢ تقريبا

ومن القريب أن « هذا الملك القذ القدير قوبل فى أواخر حياته بنسكران
الجليل من حاشيته فدبر بعضهم مؤامرة لاغتياله ولكنه نجح منها وأثرت فى
نفسه هذه الحادثة وأوصى ابنه أن يقسو فى معاملة رؤسائه لأن الناس
« يحترمون كل من يخيفهم ويفزعهم » ثم قال له أيضا

لا تثق بأخ ولا تعط قلبك لصديق

أعطيت المحتاج وحميت اليتيم ولم أفرق بين الفقر وصاحب الجاه ولكن من أحسنت اليهم ثاروا في وجهي وفلما يجسد الانسان حليفاً له عند ما تشتد المصائب :

لم يشر أمنمحت الأول طويلاً بعد نجاحه هذه وعند ما مات كان ولي عهده سنوسرت الأول وأمير من أقاربه (اسمه سنوحى) بحاربان الليبيين فلما بلغهما نعى الملك عاد أولهما الى العاصمة ولكن سنوحى فر لسبب فامض الى فلسطين . وعاش هناك مدة طويلة عاد بعدها الى مصر باذن من سنوسرت وروى ما حدث له منذ وفاة أمنمحت وتعتبر قصته من القصص المصرية الشهيرة سنوسرت الأول : لقد تقلد أمور الحكم بعد موت أبيه وكان قد تدرب

عليها سنين عدة في حياة والده

وذهب في أول حكمه بجيوش إلى حدود الشلال الثانى وتغلب على بلاد السكوش ولأول مرة يقوم ملك بحملة حربية برفقتها وتكون تحت امرته بينما ملوك مصر من قبله كانوا يعهدون بمثل هذه الحملات لامراء الجنود والقواد وبعد أن تغلب على البلاد الواقعة بين الشلال الأول والثالث عين حاكماً هناك وكان مقره قلعة قبة وهذا الحاكم كان من أمراء أسيوط واسمه حاب جافى الذى ترك لنا نصوصاً تاريخية هامة في مقبرته بأسيوط (المعروفة الآن بأسطبل عنتر) في هذه النصوص وضع نظاماً ثابتاً لكهنوته هذا النظام يؤكد فيه قيام هؤلاء الكهنة بالطقوس الدينية في أعياد ذكرها لهم وحددها على أن يهب للآلهة ومعابدها أرضاً يؤخذ ريعها ويصرف على خدمه الدين ولقد بينت لنا هذه النصوص الطبقات الموجودة في الأقاليم وكانت أربعة طبقات الامراء وكبار القوم وصغار القوم والعامية

ولسومرت الأول معبد كبير بناه في بلدة هيليوبوليس في غرب المطرية وهو مثل للمعابد المصرية كان له مسلتان تتقدمان البرابطة الكبرى التي يرفرف عليها العلم الملوك الأبيض وهو العلم المصري وهذا المعبد اختفى تحت أطلال مدينة هيليوبوليس القديمة ولم يبق منه إلا المسلتان (وقد شيد الملك نذا المعبد للإله رع إله الشمس في هيليوبوليس) إحداهما لا تزال موجودة إلى الآن في عين شمس أما الأخرى فقد سقطت بعد زلزال أرضى حدث سنة ١٢٥٠ ق م

ولسومرت الأول عشرة تماثيل جميلة من الحجر الجيري وجدت حول مقبرته في اللشت وهي تمثل الملك جالساً واتجهت أنظار المصريين في عصر هذا الملك إلى الواحات قاستغلوها وعيتوا حاكماً عليها لكي يدافع عن حدود مصر الغربية .

راقداً شملت هذه العناية بالواحات أيضاً مدينة الفيوم التي تعد جزءاً من الواحات الغربية وقد أصبحت منذ مبدأ هذه الأسرة عاصمة لهم . وذكر هيرودوت وتيودور الصقلي المباني الهائلة التي رآها هنا وعلى الأخص قصر الملا برت وما فيه من تماثيل هائلة الحجم للملوك وقالوا إن ملوك الأسرة ١٢ حولوا جزءاً كبيراً من أرض الفيوم إلى بحيرة يصرفون إليها المياه الزائدة من الفيضان ويأخذون طبعاً منها عند الحاجة في أيام التجاريق والواقع أن بحيرة قارون أو (موديس) هي نتيجة انخفاض طبيعي في الأرض أما بحر يوسف فإنه ينتمي إلى الفيوم ويدفع الماء الزائد منه إلى هذا المستوى المنخفض وعلى ذلك أراد المصريون أن ينتفعوا من مياه الفيضان الزائدة بأن عمقوا هذا المنخفض الطبيعي وجعلوا منه بحيرة هائلة يصرفون إليها المياه ويخزنونها فيها من ناحية أخرى .

أمنحت الثاني وسندمرت الثاني :

لنكل منهما هرم الاول بدهشور والثاني باللاهون . ولقد نمتت مصر طول حكم هذين المائتين لذي دام خمسين ماما بالرخاء والرفاهية فاستغلت مناجم سيناء واستؤنفت العلاقات التجارية مع بلاد بونت حتى ألف أهلها رؤية المصريين وأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد في قصصهم ومن أظرفها قصة الملاح الغريق وهي تصف ما لاقاه ملاح مصري من مشاق وصعاب في سبيل وصوله إلى بلاد بونت

على أن رخاء مصر ورفاهيتها وخصوبه أرضها كل ذلك جلب اليها المهاجرين الآسيويين فتجددت هجرتهم إلى مصر في عهد سنومرت الثاني كما يتضح ذلك من نص ورد على جدران بني حسن يمثل وفدا جاء في السنة السادسة من حكم الملك سنومرت الثاني وتألف من ٣٧ شخصا من البدو الساميين بين رجال ونساء وأطفال ارندوا ملابس صوفية مزركشة وترك الرجال لحام وأسدل النساء شعورهن ومعهم حميرهم التي حملوها بالهدايا لحاكم منطقة بني حسن يتقدمهم رئيسهم يطلب من الحاكم الاذن لهم بالاقامة في مصر على أن يتخذوا التجارة مهنة لهم .

سنومرت الثالث

وضم السودان الى مصر

يظهر أن سنومرت الثالث هو الملك الوحيد من سلوك الاسرة ١٢ الذي لم تمنح له الفرصة أن يتدرب على شئون الحكم في عصر أبيه ومع هذا تمكن هذا الملك أن يحكم مصر حكما عادلا وأظهر من الحنكة والقدرة على الحكم

ما لم يظهره أى ملك من ملوك هذه الأمرة . وعند تولية الحكم بدأ يعد العدة لضم بلاد السودان نهائياً الى مصر فيقفى على التورات المماثلة للحكم المصرى ويعمل على أن يخضعها تماماً . وكان أول ما وجه اليه اهتمامه هو حفر ترعة توصل الى ما بعد الشلال الاول حتى يتحاشا بذلك هذا الشلال الذى كان باستمرار طائفاً لقتل الجيوش اللازمة لفتح هذه المنطقة وأول من تغلب على هذا العائق كان القائد أوني « عمر الأمرة السادسة » الذى حفر ترعة تخترق مخور النيل عند الشلال الاول ولكن مع مرور الزمن تهدمت هذه التربة وبقيت هكذا حتى أتى سنوشرت الثالث فقام بالمشروع مرة ثانية وحفر التربة وكان طولها ٨٠ متراً وعرضها ١٠ أمتار وعمقها ٨ أمتار .

.. حملاته — غزو النوبة : ونعرف أن سنوشرت الثالث قام بعدة هجمات على بلاد النوبة فى السنة الثامنة والسنة السادسة عشرة والسنة التاسعة عشرة من حكمه وجعل من مدينة سمنا وقمة مراى زحرية ووضع لوحات حجرية كبيرة عند أقصى الحدود الجنوبية . ولكن يمنع تسرب الزنوج إلى مصر وضع عند الحد الفاصل بين مصر وبين النوبة لوحة حجرية كتبت عليها :

الحدود الجنوبية . أقامها الملك سنوشرت الثالث فى السنة الثامنة من حكمه حتى لا يستطيع أى زنجى أن يتعداها سواء كان مسافراً على الأرض أو على النهر سواء بمفرده أو مع قطعانه . ولكن إذا أراد زنجى أن يتعداها فذلك فقط إذا كان ينوى التجارة فى أرض مصر أو كان يحمل رسالة مصر وعندئذ يجب أن يعامل بالحسن . وعلى كل حال لا يسمح مطلقاً لأى سفينة أن تتعدى حدود سمنا فى طريقها الى الشمال .

ومن الطبيعي أن مثل هذه التعليمات لا يمكن حفظها إلا إذا كانت هناك
حامية قوية تعمل على تنفيذها وقد سبق أن قلت أن سنوسرت الثالث بنى
قلعة قوية في كل من سمنا وقمة ووضع في كل منهما حامية قوية . ولا تزال
أطلال هاتين القلعتين باقية حتى الآن وهي تظهر لنا حكمة سنوسرت في اختيار
الموقع وأهميته في الدفاع عن الحدود المصرية .

إشارة كوش والبدو على حدود مصر الشرقية : وقبل السنة السادسة عشرة
من حكم الملك سنوسرت الثالث يظهر أن أهالي كوش قاموا بحركة واسعة أفاروا
فيها على حدود مصر الشرقية مشتركين مع البدو في هذه الاغارة فهزمهم
الملك وخرب منازلهم وأهلك الحارث والنسل وأقام لوحة ثانية كتب عليها
اتعليماته عند الحدود عند قلعة سمنا وحذر كل الملوك الذين يخلفوه من
التهاون مع هذه الشعوب وكتب قائلا وليأحق العار كل ملك لا يستطيع أن
يدافع عن هذه الحدود التي أفمتها . وبجانب هذه اللوحة أقام تمثالا هائلا
لنفسه حتى يبعث الذعر والاحترام في قلوب هذه الشعوب النائرة .

ويظهر أن سنوسرت الثالث كان يقود كل حملاته التي قام بها في بلاد
السودان ويعد هذا الملك في نظر ملوك الأسرة ١٨ الفاتح الحقيقي والمستعمر
الوحيد لبلاد النوبة حتى أنهم جعلوا منه إلهاً محلياً لبلاد النوبة وعبدوه
هناك (ص ١٨٢ من بثرى)

وبذلك أصبحت مصر تعتبر حدودها الجنوبية بعد الشلال الثاني أي
أنها امتدت ٣٠٠ كيلو متر نحو الجنوب

غزو سوريا : ولم تعق هذه الحروب في بلاد النوبة سنوسرت عن الاهتمام
بسوريا . فقد حدثنا قائد ماش في عصر هذا الملك واسمه Ehu Sobek على

لوحة حجرية وجدناها في أبيدوس أنه تبسع الملك في حملته ضد بلاد Sekmen في سوريا وهزمهم الملك وأمر منهم العدو الكثير بل يحدثننا Ehu Sobek أنه رجم وقد أسر أجد هؤلاء القوم ولقد كافأه الملك على شجاعته وعنته قائلا : — لقد أعطاني عصا من الذهب في يدي وقوسا وخنجرا محلاة بالذهب وغير هذا أعطاني جلالته كل ما كان يملكه هذا الأسير الذي أسرته .

مهور روح الشعب الحربية : وما يؤسفنا أننا لا نستطيع البتة أن نعين تماما موقع Sekmen ولكن عصر سنومرت الثالث هو أول العصور التي تظهر لنا الشعب المصري وقد أعجبتته الحروب ودبت في جسمه الشجاعة والحنكة وأصبح يفاخر بما يقوم به في المعارك كما ستكون الحال في عصر الأسرة ١٨ وكما انتصر سنومرت الثالث في حروبه وفق أيضا في نضاله مع أمراء الإقليم الذين قويت شوكتهم مرة أخرى فاستطاع أن يتغلب عليهم ويقضي على ما كان لهم من نفوذ ويتضح ذلك من توقفهم فجأة في عهده عن نحت مقابرهم المعخرية الهائلة في اقضاهااتهم كما كان يفعل أسلافهم من قبل أمنمحت الثالث . لقد حكم سنومرت الثالث ٣٨ سنة قضاها جميعاً

مجاربا أو مصلحاً وعند ما شعر بضعفه أشرك ابنه أمنمحت في الحكم الذي أصبح بعده اسمه أبيه أمنمحت الثالث . فورت مملكة واسعة الأرجاء موطدة الدائم وكان بذلك عصره عصر سلام ورخاء وقد ساعده طول حكمه واستتباب العلم فيه وخصوصا بعد عهد أبيه المليء بالحروب على التوسع في المشروعات النافعة للبلاد

وإذا كان سنومرت الأول بدأ باستغلال مناجم شبه جزيرة سيناء فإنه في عهد أمنمحت الثالث استغلت هذه المنطقة استغلالا كاملا وفي عهده

تمحوأت هذه المنطقة الى منحهم يجد الرجال فيه منازل تؤويهم و ابار يشربون منها وحاميات تصد عنهم هجمات البدو المشاغبين . وحدثنا أمتمحت الثالث عن بئر حفرها فى صخور الجبل فى سرابوت الخادم فى السنة الرابعة والأربعين من حكمه وعن معبد للالهة حاتمور بناه هناك .

ولقد كانت كل البعثات ترحل إلى مناجم سيناء عن طريق النهر وهنا يظهر أن النيل كان مرتبطا بالبحر الأحمر عند السويس بقناة هى بلا نزاع أقدم قناة كانت تصل أيضا البحر الأبيض بالبحر الأحمر وهذه القناة حفرت فى عصر الملك سنوسرت الثالث

اهتمامه بالرى : وعصر هذا الملك (أمتمحت الثالث) كما قلت هو عصر سلام وورخاء اهتم الملك بموارد مصر الطبيعية وحاول جهده أن ينميتها ويوسعها وكان من الطبيعى أن يوجه كل عنايته الى شؤون الرى . ولأول مرة نرى فى قلعة سمنا عند الشلال الثانى موظفاً خاصاً لاهم له إلا تسجيل ارتفاعات النيل فى فيضانه وانخفاضاته فى أيام التحاريق يسجلها هذا الموظف على أحجار الجبل المسكونة للشاطيء هناك وهذا المقياس لا يزال باقياً حتى الآن ومنه نعرف أن النيل فى عصر الدولة الوسطى كان يملو فى أيام فيضانه بما يتراوح بين سبعة وتسعة أمتار عن مستوى ارتفاعه الآن وقد كانت نتيجة هذه المقاييس لارتفاع النيل وانخفاضه تبلغ الى الموظفين المختصين فى مكتب الوزير وعلى أساس هذه المقاييس كانت تقدر وتجبى الضرائب

ولقد اشتهر امم أمتمحت الثالث بعمله العظيم الذى قام به فى القيام ، هذه المنطقة الواسعة التى تبعد عن النقطة التى يتفرع منها النيل بحوالى ١٠٠

كيلو مترا الى الجنوب والتي تعتبر واحة كبيرة بالقرب من مجرى النيل عرضها ٦٠ كيلو متر وكذلك طولها . وهذه الواحة الكبيرة منخفضة عن سطح البحر ويدل على ذلك الجزء الباقي من بحيرة موديس القديمة وهي مايسمىها الآن بركة قارون فإن مستواها منخفض عن مستوى البحر بحوالى ٤٠ مترا . هذه المنعقة المنخفضة كانت تتحول الى بركة هائلة في أيام الفيضان . وبقي الحال هكذا حتى عصر الدولة الوسطى وإذ بدأ ملوك هذه الأسرة (الأسرة ١٢) يفكرون في التحكم في كميات المياه الداخلة وحجزها في هذا المنخفض لاستغلالها في وقت انخفاض النيل . فبنوا عند المنطقة التي تتدفق منها المياه الى هذا المنخفض سدا ضخما طاليا وبذلك منعوا المياه عن جزء كبير من هذا المنخفض استغلوه للزراعة

وقد زاد امنحمت الثالث في بناء السور الضخم وأصبح في عصره طوله ٤٠ كم وحجز بذلك المياه عن منعقة تبلغ في اتساعها (١١ ألف متر مربع) أو مايقرب من ٢٠ ألف فدان تعد من أصلح أراضى القطر المصرى للزراعة أما المياه التي حجزت في بحيرة موديس في أيام الفيضان فقد دلت الابحاث الحديثة على أنها كانت كافية لتغذية النيل في أكثر أيام انخفاضه أى في مدة المائة يوم (من أول ابريل) وجعل مياهه عادية

وكان من الطبيعي أن المنطقة التي حصر عنها الماء تصبح من ممتلكات التاج وكيف لا تصبح من ممتلكاته وهي من أخصب بقاع مصر وليس هذا فقط بل يظهر أن هذه المنطقة أصبحت أحب بقعة إلى ملوك النصف الثاني من الأسرة الثانية عشرة وبسرعه البرق ظهرت مدينة كبيرة عرفت في العصر اليوناني بمدينة كروكوديلوبوليس أو ارسينوى حيث كان الآله سوبك (التمساح) يعبد وله معبد كبير فيها . ولقد عثر على مساتين في الجبجيج على حافة المنطقة التي انحسرت عنها المياه للملك سنومرت الأول

وفي الجهة الشمالية من هذا السد بنى امنمحات الثالث قصرا عظيما تبلغ مساحته ٢٥٠ في ٣٠٠ متر جعله مسكنا ومعبدا ومقرا لحكومته . وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة وثلاثة آلاف حجرة وفي هذا القصر المائل كانت حجرات مخصصة لكل آلهة مصر المحلية وحجرات لاجتماع حكام الأقاليم الذين كانوا يأتون كل سنة إلى هذا القصر ومعهم الموظفون التابعون لهم ولكل منهم حجراته المخصصة له حيث يقوم كل منهم بعمل الحساب للأموال المطلوبة منه لخزانة الملك . ولقد رآه « سترابو » الذي حضر إلى مصر عام ٢٤ قبل الميلاد ورأى فيه أعجوبة من أعاجيب مصر ولقد استحق اسمه الذي شاع عنه ألا وهو « اللايرينت » أي « قصر التيه » وذلك لأن الزائرين كانوا إذا ما دخلوه صعب عليهم الخروج منه وتاهوا في ردهاته وحجراته المتعددة . ولقد شبه هذا القصر بقصر اللايرنت الكريتي الشهير في الروايات اليونانية الخرافية ولقد زال هذا القصر الفخم الذي وصفه سترابو بقوله : « من العجيب أن لكل حجرة سقف مكون من قطعة حجرية واحدة وكذلك الممرات مسقفت بقطع حجرية هائلة الحجم وحيث لم يستعمل أي شيء آخر للبناء مثل الخشب أو أي معدن آخر »

ولقد تمتعت مصر بعصر هذا الملك بما يقرب من نصف قرن وكان عصره ذهبيا عرف الناس أن يقدروه وأن يعتزوا به وقد قالوا في هذا الملك :
لقد سبب في خصوبة مصر أكثر من النيل
وملاً الوجهين القبلي والبحري بالقوة
وهو الحياة التي يستنشقها كل أنف
وكنوزه الهائلة يطعم بها كل من تبعه
وهو يعطي الحياة لكل من نحا نحوه
خلف المنعمت ابنه المنعمت الرابع وأغد ورث أمة غنية وكنوزا
ولا آخر لها وشعبا يحب السلام وحاش في رخاء نصف قرن فلم يقابل الملك من
الصعوبات ما يشهد من عزيمته فتهاون وترك الأمور تجري كما يسمح لها القدر
أن تجري فاتهمز أمراء الأقاليم الفرصة وبدؤا يعيدون إلى أنفسهم ما سلب من
السلطة . ولما مات هذا الملك دون أن يترك ولي عهد ورثته ابنته سبكت نفرو وع
تضعفت الملكية ضعفا أدى إلى انتهاء الأسرة ١٢ وعصرها الذهبي الزاهر الذي
ادام ما يقرب من قرنين .

علاقة مصر بالأحمر المجاورة

في عصر الدولة الوسطى

لقد تحدثنا عن عصر الدولة المتوسطة بأنه كان عصرأ ذهبيا ولقد تحدثنا
أيضاً عن أوجه الشبه بين هذا العصر وعصر الدولة القديمة وكما كان الحال في
الدولة القديمة لم تكن علاقة مصر بما جاورها : عصر الدولة الوسطى علاقة غزو
وفتح بل كانت علاقة أمة تود السلام وفي نفس الوقت مستعدة للدفاع عن
حدودها ولم تعد تلك الحدود إلا لمطاردة العدو والانتقام منه ولما لم تكن تستثنى

من ذلك تلك العلاقة نحو الجارة في الجنوب فقد رأينا حرص ملوك الأسرة الثانية عشر على أن يمدوا سلطتهم على كل البلاد الواقعة شمالي الشلال الثاني ولكن العوامل التي دفعت المصري الى مد سلطته على كل المناطق التي تقع بين وادي حلفا والشلال الثاني كانت تنحصر في المحافظة على حدوده لاجب الاستعمار والتوسع .

ولقد دلت الأبحاث الكثيرة التي قام بها علماء الآثار عن تاريخ الشعوب التي سكنت تلك المناطق التي استولى عليها المصريون في عصر الأسرة الثانية عشرة على أمور شتى يحسن بنا أن نجملها لكم فيما يأتي :

في العصر الذي اصطلحنا على تسميته عصر الاضمحلال الاول وهو الذي أتى بين عصر الدولة القديمة والوسطى حدثت انقلابات عدة سببت مهاجرة القبائل التي سكنت بلاد النوبة الجنوبية هذه الانقلابات والاضطرابات سببها بعض القبائل القوية الفتية التي تحركت من موطنها طلبا للمقاومة والغزو . هذه القبائل في غاراتها وغزواتها دفعت أمامها قبائل أخرى واضطرتها إلى التوغل شمالا في مناطق عدة ووصلت حتى الشلال الاول ودخلت أرض مصر ونستدل على ذلك مما تركوه من آثار نقتبعا حتى مدينة الكاب . وهذه الأبحاث الاثرية والانتروبولوجية دللتنا على أن المنطقة من الكاب حتى الشلال الثاني سكنتها قبائل عدة كلها تمت الى جنسيه واحدة وهذه الجنسية لم تكن من النجروتين ، بل كانت حامية . سكنوا أكوخا مستديرة مقامة سقوفها على جذوع من الاشجار ثم كانوا يدفنون موتاهم في قسور مستديرة يحيط بكل مقبرة سور قصير أما حضارتهم فكانت تشبه حضارة مصر في فجر التاريخ وخصوصا في نوع الاواني الفخارية التي استعملوها وهنا (كما ذكرت في

مهاضراتى عن عصر فجر التاريخ) يظهر أن قبيلة من قبائل ذلك العصر هاجرت من أوطانها وتوغلت نحو الجنوب وأسست هناك حضارة مصرية انتشرت فى اتجاه الجنوب ولم تتقدم بينما فى مصر كان التقدم المستمر من نصيبها على نحو ما درسنا . ولكن هل كانت هذه القبائل (التى انتشرت فى توبيا الشمالية وهى تلك المنطقة الجافة التى لا تسمح لكثير من الناس أن يسكنوها) تكون من نفسها خطرا يهدد سلامة مصر ؟ لم يكن الخطر على حدود مصر آتيا من تلك المنطقة بل من منطقة « الدنجلة » حيث ظهرت فى أوائل عصر الدولة المتوسطة أمة قوية عاصمتها كانت تقع جنوبى الشلال الثالث عند الكرمه وهى الامة التى نعرفها باسم الكوشيين ولقد ظهرت لأول مرة فى التاريخ فى هذا العصر .

ونحن لا ندرى شيئا عن منازل هؤلاء القوم وكيف كانت ولكن الحفائر التى قام بها بعض العلماء فى عام ١٩١٣ الى عام ١٩١٥ فى مدينة الكرمه أظهرت لنا جبانة الملوك وعرفنا منها أن الملوك كانوا يدفنون أنفسهم فى مقابر ضخمة مستديرة محور كل منها يبلغ ٩٠ مترا . وعرفنا أيضا أنهم كانوا يضحون بكثير من الخدم والخادسات فى يوم الدفن ويدفنونهم مع سيدهم .

وعلى ذلك وجد ملوك مصر الخطر كله فى هذه المنطقة الجنوبية (الدنجلة) وليس فى المناطق الأخرى الشمالية فى بلاد التوبة . وهذا هو السبب الذى دفع ملوك الأسرة الثانية عشرة الى بناء القلاع والحصون فى سمه وقمة لمنع توغل هؤلاء القوم وهذا هو السبب أيضا الذى حدا سنومرت الثالث إلى أن يقيم تمثالا ضخما عند الحدود الجنوبية الجديدة لمصر عند سمه وحرم على أهل هذه المنطقة أن يمروا نحو الشمال بقلاع سمه اللهم إلا إذا كان ذلك للتجارة أو كلن الشخص مبعوثا فى مهمة رسمية الى أرض مصر .

لقد استنفدت الحروب التي قام بها ملوك الاسرة الثانية عشرة في السودان كل وقتهم وشغلتهم كثيرا عن الامم الاخرى المجاورة لمصر . ومما لاشك فيه أن الاضطرابات التي حدثت في مصر في عصر الاضمحلال وضعف حكمها جعل الأمم الشمالية المجاورة لمصر تحاول شن الغارة عليها ولكن عند ما ظهر ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة وتمكنوا من استرجاع نفوذهم وقبضوا بيد من حديد على السلطة في مصر أثر ذلك في تلك الشعوب وأوقفهم عند حدهم .

ونحن نعرف أن أمنمحات الاول اشترك مع القبائل التي سكنت ليبيا في حرب وان ابنه سنوسرت الاول حاربهم أيضا مرة واحدة ويظهر أن هذه القبائل خضعت بعد ذلك ولم تحاول أن تعيد الكرة لغزو مصر واستتب الحال على حدود مصر الغربية طوال عصر الأسرة الثانية عشرة

ومثل هذا كان أيضا على حدودها الشرقية التي يسكنها البدو ، هؤلاء الذين جربوا حظهم مرة مع ملوك الدولة الوسطى وعرفوا قوتهم وأحسن ما قيل فيهم هو الوصف الآتي :

شعب العامو الخسيس الذي يسكن أرضا لا يمكن زراعتها تملؤها الاشجار وطرقها وعرة تخترق الجبال . وهذا الشعب لا يسكن موطناً واحدا بل يرحل من مكان الى آخر وهو دائماً ينفذ حكم الملك حورث لا يعرف إلا الحرب وهو لا ينتصر في حروبه وفي نفس الوقت لا يمكن الانتصار عليه وهو اذا حارب لا يعلن يدم حربه .

ومثل هذا الشعب الذي لا يعمل الحرب ولكنه لا ينتصر فيها كان من

الصعب التغلب عليه وهزيمته بل كان من الواجب مطاردته كلما قرب من أرض مصر ولذلك سمعنا في قصة ستوحي عن حرس الحدود وعن القلاع التي بنيت على هذه الحدود ولكن في نفس الوقت تحدثنا بعض النصوص من عصر الدولة المتوسطة عن علاقات تجارية بين مصر وفلسطين وعن حضور بعثات تجارية الى مصر كما ذكرت لكم في عصر الملك سنوسرت الثاني ولم تلتحم مع قبائل البدو إلا في عصر الملك سنوسرت الثالث إذ طاردهم في بلادهم وهزمهم ورجع منتصرا

ثم أن علاقة مصر مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط كانت حسنة والتجارة كانت قائمة نستدل على ذلك من الاواني الاجنبية التي عثرنا عليها في الكاهون وفي أبيدوس من صناعة كريتة وغيرها من الجزر إذن فعلاقة مصر مع الامم المجاورة كانت علاقة قائمة على الود لمن أراد السلام وعلى الحرب لمن أراد الحرب ولم تفكر مصر في مد سلطتها لغرض الاستعمار إلا في الجنوب وكما ذكرت لم يكن ذلك الاستعمار استعمارا بمعنى الكلمة بل سببه أن ملوك مصر أرادوا إيجاد ارض غير مصرية تقوم غلبتها للمعارك (كما حدث في الحرب العظمى في بلجيكا)

كلمة عامة عن تاريخ عصر الاضمحلال الثاني

لقد كان الملك أمنمحتب الثالث آخر ملك من ملوك الاسرة الثانية عشرة الذي ساهم في رقعة مصر وترك في التاريخ المصري آثارا خالدة . ثم خلفه

على عرش مصر ابنه أمنمحت الرابع ثم من بعده أخته سيكنفور رع وهنا انتهت الأسرة الثانية عشرة وبانتهائها انتهى عصر الدولة الوسطى الذهبي .
ويدخل التاريخ المصرى بعد هذا فى عصر مظلم كله اضطرابات وانحلال يشبه من نواح عدة عصر الانحلال الأول الذى حل بعصر بعد انتهاء الدولة القديمة .

والآثار التى وصلت إلينا من هذا العصر قليلة لاتعاوننا البتة على فهم ذلك العصر أو تتبع عصوره وأكثر من هذا تتضارب أحاديث المؤرخين القدماء ونخص بالذكر منهم مانيتون وقبل أن نبدأ بدراسة أمر هذا العصر (وأقصد بذلك الأسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة) أود أن ألقى معكم نظرة سريعة على ما خلفته لنا مصادر التاريخ من أحاديث عن هذا العصر .

ولنبداً مانيتون : يقول مانيتون أن الأسرة الثالثة عشرة كانت من طيبة وعد من ملوكها ٦٠ ملكاً حكموا مصر ٤٥٣ سنة . ثم أتت الأسرة الرابعة عشرة وكانت هذه الأسرة من الدلتا وعد من ملوكها ٧٦ ملكاً حكموا مصر ١٨٤ عاماً ثم غزا مصر شعب الهكسوس أو كما يسميهم ملوك الرعاة الذين أسسوا فى مصر أمرتين . الخامسة عشرة عد من ملوكهم ٦ ملوك ثم السادسة عشرة وذكر لهم ٣٣ ملكاً ثم قال أنه بعد هذه الأسرة أتت الأسرة السابعة عشرة وهى فى الحقيقة أمرتان إذ أن مصر فى ذلك الوقت كانت منقسمة الى قسمين الدلتا حيث الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكاً ثم الوجه القبلى حيث أقيمت أسرة مصرية بحتة نأواأت الهكسوس وذكر لهم ٤٣ ملكاً . وعلى ذلك تكون الفترة فى التاريخ المصرى (حسب مانيتون) التى كانت بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة هى حوالى ١٥٧٠ سنة . وهنا يجب علينا أن

تقف أمام هذه المبالغة الشنيعة في التاريخ . لآتنا نعرف أن هذه الفترة لا تتعدى البتة ٢١٠ سنة أى أنها تأتى بين ١٧٨٥ و ١٥٧٥ وهى الفترة بين نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة وابتداء حكم الأسرة الثامنة عشرة وقد استطعنا تحديد هذه الفترة بما ثبت من أن نجم الشعرى اليمانية (وهو نجم عرفه المصريون كان يظهر سنويا وبه استطاعوا معرفة أن السنة ٣٦٥ يوما وإن لم يستطيعوا معرفة ربع اليوم الزائد وعلى هذا كان يلزم لهذا النجم ٣٦٥ X ٤ = ١٤٦٠ عاما ليظهر مرة ثانية فى نفس الوقت ونفس المكان)

ظهر فى ١٦ برمهات من السنة السابعة من حكم الملك سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة وقد استطاع الفلكيون بحسابهم الخاص أن يؤرخوا هذا الحادث بحوالى عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ أو حوالى ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ق م ، كما ثبت أيضاً أن هذا النجم ظهر فى ٩ أبيب من السنة التاسعة من حكم الملك أمنوفيس الأول وقد أرخ الفلكيون أيضاً هذا الحادث بحوالى عام ١٥٥٠ ق م

ولما كنا نعرف تماماً أسماء ملوك كل من الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة ومدة حكم كل منهم فقد استطعنا بفضل تحديد الفلكيين لكل من هذين الحادثين أن نعرف نهاية حكم الأسرة الثانية عشرة ، وابتداء حكم الأسرة الثامنة عشرة وبالتالي الى معرفة هذه الفترة بينهما وبذلك اتضح لنا مقدار المبالغة عند ما ينتون فى تقدير هذه الفترة

وأكثر من هذا أن الآثار التى عثرنا عليها من هذا العصر تدلنا على أن المدة لا يمكن أن تزيد عن قرنين ، ثم ان الاختلاف بين حضارة الدولة الوسطى والدولة الحديثة اختلاف قرنين من الزمن وليس أكثر

فلنترك الآن ما ينتون ونبعث فيما ذكرته ورقة تورين البردية : لقد اتفقت هذه الورقة مع ما ذكره ما ينتون فى تقسيم الأسرات وفى عدد ملوك كل أسرة

ففي الجزء الذي يتلو الجزء المخصص للملك الأسره الثانية عشره نجد في ورقة
تودين البردية خمسة صفوف نعتقد أن كل صف منها خمس ملوك إحدى
الأسرات الخمسة التي يتكون منها عصر الاضمحلال الثاني

ففي الصف الأول نقرأ ٦٠ اسما وفي هذه الحسالة يتفق ما نبتون مع ورقة
تودين وتكون الأسره الك لثة عشره تحوى ٦٠ ملكا ومما يؤسف له حقا أن
الورقة في هذا الجزء ممزقة كل التمزيق ولا يمكننا البتة تتبع أسماء ملوك الأسره
الرابعة عشره حتى السابعة عشره ولكننا نلاحظ أن ما تبقى من الأسماء وما
ظهر في أسفل كل اسم من مده الحكم ... ولقد حفظت الورقة لنا مده حكم
٣٣ من ملوك هذا العصر — لا يتعدى سنوات قليلة

أما قائمة الملوك التي عثرنا عليها في سقارة وفي ابيدوس فلم تذكر لنا أى
اسم من أسماء ملوك هذا العصر

أما قائمة السكارنك فقد ذكرت لنا ٣٥ اسما من أسماء ملوك الأمرتين الثالثة
عشره والسابعة عشره بينما ملوك الأمر الرابعة عشره والخامسة عشره والسادسة
عشره لم يذكروا على هذه القائمة

هذا هو ما ذكرته لنا مصادر التاريخ عن عصر الاضمحلال الثاني والآن
فلنتابع دراسة كل أمرة معتمدين في ذلك على الآثار التي خلفتها لنا كل من
هذه الأسرات الخمسة .

الأمرة الثالثة عشره :-

ان الأسباب التي دعت الى اضمحلال الدولة الوسطى تختلف عن تلك
الأسباب التي أدت الى سقوط الدولة القديمة .

لقد عرفنا أن حكام الأقاليم في عصر الأمرة السادسة انتزعوا السلطة
انتزاعا من ملوك مصر واستقلوا تدريجيا بالسلطة المحلية وأصبحوا يتصلون

بالمملك في عاصمته بخيوط وهمية لا تتعدى العلاقات الرسمية بين ملك البلاد وملوك آخرين كل منهم مستقل بمقاطعة . هذا الخطر لم يظهر في الدولة الوسطى وخصوصا بعد أن تمكن الملك سنومرت الثالث من القضاء على هذه الفئة قضاء تاماً .

ولكن الخطر أتى من ناحية أخرى وهو أن ملوك النصف الثاني من الأسرة الثانية عشرة اعتمدوا في حكمهم على الموظفين الذين أرادوا أن يجعلوا منهم منافسين لحكام المقاطعات فأعطاهم كل ما يمكن إعطاؤه الموظف من سلطة ، وفعلنا نلاحظ هذه السياسة وقضى هؤلاء الموظفون على ما كان من السلطة لحكام الأقاليم . ثم اعتمد الملوك في حكمهم على الجيش القمعة وكان الملوك المصريون قبل هذا العهد لا يعرفون الجيش القائم بل كانوا كلما دعا الحال (كحدوث غارة على معبر أو إرسال بعثة الى الخارج) جمعوا الناس ودرّبهم بسرعة على الحرب وكونوا منهم فرقا لا تلبث أن تصرح إذا ما انتهوا من المهمة التي من أجلها جمعوا . ولأول مرة في تاريخ مصر بقيت فرق الجيش المصري في أيام السلم دون أن تصرح ولعل السبب الذي حدا بالملوك إلى اتخاذ هذه الطريقة هذا النزاع الدائم الذي وقع بين الملوك وحكام الأقاليم ثم اعتماد هؤلاء الحكام على فرقهم الخاصة وتفننهم في تدريبهم والعناية بهم فاضطر الملك أن يحارب هؤلاء الحكام بنفس سلاحهم

فتكون في مصر في أواخر عصر الأسرة الثانية عشرة حزبان كبيران هما خطرهما حزب الموظفين وحزب الجيش ، وعندما أنجب أمنمحات الثالث ابنه أمنمحات الرابع وبعده أخوته سبك نفر ورع وكان كلاهما ضعيفا لم يعرف كيف يسيطر على كل من الحزبين ولم يعرف كيف يمنع تصادم هاتين القوتين سيطرت الدولة الوسطى .

ويظهر أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة كانوا من هاتين الفئتين كل فئة تناضل بقدر استطاعتها أن يكون ملك مصر منها حتى إذا نجحت تصدت لها الفئة الأخرى وناوأت الملك حتى تسقطه وتعين ملكاً آخر من بينها وهذا هو السبب في تعدد ملوك الأسرة الثالثة عشرة وفي اختلاف أسمائهم وفي عدم ظهور أى نسبة بينهم وبين أى بيت من البيوت الملكية ومن الظريف حقاً أن بعض هؤلاء الملوك زاد على ألقابه الملكية المعروفة لقب رئيس الحبيش . وإنى أرى أنه من العبث حقاً أن أسمد عليكم كل أسماء ملوك هذه الأسرة فهم كثيرون لم يخلدوا في تاريخ مصر أى أثر ولم يساهموا في رقى مصر بل بالعكس أسدلوا على هذا العصر ستاراً كثيفاً من الظلام وسهلوا للاعداء أن يجدوا في مصر لقمة سائغة ، فدخل مصر الهكسوس وأقاموا دولة عاشت في مصر أكثر من قرن .

دولة الهكسوس في مصر

بعد أن انحلت الأسرة الثالثة عشرة واختفت أحزابها المتنازعة انقسمت مصر الى ثلاثة أقسام . قسم حكمه ملوك اصطاحنا على تسميتهم ملوك الأسرة الرابعة عشرة وهذا القسم واقع غربى الدلتا مع جزء من وسطها وذكرت لهم ورقة ثورين ما يقرب من ٢١ اسماً (لا يمكننا قراءة هذه الأسماء بشكل واضح لأنه كما قلت تهشمت الورقة في هذا الجزء) وذكر لهم ماتينون ٢٦ اسماً . ولكن الغرب أننا لم نعثر على أثر لملك من هؤلاء الملوك قطعياً . وهذا يدلنا على أنهم لم يتعدوا حدودهم في الدلتا الغربية ولم يصلوا بأى شكل كان إلى مصر العليا

وبينما كانت هذه الأسرة تحكم في الغرب كان الهكسوس قد دخلوا مصر من

الشرق وأقاموا دولتهم التي امتدت على كل الدلتا إلا جزءها الغربى ثم على
مهر الوسطى حتى أسسوط . أما مهر العليا فكانت تحت إمرة حكام
مدينة طيبة

أما دولة الهكسوس فهي التي تقع في الفقرة التي اصطلحنا على تسميتها
الأمرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة ثم السابعة عشرة في الشمال فقط
والآن فلنستعرض ما تحدثت به المراجع التاريخية عن شعب الهكسوس :
أما مانيتون فقد تحدث عن غزوة الهكسوس لمصر كما يأتي :

« تحت حكم الملك « توتيايوس » غضبت الآلهة على مصر . وكان من جراء
ذلك أن هاجم مصر شعب لاندري موطنه أتى إليها من الشرق . ودخلوا مصر
دون حروب واستوطنوها دون سفك دماء . وقد أمروا زعماءها وأوقدوا
النار في مدنها وهدموا معابد آلهتها وتعسفوا مع أهلها فكانوا يضربون
البعض بدون مبرر أو يسبون نساء وأطفال البعض الآخر ثم أقاموا أحدهم
واسمه سلاتيس ملكاً على مصر . وكان هذا الملك يأتي من حين لآخر إلى منفيس
حيث يقرر الضرائب الجديدة ويجمع الجزية من الأرضين ويقيم الجند في
المناطق المحصنة . وكانت جل عنايته متجهة صوب المناطق الشرقية التي حصنها
وقوى حاميتها ثم بنى ماضته « أواريس » وحصنها تحصيناً جيداً وبلغت حاميتها
٢٤٠٠٠٠ جندياً كان يتفقدون ويأثمون عطاياهم اليهم ويستعرضهم إذ أنهم كانوا
عدته التي يعتمد عليها لمحارقة العدو . ومات هذا الملك بعد أن حكم ١٩
سنة . أما الشعب بأجمعه فكان يسمى بالهكسوس أي ملوك الرعاة »

والمدقق يرى أن ما كتبه مانيتون كان مصدره ما تبقى عن الشعب المصري
من ذكريات متداولة عن الهكسوس . هذه الذكريات نشأت في العصر الذي
أتى بعد الأمرة الثامنة عشرة التي يعد من بين أهمها الحبيبة طرد الهكسوس

من مصر . وفي بردية من عصر الأسرة التاسعة عشرة نقرأ عن هذا الشعب ما يأتي :

لقد حدث أن وقعت مصر فريسة لعدو خسيس ولم يكن فيها ملك يحكمها وفي ذلك الوقت كان الأمير سكنن رع يحكم مقاطعات الجنوب بينما احتل العدو في عاصمته في الشمال ومكث ملكهم في مدينة أواريس حيث تجبى له الضرائب وتأتي إليه من كل مناطق الشمال والجنوب »

وهناك نص نعهده النص الوحيد الذي يحددنا عن الهكسوس دون أن يعتمد على الذكريات المتداولة بين الشعب . هذا النص هو ما كتبه الملكة حاثشسوت في معبدها المسمى « اسطبل عنتر » الواقع بالقرب من بني حسن « دخل شعب العمامو من الشرق ومكثوا في أرض الشمال وجعل ملكهم من أواريس عاصمة له وقد هدموا كل ما كان قد شيدته يد المصريين . حكموا مصر دون أن يعرفوا الإله رع ولم يحكم مصر أحد باذن من الآلهة حتى عصرى هذا . »

من هذا النص يمكننا أن نحكم على الحالة في مصر : فما لا نزاع فيه أن الهكسوس مكثوا في الشمال فقط وأن الجنوب كان يحكمه بعض الأمراء المصريين الذين لم يكن لهم سلطة واسعة ولكنهم كانوا على كل حال متمتعين بسلطتهم الضئيلة في حكم مقاطعاتهم الصغيرة

موطن الهكسوس :

لقد لقب الهكسوس بألقاب عدة في النصوص المصرية :

(١) حكام البلاد الأجنبية (حكا خازوت) (٢) الأسيويون .

الساميون (عامو) (٣) (منتيو سانب) وهم القبائل البدو التي كانت

تجوب الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء وهم ساميون أيضا (٤) (شاسو) وهم اتقبائل التي كانت تسكن الصحراء في جنوب فلسطين .

كل هذه الأسماء تدل دلالة واضحة على أن الهكسوس من أصل سامي أو قل إنهم كانوا البدو الذين سكنوا فلسطين بل أكثر من هذا كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى قوم العبرانيين .

ومن الأشياء التي تساعدنا على هذا التعليل ما يأتي :

أولا : إن أغلب الأسماء التي حلقها لنا عصر هذا الحكم كانت سامية : مثل يعقوب ، عيسد ، نحمس .

ثانياً : لقد جاب الهكسوس معهم إلى مصر العربية والحصان وأسماء الحصان هي بالمصرية «سمت» : مشتقة من الكلمة العبرية أو الكنعانية «سوس» : سيصى ثم اسم العربية : مركبة : مركبوت (كنعانية) ثم اسم العربية : عجلت : عجلة ثالثاً : منذ دخول الهكسوس إلى مصر ظهرت فيها بعض الآلهة التي كانت في الأصل في سوريا وفلسطين مثل الآلهة « عنات » والآله « بعيل » والآلهة « اشطارته »

رابعا : إن علاقة ملوك الهكسوس بفلسطين كانت وثيقة : يدلنا على ذلك الحفريات التي صملت حديثاً في « جارا » فقد وجدت بعض الجدارين والآثار لملوك الهكسوس الذين حكموا مصر .

خامساً : في هذه الجبانة التي حفرت في فلسطين وجدنا ظاهرة غريبة : وهي أن في بعض المناطق وجدت جثث الحمير في مستوى أعلى من جثث الإنسان وكذلك أعلى من جثث الحصان ؛ وهذا يدلنا على أن الحمار لم يقدم كقربان بل دفن في هذه المنطقة لأنه عبد . ونحن نعرف أن الحمار كان من الحيوانات المقدسة عند الهكسوس يدلنا على هذا :

(١) اسم أحد الملوك : (طاقن) أى الحمار القوى .

(٢) اسم الاله زيت مع اسم الحمار (ط) .

أين كانت مدينة أواريس :

لقد اختلف علماء الآثار فى موقع عاصمة الهكسوس المسماة أواريس ولكن الأبحاث الحديثة دلت على أن العاصمة بنوا عاصمة ملوكهم التى سموها بر واديس على أنقاض مدينة أواريس والسبب فى ذلك أن الآلهة التى عبدت فى أواريس فى عصر الهكسوس هى بعينها الآلهة التى عبدت فى بر واديس فى عصر الرعامسة وعلى رأس هذه الآلهة الاله (منوتخ) الذى جلبه معهم الهكسوس وأدبحوه فى الاله المصرى زيت

ثم حفائر الأستاذ مونتييه الحديثة فى صان الحجر أثبتت هذه النظرية وقررت أن أواريس هى بر واديس وهى صان الحجر وهى تانيس اليونانية .
كم من السنين مكثت دولة الهكسوس فى مصر :

لقد اختلفت الآراء القديمة والحديثة فى تحديد عصر حكم الهكسوس فى مصر : ولقد حدثكم عن نظرية مايتيون : هذه النظرية التى تنتج أن الهكسوس فى الأسرة الخامسة عشرة حكموا حوالى ٢٥٩ عاما (وعدد ملوكها ستة) ، وفى الأسرة السادسة عشرة حكموا ٥١٨ سنة (وكانوا ٣٢ ملكا) ، وفى الأسرة السابعة عشرة حكموا ١٥١ سنة (وكانوا ٤٣ ملكا) ومعنى هذا أن حكم الهكسوس ظل فى مصر ٩٢٩ سنة . وكما حدثكم من قبل عند ما بحثنا عصر الاضمحلال الثانى أن تأريخ مايتيون مبالغ فيه مبالغة كبيرة وان عصر الاضمحلال من أول الأسرة الثالثة عشرة حتى أول الأسرة الثامنة عشرة

لا يتعدى البتة ٢١٠ سنة

متى دخل الهكسوس مصر :

لقد اتفقتنا في محضراتنا السابقة على أن الامة الثامنة عشرة ابتدأت
حوالى عام ١٥٨٠ ق . م والآن فلنحاول أن نصل الى العصر الذى دخل فيه
الهكسوس أرض مصر :

لقد عرفنا أن ملوك الهكسوس لم يتعبدوا إلى إله مصرى سوى الإله زيت
وعرفنا أيضا أن الإله زيت الذى عبد فى أواريس هو بعينه الإله زيت الذى
عبد فى عصر الرعامسة فى طاصتهم بروميس . وإن بروميس هى تانيس .
والآن نتنقل الى نقطة مهمة جدا .

فى تانيس عثرنا على لوحة حجرية كبيرة من عصر رمسيس الثانى أى كتبت
تحت حكم هذا الملك . هذه اللوحة التاريخية تتحدث عن ملك اسمه « نوبتى »
وأرخت اليوم الذى كتبت فيه : ٤ مسرى من السنة الاربعمئة من حكم
نوبتى . ثم ذكرت الامم الثانى لهذا الملك « زيت القوى » ونحن نعرف أن
نوبتى هذا هو اسم الإله زيت الذى يشتق من مدينة العبادة الاولى حيث
أقيمت له الطقوس . إذن هذه اللوحة تتحدث عن عصر مقداره ٤٠٠ سنة
من تاريخ الإله هو زيت . أى أن هذه اللوحة كتبت لذكرى مرور ٤٠٠ سنة
على تأسيس عبادة الإله زيت فى الدلتا فى مدينة بروميس . وبما أن هذه
اللوحة كتبت فى عصر رمسيس الثانى الذى حكم حوالى سنة ١٢٨٠ إذن
عبادة زيت أدخلت فى الدلتا حوالى ١٦٨٠ ق . م

ولأن هذه العبادة أدخلت فى أول عصر الهكسوس إذن يكون الهكسوس
قد استتبوا فى أرض الدلتا حوالى عام ١٦٨٠ ق . م

ويؤيد هذه النظرية أن الملك « نحمسى » (وهو الملك الثالث قبل آخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة) كان من عصر الهكسوس ، ونحن نعرف أنه حكم مصر حوالى ١٦٦٠ ق.م إذن الهكسوس دخلوا مصر فى عصر يسبق هذا العصر أى أنهم دخلوها فى عصر الملك آى حوالى عام ١٧١٠ ق.م وصفوة القول أن الهكسوس دخلو مصر حوالى عام ١٧١٠ ق.م وأسسوا ماصحتهم أواريس حيث أقاموا معبداً للاله زيت ١٦٨٠ ق.م ثم طردوا نهائياً من مصر عام ١٥٨٠ ق.م فمكثوا فى مصر مايقرب من قرن ونصف

ملوك المكسوس وما خلفوه لنا من آثار

ان الأسماء التي وردت على آثار خلقها ملوك الهكسوس في مصر كثيرة
يبلغ عددها (عدد الأسماء) ٢٣ اسما : تقسمها الى خمسة مجموعات :
المجموعة الأولى تحوى أسماء ثلاثة ملوك

- (۱) ملك الشمال والجنوب . ما اومر رع ايبي (ابو فيس)
 (۲) الاله الطيب سيد الارضين نبخو بع رع
 (۳) ماقتن رع

والجموعه الثانيه تحوي اسماء ثلاثة ملوك يلقبون أنفسهم بقلب حكا خاصون
(أى هكسوس) أى خاكم البلاد الاجنبية

- (۱) ممکن (۲) طانت هر (۳) خیاف

المجموعة الثالثة تحوى أسماء ثمانية ملوك استعملوا لقب « الأله الطيب »

« الرابعة » « ستة » « ابن الأله وع »

أما المجموعة الخامسة فتحوي ثلاثة أسماء وردت على حجر تذكارى أقامه

کبير كهنة منف عام ٧٠٠ ق.م لسكى يعمد عليه اجداده من كبار الكهنة ومن

كانوا تحت حكمهم من الملوك وهنا ذكر هذه الأسماء الثلاثة

(١) ماكن (الحمار القوي)

(٢) شارك (٣) ابي (ابو فيس)

والأسماء التي ذكرها لنا مانيتون يتعسر علينا أن نقارن بينها وبين ماورد
على الآثار المصرية للأختلاف الكبير بينها اللهم إلا في حالتين:

(١) ابو فيس هو ابي (٢) هو خيان

ومما يؤسف له أن الأسماء التي وردت على الآثار المصرية وردت متفرقة
بحيث يصعب علينا ترتيبها ترتيبا تاريخيا ، وكيف يمكننا ذلك وأهم هذه
الآثار ليست إلا جمارين .

ولقد حاول أحد الأساتذة المشهورين (بترى) أن يرتب هذه الجمارين
بحسب مظهرها ترتيبا تاريخيا ولكنه فشل في ذلك كل الفشل

وهم الملوك الذين تركوا آثارا من عصر حكم الهكسوس هو الملك خيان
الذي لم يخلف لنا آثارا عثرنا عليها في مصر فحسب بل في كل البلاد المجاورة
مثل فلسطين وسوريا والعراق وجزيرة كريت

ولقد أراد البعض أن يتخذ من هذا الانتشار دليلا على دولة أسسها
الهكسوس تمتد بين بلاد ما بين النهرين في الشمال الشرقى الى جزيرة كريت في
الغرب وتضم سوريا وفلسطين ومصر . ولكن ظهور هذه الآثار في سوريا
وفلسطين لا يدل إلا على العلاقة الجنسية بين الهكسوس ومواطنهم الأول . أما
ظهورها فيما بين النهرين فأنما يدل على أنها وصلت إلى هناك عن طريق التجارة
القديمة . وجسوسا اذا علمنا أن اسم هذا الملك حفر على تمثال لأسد رابض
يعلم على الظن أنه وصل إلى ما بين النهرين عن طريق أحد تيجار العاديات في
العصور الحديثة واشترى من هناك المتحف البريطاني

ولقد عثر العالم Weans ثمن أنقاض قصر كنوسوس (في جزيرة كريت)

الذى تهدم بفعل الزلازل على غطاء اثناء مرمرى منقوش عليه اسم الملك خيان وهذا لا يدل على وجود نفوذ لملك الهكسوس خيان في جزيرة كريت بل يدل فقط على أن العلاقات التجارية القديمة كانت موجودة وان هذا الاثر وصل الى كريت عن هذا الطريق . وأظن أنه ليس هناك من يشك في وجود العلاقات التجارية بين البلدين منذ اقدم العصور.

وإذا دققنا النظر قليلا وجدنا أن كل الآثار التي خلقها لنا الهكسوس في مصر وغير مصر هي مصرية الصنع . مصرية الطابع مع أنه لو صحت النظرية القائلة بوجود دولة مترامية الاطراف للهكسوس لتوقعنا أن نرى في مصر فنًا آخر تأثر بالفن الاشورى مثلاً أو البابلونى . أو قل رأينا الفن المصرى قد أثر في أحد هذين الفنانين . ومن ناحية أخرى لتوقعنا أن نعثر على آثار أعظم قيمة وأكبر حجماً لملوك الهكسوس مما وجدناه . ولكن كيف يحق لنا أن نؤمن بنظرية الدولة الصغيرة اذا عرفنا أن أكثر ما خلفه الهكسوس لنا لا يتعدى جدارين وقطع صغيرة من أواني وما شابه ذلك.

بل إن هذه الآثار بالذات تدلنا دلالة واضحة على ضعف ملوك الهكسوس ضعفاً أناسهم موطنهم الاول وعاداتهم الاولى قاندهم في الحضارة المصرية . واتخذوا كل ما كان في مصر مثلاً جذوا حذوه : فاقبوا أنفسهم بالقبائل المصرية ، وعبدوا الهامصرياً وأقاموا له معبداً على الطريقة المصرية . ثم إذا كان هذا الظن على شيء من الحق فلماذا سارع ملوك الهكسوس بل أولهم الى الحدود الشرقية وأقام فيها قلاعاً ضخمة وحصنها تحصيناً كاملاً كما يجدرنا مايتنون ؟ أكان يحصنها ضد نفسه وضد دولته المترامية الاطراف ، أم كان يحصنها ضد فارات يشنها على شمس شعوب أخرى غير شعب الهكسوس الذى استمرأ البقاء في مصر وأعجبه الحال فيها .

ماذا استفادته مصر من حكم الهكسوس ؟

(١) دخل شعب الهكسوس أرض مصر عنوة وبقي فيها عنوة هدم المعابد وأهان المصري واستعبده . لقد أتاحت الظروف لهذا الشعب أن يدخل مصر تلك الظروف القاسية التي تحمل بمصر دائماً عندما يكتمل لها عصر ذهبي فما تكاد تنأ بهذا العصر وتسمى نحو التقدم والحضارة بخطى واسعة حتى يداهمها الانشقاق والاضطرابات فتتهوى في الهاوية . وفي هذه المرة كانت التمسف شديداً وذاق المصري الأمرين من الغزاة ، فما لبث أن حطم قبود التمسف وثار في وجوه الطغاة ثورة مباركة أوقدت الحية في صدور المصريين وحملتهم ينسحبون الموت ويطلبونه بحرارة في سبيل حريتهم .

فقاموا قومة واحدة وطردوا الهكسوس من مصر .

ولم يتصف الشعب المصري بالبسالة والشجاعة يوماً اتصافه بهما في ذلك العصر . ولم يتعاق الشعب المصري بالجنديّة ويفاخر بالضمائم تحت لواثها بمثل ما فاخر مصري ذلك العصر .

إن حكم الهكسوس في مصر هو العامل القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محارباً مستقبلاً طلب الحرية فتألم ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى الانتصار فخرج من مصر يطلب الحرب والغزو فما لبثت كل البلاد المجاورة أن خضعت له وعنت لسلطانه فنشأت الإمبراطورية المصرية الأولى ، كونها بطل مصر القذ تحتمس الثالث ولولا تعسف الهكسوس ونشرهم لواء الظلم في مصر ، لما تمكن تحتمس أن يجسد في الشعب المصري فرقة واحدة تساعد على تحقيق مطالبه .

(٢) أما الشيء الثاني الذي استفادته مصر من حكم الهكسوس فهو تعرفهم

على العربية والحصان . فالمصري لم ير الحصان أو العربية قبل ذلك :
دخل الهكسوس أرض مصر وجلبوا معهم هذا الحيوان الغريب وهذه
المركبة العجيبة واستعانوا بهما على حكم المصريين وعلى تثبيت ملكهم فيها
فما لبث المصري أن تعلم هذه الحرفة الجديدة وأجادها واستغلها فنجح في
ذلك كل النجاح

ثورة المصريين ضد الهكسوس التي انتهت بالقضاء عليهم

وطردهم من مصر

لقد تحدثنا فيما سبق عن وجود أمارة مصرية في الجنوب حكمت هناك
قارة مستقلة وتارة تحت نفوذ ملوك الهكسوس .

ولقد عثرنا على لوحين أثريتين تحملان أسماء شخصين كلاهما مسمى : تاما
وكلاهما يحمل اسم العرش « سكتنرع » . وبما أنه يستحيل أن نجد ملكين باسم
واحد للعرش اعتقدنا أن الثاني وهو أخو الأول كتب باسم العرش سكتنرع
خطأ بدلا من « سائخت إن رع » . وهذا الأخير عثرنا على جثته المنحطة ولا
زال آثار جرح عميق في الرأس ظاهرة ونستدل بذلك على أنه قتل بسبب هذا
الجرح وأن هذا الملك لقي حتفه في كفاحه ضد الهكسوس .

ويحملنا على اعتقادنا هذا أننا عثرنا على جزء من بردية كتبت في عصر
الأميرة التاسعة عشرة وهذه البردية تحدثنا عن ابتداء الحرب بين أمراء طيبة
وملوك الهكسوس . أو قل عن استفزاز الهكسوس لأمراء طيبة . وحدث
هذا في عصر الملك سكتنرع أي أخو المقتول الذي عثرنا على جثته ذات الجرح
العميق في الرأس . والنص الذي كتب على هذه البردية يتحدثنا عن ملوك طيبة
من أعياد المصريين المقدسة فجمع الملك أبو قيس (أحد ملوك الهكسوس)
م - ٨ تاريخ مصر القديم

رجال دولته وتداول معهم في أشياء نجعلها لأن النص هنا مهمهم . ثم يستمر
النص مرة ثانية وهالك ترجمة ما جاء به :

ومضى زمن طويل بعد ذلك فأرسل الملك أبو قيس إلى الأمير سكنن رع
بالمدينة الجنوبية طيبة رسالة . فلما وصل رسل الملك أبو قيس بهذه الرسالة
إلى المدينة الجنوبية (طيبة) أحضروا إلى أمير تلك المدينة فقال لأحدهم :
لماذا حضرت إلى المدينة الجنوبية ولأى سبب سافرت مع زملائك طوال هذه
المدة ؟ فأجاب الرسول : إن الملك أبو قيس أرسلنا إليكم اخبركم أن فرس
البحر القاطن في مياه مدينة طيبة يمنع جلالة من النوم ليلاً وباراً . فصياحه
يرن في أذن جلالة باستمرار . فتكدر أمير المدينة الجنوبية وكظم غيظه ولم
يجب على ذلك .

ثم تهشم النص بعد ذلك ولكن يستدل من سياق الحديث أن سكنن رع
هذا أرسل هدايا جزيلة إلى أبو قيس ووعدته بعمل ما يرضيه نحو تلك الحيوانات
ثم عاد الرسول إلى سيده وعلى أثر ذلك استدعى سكنن رع قواده ورؤساء
مملكته وأخبرهم برسالة الملك أبو قيس . فخيم السكون عليهم جميعاً ولم يلقظوا
بكلمة . (ثم انقطع النص وانتهى ذلك)

هكذا بدأ النزاع بين ملوك الهكوس وأمراء طيبة . لقد أراد أمراء طيبة
أن يبدؤا بمناوأة الهكوس وطردهم من مصر فسمع بذلك ملك الهكوس فأراد
أن يتفرغهم ويستدرجهم إلى الحرب . فاتهمهم بهذه التهمة الغريبة التي تشبه تهمة
الذئب للاحمل .

ويمكننا أن نعتقد بأن الحرب بدأت في عصر سكنن رع ثم استمرت في
عصر أخيه سانشخت إن رع الذي عثرنا على حثته . ثم أيضا في عصر ابن الأخير
المسمى كاهوزة

وتعرف أن الأخير كان قد أثار الحرب بعد هدنة وانه حاول جهده اضرام

ثار الثورة بين مواطنيه ورجال بلاطه الذين رغبوا عن الحرب قانعين بما هم فيه ووصلتنا لوحة خشبية إسمها « لوحة كارثافيون » مؤرخه في السنة الثالثة من حكم الملك كاموزة .

وفيها يجرى الحديث بين الملك كاموزة ورجال حاشيته المجتمعين عنده للتداول في أمر الثورة ضد الهكوس :

قال الملك : أريد أن أعرف لماذا اشتهرت بالقوه . هذه القوة يجب أن تستغل ، هناك في أواريس بجلس ملك ، وعنناك في كرش يحكم ملك آخر بينما أنا اجلس هنا في طيبة بين رجل اسويى وآخر زنجى . وكل منهما يفتسم مصر معى . انظروا تجدوا الأسويين قد حكموا مصر حتى الأشمونيين ، وقد هدموا كل الأبنية وخربوها ، ولكى سأهاجم ملكهم وسوف أبقر بطنه يمدى . كل أملى أن أخلص مصر من تعسف الأسويى وأن أطرده شر طرده .

فرد رجال البلاط على الملك قائمين : إذا كان الأسويون قد توغلوا في مصر حتى الأشمونيين وأسيوط وإذا كانوا يلفقون اتهم ضدنا سيسحبوا لسانهم علينا إلا أننا نعيش بسلام في منطقتنا . والفنتين محصنة تحصينا قويا ونحكم مصر حتى أسيوط . ونحن نملك أحسن مناطق مصر . ثم قطعاننا ترعى عشبها بأمان وما زلنا نستورد الحبوب لماشيتنا من الدلتا . دعهم يحكمون الشمال بينما نحن نحكم مصر الحقيقية .

وهنا غضب الملك عليهم وقال :

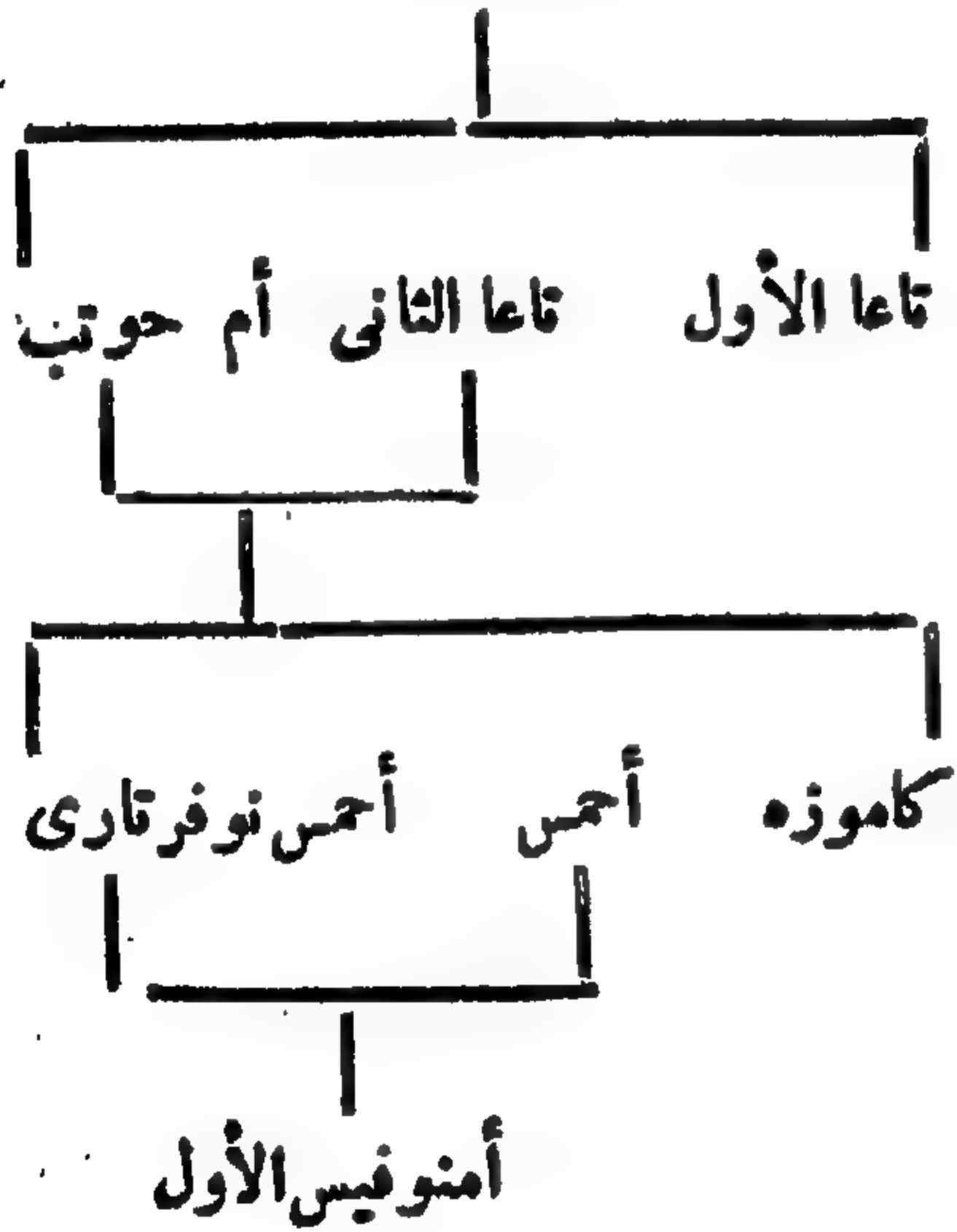
يجب أن يلهم المصريين باسمى ويجب أن يتحدث كل منهم عنى : « هاهو ذا مخلص مصر » ثم جمع الملك جيشا مكونا من رجاله البواسل وفرقة النوبيه وسار هذا الجيش مطيعا بذلك أمر إله آمون الذى يطلب العدل . وتقديم نحو الشمال وهاجم حاكم ودخلها وهزمه .

وهنا تنتهى بكل أسف النصوص:

نحن لا ندرى إلى أين خد وصل الملك كاموزه في معاركه ضد الهكوس
ولكن نعرف فقط أنه كان ملكاً لم يستسلم لخنوع قواده ورجاله بل واصل
الجهاد وأتم رسالة أبيه من قبله ولقد كان هذا الرجل آخر ملوك الاسرة السابعة
عشرة

وخلفه من بعده أحمس الذى نجح تماماً في طرد الهكوس من مصر وطاردهم
إلى فلسطين . ونظن أن أحمس هذا هو أخو كاموزه .

وقد تفرع نسبهم على هذه الصورة



« الملك أحمس »

لقد عاش كاموزه مدة قصيرة وتبعه كما قلت أحمس (الذى يرجح أنه أخوه)
(وكان ذلك حوالى عام ١٥٨٠ ق . م) . ولقد تابع أحمس الحرب ضد الهكوس
حتى الجلاء وخلع مصر من تمسكهم . ولكن لم يصلنا نصوص عن ابتداء حكم
الملك أحمس . وكل ما نعرفه هو انتهاء هذه الحرب ونعرف ذلك من تاريخ
حياة رجل شارك أحمس في كل معاركه ضد الهكوس وخلف لنا هذا التاريخ

على جدران مقبرته . وكان اسم هذا الضابط . اجس ابن أبانا .
« أمضيت أيام شبابي في مدينة الكاب وكان أبي ضابطا في جيش الملك سكتنرع
ولما توفي والدي دخلت الجندية وأصبحت ضابطا على سفينة من سفن جلالة
الملك وكان ذلك أيام الملك احس . وكنت إذ ذاك شابا لم أتزوج بعد . فلما
تزوجت وصارت لي أسرة نقلت الى الأسطول الشمالى وذلك لشجاعتي وأقدامى
من هذا يتضح لنا انه نقل من أسطول الكاب في الجنوب إلى الأسطول الذى
استعمله الملك في محاربة الهكسوس في الشمال . وبعد ذلك نقل احس ابن أبانا
من البحرية الى الجيش البرى حيث تولى قيادة فرقة الحرس الملكى إذ قال
« وكنت تبعم الملك في سيره حينما أقلته عجلته (وهذه هي أول مرة ظهرت
الكلمة التى استعملها المصريون للعربة) ثم انتقل بعد ذلك احس الضابط إلى
الحديث عن حصار اواريس عاصمة الهكسوس

قائلا : — وعندما حاصر الملك اواريس اظهرت في العراق رسالة عظيمة .
ويظهر من ذلك ان هذه المدينة هو جمت من الشاطئ الواقع على النيل
بواسطة أسطول إذ ان احس الضابط عين مرة ثانية ضابطا لسفينة اسمها
« هنوء منف » .

وبعد الهجوم الرابع حدثنا احس ان المدينة سقطت . ويظهر أن حصار
اواريس دام عدة سنوات وان مدته طالت بسبب ثورة قام بها بعض الحكام
المصريين تحت امرة امير من الكاب . هذه الثورة تحدث عنها احس هذا أيضا
قائلا : —

أسرع الملك إلى الجنوب وحارب الثوار جنوب مدينة الكاب . ولكنه
لم يذكر تماما من هم هؤلاء الثوار ، وأسرت يدي رجلا حيا أراد أن يقفز إلى
البحر فتبعته في الماء وقبضت عليه وعبرت به النيل فعلم بذلك الملك فانعم على
جلالته بمكافأة ذهبية مضاعفة .

وعندما سقطت أواريس طارد أحس الهكسوس حتى أخرجهم من الحدود المصرية ثم تبعهم إلى فلسطين فتحصنوا في مدينة شاروهين ، شرعان وموقعها جنوبي يهوذا في جنوب فلسطين ، وقال في ذلك أحس الضابط :

ثم حاصر جلالة الملك شاروهين ثلاث سنوات واستولى عليها وقد أسرت وقتئذ امرأتين وأسيرا فكانا في ثلاثه بلذهب عن شجاعتى وملكنى رقاب الأسيرتين .

ويعتبر هذا أول حصار طويل معروف من نوعه في التاريخ وبرهانا قويا على شدة مقاومة الهكسوس وفي نفس الوقت طول صبر أحس وقوة ارادته وشدة بأسه حتى أنه واصل الحصار طول هذه المدة .

وهناك نص آخر كتبه ضابط آخر خدم الملك أحس واسمه أيضا أحس ابن نخت . ذكر على حدران مقبرته أنه تبع الملك في حربه ضد الهكسوس في زاهى أى في سوريا « زاهى هو الاسم المصرى للمنطقة التي يسكنها الفينيقيون » ومعنى هذا أن أحس الأول طارد الهكسوس حتى طردهم من كل المناطق التي سكنوها ومن المناطق التي يسكنها أقوام من جنسهم . وبذلك طهر مصر وفلسطين وسوريا منهم تماما وأصبح في مأمن من جانبهم .

وبعد أن انتهى الملك من حروبه في أسيا وجه همه إلى بلاد النوبة : فتتمكن في مدة قصيرة أن يرجع كل المناطق التي حكمتها مصر في عصر الدولة الوسطى ، وبذلك خضعت بلاد النوبة للمرة الثانية للحكم المصرى وامتدت الحدود الجنوبية المصرية حتى الشلال الثانى وهناك كتب الملك على لوحة تاريخية :

« ورجع الملك أحس من غزوة في الجنوب يفيض قلبه بقوة النصر العظيم إذ أنه سحق الأعداء في الشمال والجنوب . »

والآن أصبحت مصر أمة متحدة يمتد سلطانها على بلاد النوبة حتى الشلال الثانى ودانت فلسطين للحكم المصرى . وأصبح ملك مصر مهيب الجانب واسع السلطات .

الحالة الداخلية بعد طرد الهكسوس

كانت مهمة أحس الأول في تنظيم الحكومة المصرية وإدارة البلاد الداخلية مختلفة تماماً عن مهمة امنمحت الأول أول ملوك الأسرة الثانية عشرة . فامنمحت تولى عرش مصر بينما كان حكام الأليم يتنازعون السلطة كل منهم يتربص بالآخر الدوائر . وكل منهم قوى يشيد بتميزه ويسعى لتعزيزها . أما أحس الأول فقد تبوأ عرش مصر ورأى أن حكام الأليم ضءاف والسبب في ذلك أنهم عاشوا قرناً ونصف تحت الثير الأجنبي . ففقدوا أثناء ذلك ما كانوا يتمتعون به من منزلة سامية بين أهالى القطر .

والخبرة الحربية والسياسية التى اتصف بها أحس الأول - وكان اتصافه بها نتيجة مباشرة لنضاله الطويل مع الهكسوس - حتمت عليه أن يؤلف حكومة عسكرية محضة . واضطر أن يصبح حكمة بالصيغة العسكرية دون أن يهتم بميول المصريين نحو السلام والسكينة ، ولقد استفاد كثيراً من سياسته العسكرية هذه إذ أن الشعب المصرى تعلم طرق الكفاح المختلفة . كما أن الفزوات التى قام بها أحس عدة سنوات بأسيا اطلعت المصريين على ثروة الأقطار السورية وهكذا تضار المصرى بحجراً لفنون الحرب وعرف أن الحروب تعود على المنتصر بالغنائم الكثيرة فهبت على أثر ذلك فى القطر المصرى عاصفة فكرية دفعت إلى الاستعمار والفتوحات عدة قرون . وصار المصرى يتلهم على الالتحاق بالخدمة العسكرية وأصبحت هذه الخدمة تدر على أفراد الطبقة الوسطى الذين تعودوا حياة الكسل والفقر فيما سبق ثروة كبيرة هذا فضلاً عن مركزهم الأدبى الذى يزداد ترقياً بهم فى الجندية .

وهكذا اندفع الشعب المصرى فى التياز العسكرى وتسلطت على لبه عواجل الحرب وأصبح من الصعب وقفه عند حده . حتى أن امرأة القوم الذين عاشوا

بعد طرد الهكسوس بكل أمراء الدولة أنفسهم كانوا يتسابقون إلى الانخراط في الخدمة العسكرية بغية الحصول على النياشين والألقاب التي تشرفهم وتعلي مراكزهم بين قومهم . ولقد رأينا نموذجاً لذلك فيما تحدث به أحسن من أبانا في تاريخ حياته وكيف كان يفخر ببسالته ويمتز بمكاناته

خيبت هذه الروح على القطر المصري مدة قرن ونصف بعد طرد الهكسوس وضار أبناء القراعنة يعينون قودا للجيش . ثم زيد عدد الجيش كثيراً وأمد بالعدد وقسم إلى قسمين : قسم يربط في الجنوب والآخر يربط في الدلتا . وبما لا نزاع فيه أن الحروب السورية دريت المصريين على الخدع العسكرية والأساليب الحربية الراقية كما نرى ذلك عند التحدث عن حروبهم في اسيا . ونحن نقاخر كل الأمم بأن مصر هي الدولة الأولى في التاريخ القديم التي أقامت أساليب الحرب التي يتبعها القواد الحديثين . هذه الأساليب التي أهم ما فيها تقسيم الجيش إلى فرق . وإلى قلب وجناحين . ولقد اتقنوا هذا فسهل عليهم مفاجأة العدو والقيام بحركات الالتفاف حوله . هذه النظم الحربية الدقيقة عرفها مصري الدولة الحديثة بينما كانت الحروب فيما قبل ذلك أشبه بالنهب والسلب والقتل والتعطيم .

ولقد استعمل الجندي المصري كمعدات للحرب القوس والنبال والبلةطة وتمرن أفرادها على إطلاق النبال وتسديد هادفة واحدة فعظمت منزلة فرقة النبال المصرية وامتازت بشهرتها في ذلك النوع من الحرب حتى المهديين اليوناني والروماني . وأهم ما استعمله المصري كوسيلة للحرب هو الحصان والعربة كما ذكرت لكم فيما قبل . ولقد كان هذا التجدد في سبل الحرب أشبه شيء باختراع الطيارة أو الدبابة . إذ أن فرق العربات في الجيش المصري كانت تحوي آلاف العربات والخيول وعندما طلى لها الأمر بالهجوم كانت تهجم كلها دفعة واحدة فتسحق العدو وتشتته . وتدخل في نفوس الجند الذعر والخوف وتلف حالته

المعنوية إلى درجة يتعذر معها التفكير في غير القرار

ومن القريب ، أن المصري لم يكون قرقة خاصة بالفرسان . بل لم يفكروا قط في ركوب الحصان . ولقد عثرنا بين حين وآخر على صورة مثل مصرياً راكبا حصانا ولكن كان هذا محدودا باستمرار كحالة استثنائية . ونحن لانعرف السبب الذي حدا بالمصري إلى عدم تفكيره في ركوب الحصان بل من الغريب أيضا أن المصري لم يركب الحمار وكاد يغلب على الظن أن الامتناع عن ركوبهما كان نتيجة لفكرة دينية أو فكرة أخرى جعلتهم يقشاهمون من الركوب وهناك من يعتقد أن الحصان الذي عرفه المصريون وقتئذ كان من فصيلة قصيرة قصرا يجعله غير لائق بالركوب . ولكن لا أود أن أصدق هذا الزعم إذ أن الحمار المصري الذي نستعمله للركوب بل أحيانا نخصصه لذلك لا يختلف عن الحمار في مصر القديمة ا قفعا أو حجما

وصار افرعون مصر اصطبلات تحوى الآلاف من أجود الخيول الأسنوية واقتضت الروح العسكرية وقتئذ أن يكون للملك حرس كامل العدد له شعار خاص وتبع جلالة في غدواته وروحاته . كما أصبح له أيضا ضباط حربيون خاصون يرافقونه في حله وترحاله .

على هذا النحو سادس القراعنة القطر المصري بلامعارضة وصارت لهم فيه الكلمة العليا فلم يبق للروح الديموقراطية بين ملوك هذا العصر أى أثر ولم يعد يتجاسر أحد من المصريين أن يحاسبهم على أعمالهم . ومثل هذه الروح لم توجد في الشرق إلا نادرا . ونحن نعرف أن الممالك الشرقية كانت تقوى وتتقدم إذا هيمن على شئون الدولة ملك قوى جبار . فاذا ظهرت عليه بوادر الضعف أضعف الدولة في أيدي حاشيته وفريسة لدسائس حريمه .

وأحسن الأول الذي طرد الهكسوس كان ملكا تتمثل فيه الشجاعة والشهامة ذا عقل كبير ولم يكن لين العريكة أو ضعيف الإرادة

وإلى هذا الملك يرجع الفضل في إنقاذ مصر من ظلم الهكسوس وما تقلبت فيه البلاد من الاضطراب والفن في غضون مائتي سنة
سقوط شمس الامبراطورية الاسرة الثامنة عشرة

امنحتب الأول : ذكرنا في محاضراتنا السابقة كيف أن أحمر الأول قد تمكن من توطيد أركان المملكة المصرية وجعلها تمتد شمالا إلى آسيا وجنوبا إلى الشلال الثالث، وقد خاف أحمر الأول ابنا امنحتب الأول الذي بدأ حياته بأن أسرع إلى بلاد النوبة لكي يخمّد ثورة قام بها شعب « الكوش »، ولما بلغ امنحتب الأول إقليم الشلال الثاني اضطر إلى الرجوع مسحا إلى غرب الدلتا إذ أن النوبيين قاموا بغزوة كبيرة . ولما تقابل معهم امنحتب الأول سحقهم وتغلب عليهم وحدثنا بهذه الغزوة أحد قواد الجيش المعروفين في هذا الزمن « أحمر بن نخت » وبعد ضربه على أبدى هؤلاء الأعداء وجههم إلى بلاد النوبة وأتم غزواته هناك .

ولما زال الخطر عن حدود مصر الجنوبية والشمالية الغربية ، وجه امنحتب الأول همه نحو غزو الشام ومن دواعي الأسف أنه لم تصلنا أخبار عن تلك الغزوات الآسيوية ، ولكن يظهر أن الحيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات ، ونستدل على ذلك بما قاله الملك تحتمس الأول وهو الذي أعقب امنحتب الأول على عرش مصر مفتخا في أوائل حكمه بأن مملكته قد امتدت إلى الفرات مع أنه لم يكن قد قام فيها بحركة حربية وقتئذ . ولقد مات امنحتب الأول بطيبة بعقد أن حكم عشر سنوات .

تحتمس الأول :

لقد ذكرت لكم عند حديثي عن الاسرة السابعة عشرة أن أصل هذه الأسرة كانت السيدة التي تسمى « نيتي شيري » وتبعنا أحفادها حتى وصلنا إلى امنحتب

الأول . ونحن لا ندري إن كان امنحتب الأول ترك ولدا وارثا له على عرش مصر ، ولكن الذى ندرىه أن الذى خلفه هو تحتمس الأول الذى توصل إلى الملك بأز أقترن أميرة مصرية تدعى « أنحس » بينما لم يصلنا اسم أبيه ولكن اسم أمه « سنى سنب » وكان لاعلان توليته الحكم بالنوبة شأن كبير فنقش موظفوا الحكومة هذا الخبر على الأحجار فى وادى حلفا وكوبان وغيرهما ويظهر أن الموظف الذى قام بهذا العمل كان من أصحاب تحتمس المذكور لأن الملك رماه إلى وظيفة كبيرة مهمة بعد اعتلائه العرش - هى وظيفة الحاكم العام لبلاد النوبة .

ونحن نعرف أن بلاد النوبة قد تبعت مصر كجزء منها منذ عصر الأسرة الثانية عشرة وأصبح منذ ذلك العصر حاكم مدينة السكاب المصرية هو المشرف على شئون بلاد النوبة بل الحاكم العام لها ، والسبب فى اختيار حاكم مدينة السكاب هو تقسيم مصر فى ذلك الحين إلى ثلاثة أقسام : —

١ « مصر الشمالية ويراد بذلك الدلتا :

٢ « مصر الجنوبية ويراد بذلك مصر العليا حتى مدينة السكاب

٣ « منطقة النوبة وكانت تمتد شمالا بمدينة "السكاب" وجنوبا بالشلال الثانى

فى عصر الأسرة الثالثة عشرة ، ولكن فى عصر الأسرة ثامنة عشرة عندما توغل المصريون نحو الجنوب ووصلوا فى توغلمهم إلى الشلال الرابع تعذر على حاكم السكاب حكم بلاد النوبة لشاسعة ، وتغذر عليه أيضا حجم جزيئها لكثرة ما يتطلبه هذا العمل من الانتقالات بين مناطق النوبة المترامية الاطراف ، ولذلك نجح ملوك الأسرة الثامنة عشرة نجوا آخر فعينوا حاكما على هذه المنطقة أشبهه بـ « مندوب سام » يلقب بالمصرية القديمة لقبا معناه « حاكم البلاد الجنوبية » إن الملك المعين على كوش « رجرت العادة أن يعام احفال بهذا التعيين بمحضرة الملك ويقدم فيه أحد موظفى المالية ختم الحكومة إلى هذا المندوب السامى قائلا

أهذا ختم فرعون الذى ولاك حاكماً على القطر بين مدينة السكاب ومدينة نباتا) ومعنى ذلك أن سلطة حاكم النوبة بلغت الشلال الرابع ، ومعروف أن ما بين الشلالين الثانى والرابع يسمى عند المصريين القدماء ببلاد الكوش . وهذه البلاد لم تكن محكومة وقتئذ بحكومة أهلية أو إداره ملكية منظمه ، ولكنها كانت تحت سلطة رؤساء القبائل كل رئيس يسيطر على قبيلته ولقد سمح المصريون لرؤساء تلك القبائل بالاحتفاظ الاسمى بمركزهم الادارى ، ولكن هذا النظام لم يعمل به مدة طويلة إذ أن المصريين عينوا بدلاً من هؤلاء الرؤساء ضباطاً مصريين .

ولم يكر النصف الجنوبي لأقليم السودان المصرى - أقصد بذلك بلاد الكوش - أيام تحتس الأول ساكراً هادئاً بل كان مضطرب الأمن والسلام ، ونعرف أن المندوب السامى الأول المسمى (نخورع) لم يتمكن من القبض بيدى حديد على الحالة هناك ، بل كانت أيام حكمه كلها اضطرابات وثورات ، ولما رأى تحتس الأول عجز مندوبه عن معالجة تلك الحالة المستعصية هناك ذهب بنفسه فى أوائل السنة الثانية من حكمه ليضع حداً لتلك الاضطرابات ووصل إلى الشلال الأول وهناك وجد الطريق المائى مسدوداً بالصخور فلم يصرف وقتاً طويلاً فى فتحه فصمم على الوصول إلى ما وراء هذا الشلال عن طريق البر . وتابع الملك زحفه حتى وصل إلى الشلال الثالث وكان بذلك أول الفراعنة الذين دخلوا ذلك المكان الملقب بجنة أعالي النيل . ونقصد بذلك أقليم دنقلة الحالي وكلنا يعرف أن هذا الأقليم خصب للغاية وأن النيل يجرى إلى مسافة مائتى ميل حتى الشلال الرابع دون عائق فى طريقه . ونصب الملك فى تلك الجهات خمس لوحات حجرية وصف عليها غزواته وانتصاراته ثم قفل راجعاً بعد ذلك إلى الشلال الأول بعد مضى سبعة أشهر قضاهما كلها فى الضرب على أيدي الثوار فى بلاد النوبة ، ويرجح أن بطل الملك فى رجوعه إلى مصر كان بمناسبة قيامه

بمشروعات نافعة منظمه في كل المناطق التي زارها في بلاد النوبة وبعد أن أتم تحتس الأول إخضاعه لبلاد النوبة وجه همه نحو آسيا. ولكن يجب علينا أن نتذكر أن تحتس الأول قد ورث عن أمينحتب الأول بلاد آسيا المستتب فيها الأمن والتي كانت قد أخضعت تماماً في عصر الملك السالف ، إذن لم يقيم تحتس الأول بأعمال باهرة في تلك الجهات كالتى قام بها أمينحتب الأول وما دمننا نتكلم عن آسيا فأود أن أذكر لكم الشعوب المختلفة التى كانت تقطن آسيا الغربية في عصر الأسرة الثامنة عشرة:

سكان هذه البلاد الآسيوية ساميون لا يبعد أن يكونوا قد هاجروا إليها من صحراء العرب ، واسم الشعوب التى تسكن المناطق الشمالية (الكراميون) وشعوب المناطق الجنوبية (الكنعانيون) ، ولقد حتمت عليهم طبيعة الأرض التى سكنوها أن يعيشوا قبائل مفضلة لاتحاد بينهم ولا تضامن . فهذه البلاد تداخلها الجبال والتلال ، وتقسمها بذلك إلى إمارات صغيرة مستقلة يحكم كل منها (أمير) والغريب أنه هذه الإمارات لم يستقل بعضها عن البعض الآخر سياسياً فقط بل أيضاً دينياً فكان لكل منها معبود خاص وقام الشقاق والنزاع بين هذه الإمارات طمعاً في النهب والغزو ، وأهم هذه الإمارات كانت إمارة قادش على نهر الايرنت وهذه الأهمية ترجع إلى موقعها الجغرافى الذى ميزها : إذ أنها تشرف على الطريق الشمالى الموصل إلى مناطق سوريا الداخلى ، ومن ناحية أخرى على الطريق التجارى الذى يتفرع نحو الشرق فيصل إلى نهر الفرات ثم إلى بابل وإلى الجنوب فيصل إلى مصر وبلاد العرب ، ثم إلى الغرب فيصل إلى البحر الأبيض المتوسط . كل هذه المميزات سهلت لتادش أن تتمتع بالمكانة الأولى بين هذه الامارات المختلفة ، ومكنتها لذلك من إخضاع بعض الامارات الآسيوية وضمها تحت وائها . ونحن نعتقد أن مدينة قادش كانت المقراتى خرج منه (الهكسوس) وغزوا مصر . ولعل هذا هو السبب الذى حتم على تحتس الثالث

الأنهدأ قبل أن يسحق (قاذش) ويدمرها .

ولو أن هذه الإمارات المختلفة لم تتمتع بنظام إدارية ولا كتبها كانت على جانب عظيم من الحضارة والمدنية . فقد عرفنا كيف أ - المكسوس علموا المصريين الفنون الحربية وصناعة المأادن والمجالات وفوق هذا اشتهر هؤلاء الساميون بكثرة تجارتهم مع البلاد الأجنبية بل نعتقد أن مملكة فينيقيا أسسها بعض المهاجرين الساميين . ولما عن الفينيقيين أنهم كانوا تجاراً بحريين ماهرين أخذت سفنهم تنقل مصنوعاتهم إلى أقصى البلاد في البحر الأبيض المتوسط وربما وصلوا بسفنهم إلى ممالك الروم بالشمالية ، ثم زحف الفينيقيون على شاطئ آسيا الصغرى فاستولوا على رودس وجزر الأرخبيل اليوناني وفي كل مكان حلوا به أسسوا محطات تجارية ، وبذلك كثرت تجارتهم ، وازدادت ثروتهم ، ونشأت بهذه البلاد مدن غنية عظيمة مثل صور ، صيدا ، جبيل ، أرواد ، بطرون أما مركز فينيقيا التجاري فقد استمر من منذ ظهور الأمباطورية المصرية حتى عصر (هووير) الذي ذكرهم في أشعاره الشيقة وقال أن هؤلاء القوم يصج أن نجعلهم مثلاً لكل الأمم المتحضرة .

وحوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ظهرت قبائل إيرانية هاجرت من بلادها في شمال إيران واستولت متخني نهر الفرات القريب من البحر الأبيض المتوسط وهناك أسست دولة عرفت في التاريخ القديم بدولة الميثاني وصلت بنفوذها جنوباً حتى مدينة تونب وشرقاً حتى مدينة نينوى . وهذه الدولة لم تلبث أن عظم شأنها واشتد بأسمها حتى أصبحت تناوى بابل في آسيا الصغرى

هذه هي الحالة السياسية التي كانت عليها بلاد آسيا القريبه في أوائل عصر الاسره الثامنه عشره وتنازع السلطه بين أمم فنيه حربية جعل مصر كلما انغمست في شئونها الداخليه دون أن تفكر في شئونها الخارجيه فقدت مركزها الحربي هناك ويضطر الملك ان يخرج بحمله إلى هذه البلاد . وهذا ما حدث في عصر تحتمس الأول . فما كاد ينتهي من غزوته في بلاد النوبه حتى أسرع إلى الشمال لكي يخمّد نيران ثورة قامت هناك ضد الحكم المصري . ومن دواعي الأسف أننا لم نعلم على البلاغات الرسمية للحركات العسكرية التي قام بها تحتمس الأول في آسيا . ولكن الضابط أحمّر بن نخست حدثنا في تاريخ حياته عن هذه المعارك وقال أنه اشترك فيها وأحضر افروعون مصر إحدى وعشرين يداً مبتورة من قتلى الاسيويين ومجلة حربية وفرسا .

وشهد تحتمس الأول لوحة حجرية عند منحني الفرات بالقرب من البحر الأبيض ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الاقصى لممتلكات مصر الاسيوية . وهكذا حقق الملك ما افتخر به منذ سنة واحدة وعلى ذلك الاثر الذي نصبه عند الشلال الثالث على حدود مملكته الجنوبيه كما سبق .

« شقاق النحوتسبين وحكم الملكة حتشبسوت »

وعندما قاربت المنية تحتمس الأول حدث شقاق كبير بين نسله . هذا الشقاق ظهرت نتائجه على الآثار التي وصلت إلينا من هذا العصر ولكن كيف كان هذا الشقاق ؟ وكيف صار معضلة تعب في تفسيرها كل المشتغلين بالآثار ، فما لك نظريات كثيرة كلها متضاربة أهمها تلك التي قام بها العلامة بريستد ثم زيته ثم وينلوك وأنا لا أريد أن أثقل عليكم في تفسير هذه النظريات والبراهين التي استند عليها كل منهم ويكفي أن أخبركم بنظرية شيخ الأثريين العلامة زيتها والبراهين التي تدلنا على هذا الشقاق المسماة بكم كثيرة أهمها اسم الملكة

حاتشبسوت المنقوش على معبدها في الدير البحري .

إذا أن هذا الاسم عومل بإحدى الطرق الستة الآتية :

١ « أما شطب

٢ « أو شطب واستبدل باسم تحتمس الأول

٣ « » » » الثاني

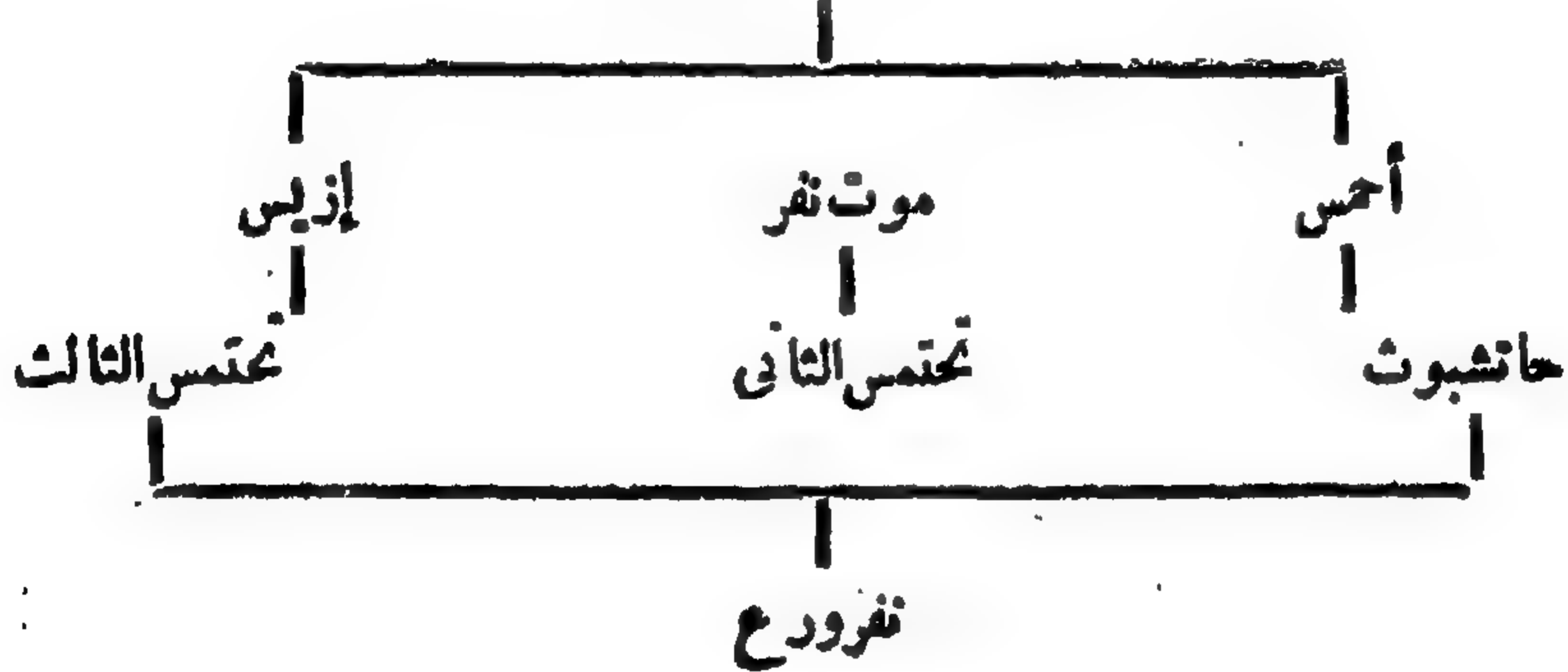
٤ « » » » الثالث

٥ « » » » الملك أو ملك الأرضين

٦ « » » » سیتی الأول وهذا لا يعنينا هنا

وكل هذا يد لنا على أن حاشبوت كانت مريدة اغتصبت الملك اغتصبا با
وحكت مصر رغم أنف كل من رأى أنه أحق بهذا العرش .
والآن فلنتظر ماذا أتتجت أبحاث زيته :

تحتمس الأول تزوج



وبعد ذلك حكم هؤلاء الملوك كالآتي :-

(١) تحتمس الأول (٢) ثم تحتمس الثالث أولا بمفرده ثم مع حاشبوت
(٣) تحتمس الثاني عرلها من العرش وحكم بمفرده وكان لا يزال تحتمس
الأول على قيد الحياة (٤) ثم تحتمس الثالث اسرجم الملك لنفسه وحكم
أولا مع حاشبوت ثم بمفرده ٥ ثم امنحوتب الثاني

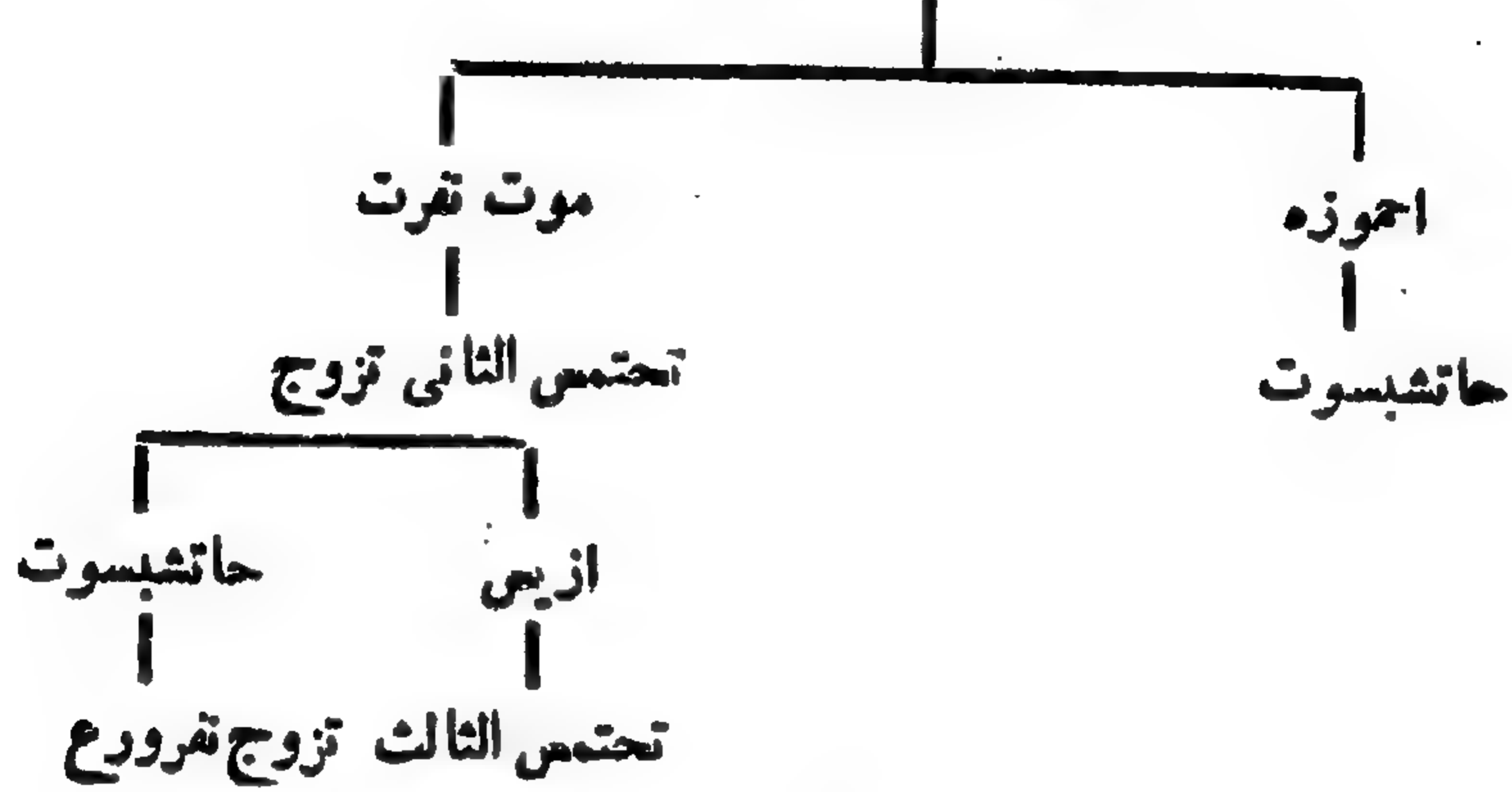
هذه هي النظرية الوحيدة التي تسهل علينا فهم ما حدث من شطب لاسم
الملكة حاشبوت على آثارها . ولكنها إلى حد ما معقدة وخصوصا لأننا

(١٢٩)

لا ندرى هل تزوج تحتمس الثالث بحاتشبسوت أولا.

أما نظرية وينلوك فهي كالآتي .

تحتمس الاول تزوج



وعلى ذلك يكون « ١ » تحتمس الاول ثم « ٢ » تحتمس الثاني ثم « ٣ » تحتمس

الثالث مع حاشبوت امرأة أبيه أولا ثم بمفرده

ولكن مما يؤسف له انه ايس لدينا ما يثبت ان تحتمس الثاني تزوج حاشبوت

سوى انها نقلت جثته إلى مقبرة أبيها تحتمس الاول

ما تحدثنا به الآثار : —

اولا : نستدل على أن تحتمس الثالث يمكن بصعوبة من الجلوس على عرش مصر

من ناحية ويلي أن هذا حدث في عصر تحتمس الاول من النقش الآتي : —

في معبد الكرنك مناظر تدلنا على أن تحتمس الاول قام باحتفال كبير للإله

أمون وبعد أن قاد الاحتفال وقدم البخور لتمثال الآله أمون حمل الكهنة هذا

التمثال كالعادة من قدس الأقداس إلى ساحة المعبد الكبرى ، وكان تحتمس

وقتئذ شابا صغيرا في السن وكان يتقلد منصب كاهن من كهنة أمون ، وقد

جلس بين الكهنة في قاعة الأعمدة الشمالية من المعبد ، فطاف الكهنة بتمثال

م — ٩ تاريخ مصر القديم

المعبود حول المعبد بطريقة يفهم منها أن المعبود يبحث عن شخص بعينه ثم وقف التمثال فجأة أمام الأمير الشاب تحتمس الثالث فخر هذا ساجدا على الأرض . وبعد ذلك تعطف الآله وأظهر رغبته أن يجلس هذا الأمير على عرش مصر فنفذت إرادة الآله في الحال ثم سرد تحتمس الثالث هذه الحادثة مرة أخرى أمام رجال بلاطه وأمر أن تكتب على جدران المعبود كالاتي :

« كنت أود أن أزور الآله المعظم في مبدئه بمدينة أمون (عين شمس) لكي اطلب منه أن يجلسني على عرش مصر ولكني صعدت بنظري إلى السماء فشاهدت فيها الآله بعظمة البهية . وحياتي الآله وأنعم على بعرض مصر وبالألقاب الملكية ؟

أليس هذا كله معناه أن تحتمس الثالث تحبب لكي يجلس على عرش مصر وإن كنهه أمون هم الذين ساعدوه في ذلك ؟

ثانياً : كتب المهندس أنيني في مقبرته ما يأتي : —

« كان تحتمس الثالث حاكماً جالساً على عرش أبيه الذي أعطاه الحياة أما أخته الزوجة المقدسة حاتشبوت فكانت تحكم البلاد بأرادتها فطأطأت لها مصر رأسها مطيعة لأوامرها . ولا عرابية في ذلك فجلالته من النسل المقدس العظيم الخارج من صلب الآلهة فكانت بمثابة جبل مقدم السفينة في البلاد الجنوبية وقد مرسى السفينة عند أهالي مصر الجنوبية وجبل مؤخر السفينة في البلاد الشمالية . لقد كانت جلالته صاحبة الأمر والنهي والمشروعات السديدة والقول المليح الذي ملأ أهالي القطر فرحاً وسروراً ،

وإن هذا ليدلنا على أن حاتشبوت كان لها حزب كبير مكون من رجال الدولة : فأنيني كان أكبر مهندسي العصر وكان فوق ذلك رئيس خزانة الذهب والفضة ، وكان سنموت أيضاً أشد الناس قرباً إليها وأكثرهم نفوذاً في عصرها ،

ثم المدعو حابو سنب كان وزيرا ورئيس حكمة أمون وعميد طائفة السكينة بالقطر المصري . وتحوى الأمير الذى كان مشرقا على شئون الموظفين . هذا الحزب الذى كان بين يجمع أعضائه أكبر رؤوس الدولة تمكن من اختلاق قصة عجيبة سردها بمهارة للشعب . هذه القصة هي كيف أن حاتشبوت هي ابنة الاله وليست ابنة الملك أحس . نقشوا ذلك على جدار معبدها فى الدبر البحرى حيث نشاهد الآن طريقة ولادتها فترى كيف أن الاله أمون يخاطب أم الملكة حاتشبوت قائلا : ستحملين منى ابنة تدعى حاتشبوت تعلى عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة فجاء هذا بمثابة اعلان مقدس للالهالى بتعيين حاتشبوت ملكة على مصر . ثم صورت حاتشبوت كطفلة . ثم كشابة وألحقوا هذه الصور بأخرى أظهروا فيها كيف يقوم آلهة مصر المختلفين بتتويج حاتشبوت ملكة على مصر . ثم رسموا تحتهم الأول مجتمعا بابنته حاتشبوت فى احتفال كبير بالقصر الملكى فى عيد رأس السنة مخاطبا إياها بأنه يعرف أنها وارثته على عرس مصر وفوق ذلك أنهم رسموا تحتهم الأول مخاطبا البلاط المصرى قائلا : عليكم أن تطيعوا جلالتها «أى حاتشبوت» وأن تكونوا جميعا طوعا لا رادتها . فالذى يخضع لها منكم بعيش أما الذى يفتاب جلالتها فإنه لن يترك حيا . ثم هناك صورة للملك تحتهم الأول على جدران معبد الكرنك تمثله وهو يطلب إلى الالهة أن يمنحوا ابنته عهدا زاهرا وحكما عادلا .

من هذا كله تبين لنا ما يأتى :

أن تحتهم الأول عندما شمر بضعفه وعدم قدرته على تحمل أعباء الحكم تنازل لأبنة تحتهم الثانى عن الحكم وزوجه من ابنته الشرعية حاتشبوت . ولكن تحتهم الثانى كان شابا مريضا ضعيفا مات بعد مدة وجيزة وكان ذلك فى حياة أبيه تحتهم ودفن فى المقبرة التى أعدها والده لنفسه . على أن يدفن بعد ذلك تحتهم الأول فى مقبرة ابنته فى منطقة جبانة طيبة . هنا انقسم المصريون إل حزبين كبيرين : حزب يطلب اجلاس حاتشبوت الابنة الشرعية

كليلة على مصر وذلك لأن أمها أحموزة تنسب إلى البيت الملكي العتيق الذي كان له الفضل في طرد الهكسوس والآخر يطلب اجلاس تحتس الثالث ابن المحظية . ولكن الملك كان يعيل في أول الأمر إلى أن يخلفه رجل على العرش فدبر تلك الحيلة مع كهنة آمون واختار الآله تحتس الثالث الشاب ملكا على مصر على أن يتزوج من حاتشبوت ، ولكن الحزب الآخر حزب حاتشبوت وكما رأيت كان يحوى أن الرهوس الفكرة في مصر أجبر الملك على الاعتراف بابنته ملكة على مصر ولكنه لم يرض بذلك حتى إذا توفي تحتس الأول انتهز حزب حاتشبوت الفرصة وأدخلوا في عقول الشعب رضى تحتس الأول عن تولية ابنته ملكة شرعية على مصر وصوروا القصص والاحاديث التي تبين أحقيتها كما تبين رضى أيها عن ذلك ، ولقد سردت لكم ما عثرنا عليه من النصوص الناطقة بذلك ولقد كان حزب حاتشبوت من القوة بمكان حتى أنه استطاع شل يديد تحتس الثالث — إما باقناعه أو اضطراره — فظل منزويا مهملًا يقوم بوظيفة الأمير الزوج حتى وفاة حاتشبوت وعندئذ انقرد بالحكم فكان أقدر من تولى حكم مصر في عصر الدولة الحديثة .

حاتشبوت

أرادت حاتشبوت أن تمثل دور الفرعون الحقيقي فتخطت عن لقب «ملكة» وسمت نفسها ملك مصر وتزيت بزي الرجال ووضعت لنفسها حلية مستعارة ، وكان ذلك من خواص الملوك فحسب ، وأضافت إلى اسمها الأصلي اسم التتويج «نمات كارع» ولعلها اتخذت هذه الاحتياطات خشية أن يقتصب منها الملك أمير آخر من الأسرة .

وقد كرست حاتشبوت كل جهدها العظيم مدة حكمها في إقامة مبعدها

المدرج الذي لا يزال قائماً إلى الآن في الجهة الغربية من النيل عند الاقصر ويطلق عليه اسم الدير البحري، وهندسة هذا البناء فريدة في بابها في فن المعمار المصري، وعلى جدران هذا المعبد المتناسق البناء رسم فناني الملكة المناظر الهامة للعملة البحرية المسكونة من خمس سفن أرسلتها إلى بلاد بنت « الصومال » لاحتضار أشجار الروائح العطرية من تلك البلاد لزراعتها في مصر : وقد سارت الحملة في النيل ثم في قناة الدولة الوسطى التي تمتد على طول وادي الطميلات « بين الاسماعيلية والزقازيق » وهي القناة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر . وبعد أن عبرت البحر الأحمر في سلام وصلت إلى بلاد بنت تحمل هدايا لأمر هذه البلاد منها مجموعة تماثيل للملكة والمعبود آمون واقف بجانبها ، ثم عادت إلى مصر بعد أن امتلأت هذه السفن بطرائف تلك البلاد من أشجار عطرية وعاج وأبنوس وذهب وحيوان نادر وجلود فهود وعدد من أهالي هذه البلاد رجالاً واطفالاً وقد أهدت الملكة معظم هذه الطرائف إلى الإله آمون شكراً له على نجاح هذه البعثة وعودتها سالمة . وقد قامت كذلك حتشبسوت بإصلاح معابد الآلهة المحترمة وبخاصة معبد الإله « سخمت » في بني حسن ومعبد آمون بالكرنك ، وفي هذا المعبد الأخير أقامت عذبة مسلات لم يبق منها إلا واحدة قائمة في مكانها الأصلي وضمنت الجزء الهرمي في قمة كل منها من خالص الذهب وذكرت ذلك على النقوش التي تزين أوجه هذه المسلات، وأخيراً أعادت استغلال مناجم استخراج النحاس ومحاجر الفيروز في شبه جزيرة سيناء وكانت قد بقيت مهجورة منذ غارة الهكسوس .

وماتت حتشبسوت بعد أن حكمت نحو ٢١ سنة في الستين من عمرها « ١٢٩٥ - ١٢٧٥ ق . م » وتعد من أعظم الملكات اللواتي عرفهن التاريخ وقد قام تحتمس الثالث بتخريب كل ما أقامت من الآثار ، وبمحو اسمها وإبداله باسمه هو ، ولم يقتصر الأمر على الملكة نفسها ، بل تعداها إلى موظفيها الذين

كانوا من حزبها وعيبتها كالمهندسين سموت فان قبره قد خرب وشوه .
وقد كان هذا المهندس من أقرب المقربين لذي حتشبسوت بل كان بمنزلة
الخليل لها .

تحتمس الثالث

لقد تكت حتشبسوت لشريكها في الملك عرشا محفوقا بالمصابيح إذ كانت
الدولة المصرية لم تزل في مهدها ، وقد كان كل جهد حتشبسوت مقصودا على
الإصلاحات الداخلية فنية وهندسية وزراعية ، ولم تكن قط بالأمور الحربية
وتوسيع ملكها خارج الحدود المصرية . ولما كانت الجيوش المصرية لم تظهر في
سوريا منذ عهد تحتمس الأول فان صفار الأمراء في هذه الأصقاع قد مالوا إلى
المصيان والتخلص من الاتاوات التي كانوا يدفعونها لمصر سنويا . وقد نجحوا
كلهم تحت لواء أمير مدينة قادش الواقعة على نهر الأورنت « نهر العاصي » لمقاومة
فرعون مصر .

ولم يكد تحتمس الثالث يتخلص من حتشبسوت بموتها حتى زحف بجيش
إلى الشمال ايشقت شمل هذا الحلف ، وقد نجحت القوات السورية عند بلده « مجدو »
فقابلهم هناك وهزمهم ولكن أمير قادش تمكن من الفرار واكتفى تحتمس بأسر
بعض أفراد أسرته . وقد حفظ لنا التاريخ هذه الغزوة وكذلك قائمة بكل الغنائم
التي استولى عليها الفرعون على جدران معبد « آمون » بالكرنك

وقد سار « تحتمس » في الجهات الجنوبية من لبنان ، إلى أن وصل إلى
« دمشق » وترك في هذه البلاد حاميات مصرية حتى يكون في مأمن من قيام
أمراء هذه الجهات مرة أخرى . ثم رجع إلى عاصمة ملكه مظفرا إلا أنه لم
يتمكن من المكث فيها زمنا طويلا لقيام الثورات في « سوريا » ثانية . وقد

توالت غزوات « تحتمس » في هذه البلاد في كل سنة تقريبا من سنى حكمه .
وقد كان استيلاؤه على « حلب » في بلاد النهرين في حملته الثامنة في السنة
الثالثة والثلاثين من حكمه « أى بعد وفاة حتشبسوت باثنتى عشرة سنة » لأنه كان
يحتسب في سنى حكمه المدة التى حكمت فيها حتشبسوت وأهملته ، وذلك
بعد أن هزم الأعداء في « قرقميش » الواقعة على نهر الفرات ، ومن ثم عبر هذا
النهر وأقام لوحة تذكارية على الشاطئ الشرقى منه على مقربة من اللوحة التى
نصبها سلفه « تحتمس الأول »

ومنذ ذلك العهد كانت كل آسيا الشرقية ترتعد أمام القوة المصرية حتى
أن « بابل » نفسها ، وملك الحيثيين كانا يتسابقان فى إرسال الهدايا إلى
فرعون مصر استجلابا لرضاه وزلفى إليه

وكانت القوات البحرية مثل « قبرص » و « إفريطش » و « جزر بحر إيجه »
تخاف أيضا أن تتم تحت سلطان أسطول « تحتمس » ولذلك لم يكن سلطان
مصر ثابت الأزكان على البر فحسب بل أصبحت مصر كذلك صاحبة السلطان
البحرى ، وقد استقر عاهلة بحرية ، لها قصب السبق على عهد البطالسة حينما
كان الأسطول المصرى صاحب السيادة فى البحر الأبيض المتوسط .
هذا إلى أن « تحتمس الثالث » قد نظم الفتوح النوية إلى الشلال الثالث ،
وكذلك احتل ثانية واحات صحراء لوبيا ، مما زاد فى قوة مصر ، ورفعها إلى
الذروة فى العالم أجمع .

ولقد كان من جراء اضطراب « تحتمس » إلى العودة إلى مقر حكمه كل
سنة ليقضى فى مصر فصل الشتاء ، بعد انتهاء كل حملة من حملاته على البلاد
الآسيوية — أن الأمراء المتذمرين كانوا يقومون بمؤامرات ثورية ضد عدوهم
وستيديم المشترك ليتخلصوا من نير حكم مصر . وكان « تحتمس » مضطرا إلى
أن يريهم قوة بأسه فى بلاد « الأرنت » والفرات بعد انقضاء الشتاء من كل عام

بين سنتي ٣٤ - ٤٢ من سني حكمه . وعلى الرغم من تقدمه في السن ، فإنه أرسل أسطولا إلى الشواطئ السورية عام ٤٢ من حكمه ، وتمكن به من اخضاع الأمراء الثأرين الذين أتوا اليه مقدمين له فروض الطاعة لآخر مرة قبل أن يعود إلى طيبة حيث توفي بعد وصوله عام ١٢١٧ ق . م

ويلقب « تحتس الثالث » كبار المؤرخين بأنه تابلينون مصر ، وأنه أعظم الفراعنة مجدا وسلطانا . والواقع أنه لم يكن بطلا حريا بكل معاني الكلمة فحسب بل كان فوق ذلك إداريا حازما نافذ البصيرة في تسيير الأمور في بلاده ، هذا إلى أنه كان منظمًا عظيمًا ومشيدا كبيرا للبنى الضخمة ، فقد ملأ البلاد بالمعابد الفخمة والقصور والمسلات ، ولا شك أنه يعد أول عبقرية مالية ظهرت في التاريخ ، إذ أن حكمه الطويل لم يكن عهدا ممتازا في تاريخ مصر فحسب بل في كل حياة الشرق الأدنى . فهو أول فرعون تفاخت معه الممالك العظيمة المختلفة التي كان يتألف منها العالم المتمدين إذ ذاك ، وبعد أن ذابت شدة بطشه أصبحت العلاقات بينها وبينه على أحسن ما تكون . وكذلك في عهده بدأت الممالك المتمدينة المختلفة تخرج عن دائرة بلادها ويختلط بعضها بالآخر ، وتتبادل المنافع فيما بينها في كل مرافق الحياة

يضاف إلى كل هذا أن « تحتس الثالث » كان أول من وضع نظاما حازما في استمالة أهالي البلاد المستعمرة وذلك أنه كان يأخذ أولاد الأمراء وحكام المستعمرات المصرية في « سوريا ، وغيرها وبريهم في مدارس مصر ثم يجعلهم يتولون حكم بلادهم بعد وفاة آبائهم ، وبذلك كان يضمن حبهم لمصر وتعلقهم بها

امينحتب الثاني

يمكننا أن نفهم — مما سبق — مقدار سلطان « تحتس الثالث » ويطشه في البلاد التي كان يسيطر عليها خارج مصر ، ولذلك لما توفي انبعث في قلوب

الأمراء الأجانب شيء من الراحة والأمل في التخلص يوما ما من النير المصري ولم يمض زمن طويل حتى أخذ كل منهم يستع عن دفع الجزية التي كانت لازما عليه كل عام ، ولكن (أمينحتب الثاني برهن أمام هؤلاء على أنه ابن (تحتمس الثالث) فلم تمض بضعة أشهر على توليته عرش الملك ' ٤٤٧ ق.م) حتى ظهر بجيشه منتصرا في « آسيا » ، والظاهر أنه قاد جنوده ووصل بهم إلى قلب بلاد « متاني » ولم يكن والده قد وصل إليها في فتوحاته من قبل ، ولما عاد إلى (طيبة قدم القرايين البشرية من الملوك المتهورين إلى إلهه آمون ، ثم صلب جثثهم على جدران عاصمته لتكون عبرة ودرسا لغيرهم من الأمراء ، وقد كان نصره حاسما ويظهر أنه لم يعد بجيوشه كرة أخرى إلى ممتلكاته الشمالية إذ كان الدرس الذي أعطاه نافعا ، ولذلك كان في مقدوره أن يخصص ما بقي من مدة حكمه في تنظيم حدود بلاده الجنوبية ، ويقوى سلطانه في بلاد النوبة وعلى أثر عودته إلى طيبة جهز حملة إلى حدوده الجنوبية أفلحت في مد سلطانه إلى الشلال الرابع ، وهناك بنى قلعة (نباطة) وعليها علق جثة أحد الأمراء السبعة الذين أحضرهم معه من غزواته في بلاد آسيا . وفي إقليم « كروه » حيث بلدة نباطة وهي التي أصبحت منذ ذلك العهد الحد الفاصل للممتلكات المصرية أقام أمينحتب لوحات تذكارية لتكون علامة لنهاية ممتلكاته ، وقد نصب لوحات أخرى في أمادة بين الشلال الثاني والثالث ، وفي الفنتين أمام بلدة أسوان لتكون ذكرى لمن بعده بأنه أتم بناء معابد والده آمون وجعلها في هاتين الجهتين

تحتمس الرابع

مات أمينحتب الثاني بعد أن حكم نحو ٢٧ عاما « ٤٢٠ ق.م » ودفن مثل والده في وادي الملوك . وتولى بعده ابنه « تحتمس الرابع » ومن المحتمل أنه لم

يكن الوارث الحقيقي للعرش ، والظاهر انه تولاه عن طريق وحي إلهي وهذا الملك معروف لدينا قبل توليته الملك . وذلك أنه بعد انتهائه من الصيد في يوم ما . وهو لا يزال أميراً - أخذته غفوة في فيء تمثال أبي الهول العظيم بالجيزة وبعد أن أفاق من غفوته أمر بإزالة الرمال عن هذا التمثال وأقام سوراً من اللبن حوله وقواه بآخر على بعد عدة أمتار لمنع الرمال عنه ، ولا يزال السور محفوظاً بعضه الى الآن ، وكذلك أقام لوحة بين يديه ، ومكافأة لهذه الخدمات الجليلة وعده هذا الإله بأن يوليه الملك

وإلى « تحتس الرابع » يرجع الفضل في أنه أول فرعون أقام سياسة المعاهدات في آسيا ، فقد عقد معاهدة بينه وبين مملكة « متاني » ضد قوة الحيشيين التي كانت ترداد وتهدد التخوم المصرية . وقد قام « تحتس الرابع » بحمله حربية في آسيا غير أننا لا نعرف عن تفاصيلها شيئاً إلا أنه وصل إلى بلاد النهرين وأجبر رؤساء - لبنان - على أن يرسلوا إليه الأخشاب اللازمة لبناء سفينة « آمون » في طيبة ، ولما أحس بأنه في حاجة إلى صداقة هذه البلاد الآسيوية أرسل سفيرا إلى « ارتاقاما » ملك - متاني - وطلب من هذا الأمير العظيم أن يزوجه من ابنته ، وبعد أن أظهر في بادئ الأمر عدم الرضى عن ذلك عاد ثانية وقبل أن يزوج ابنته من ملك مصر وأرسلها إليه وكان اسمها المصري - مونتوى - وهي التي أصبحت فيما بعد أم وارث العرش امينحتب الثالث وبذلك دخل الدم الأجنبي في عروق الأسرة الفرعونية وبعد أن وطد علاقته ببلاد - متاني شرع في الاتفاق مع ملك بابل وأفلح في ذلك أيضا . وبعد أن انتصر في بلاد النوبة على بعض النصاة في السنة الثامنة من حكمه عاجلته المنية « ١٠١٠ ق م » وتولى بعده الملك ابنه « امينحتب الثالث » الذي أنجبته له أميرة « متاني »

امنحتب الثالث

يعد هذا الفرعون من أنعم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وخاتمة عظماء فراعنة مصر . وقد كانت آخر غزوة في بلاد النوبة على يديه والظاهر أنه لم يتمد في هذه الغزوة الحدود التي وصل إليها من سبقه من فراعنة مصر . وقد كان تمصير البلاد النوبية الذي شاهده قد وصل إلى الشلال الثاني في عهد الأسرة الثانية عشرة ، ثم وقف في عهد المحكسوس ، ثم أخذ ثانية يتقدم شيئا فشيئا في عهد الأسرة الثامنة عشرة فوصل إلى الشلال الثالث ثم إلى الشلال الرابع ، على أن هذا التمصير لم يصل الزوج ، وإذا قلنا إن بعض الزوج دخلوا مصر من جهة الجنوب وتمصروا فانه من المحقق أن مصر في كل عهدا لم تمصر إقليما من الأقاليم السودانية .

أما في آسيا فان السيادة المصرية كانت معترفا بها عاما من ملوك « بابل » « وآشور » « ومتاني » « وعلاقي » (في الشمال الأقصى من سوريا) . وقد كشفت منذ أربعين عاما عدة ألواح مكتوبة بالخط المسماري في محفوظات « تل المارثة » « اخيتاتون » وهذه الألواح هي التي تعرف في التاريخ : (خطابات تل المارثة) وهي مورد فياض منقطع النظير يعطينا المعلومات الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك الآسيوية الصغيرة في ذلك العهد ، ومن بين المعلومات الهامة التي فيها نجد أن ملك مصر قد أرسل عشرين وزنا من الذهب إلى ملك آشور وقد فعل ذلك ليخطب وده وصداقته ، وقد أرسل ملك - علاقي - كمية من النحاس إلى مصر . وكذلك كشفت لنا عن بداية سياسة التزاوج بين ملوك مصر وملوك آسيا ، فمن ذلك أن ملك بابل « قاداشمان - انليل » الذي كان دائما في حاجة إلى الذهب تفاوض مع ملك مصر في أن يزوج ابنه من أميرة مصرية ، وقد حدث كذلك تزاوج بينات ملوك - متاني -

وقد كانت سياسة - امينحتب الثالث - أساسها السلم والتجارة والأمور الاقتصادية ، وكانت البلاد المختلفة تقوم بحركة تجارة جدية فيما بينها بتبادل المحاصيل ، وذلك إما بطريق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، أو بالنيل وفروعه ، أو بالقوافل عن طريق خليج السويس وبخاصة - فلسطين - و - سوريا - وقد بدأ التأثير الأجنبي ولا سيما الآسيوي و - الأيغني - يظهر في معظم الصناعات المصرية ، ولذلك أخذ النفوذ المصري يتسرب إلى البلاد الشرقية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط . ولا أجل أن ينظم هذا التبادل التجاري ويقوم على أساس متين ، أخذت مصر تحافظ على الطرق التجارية وتحرسها وبوضعت عليها ضرائب غاية في الحكمة وذلك عن البضائع التي لم تكن مرسلة للملك مباشرة ، وبذلك حفظت ، الصناعات الوطنية المصرية ، من جهة وزيد في دخل إيرادات الحكومة من جهة أخرى .

امينحتب الرابع - اخناتون -

إن المتتبع لسير الحوادث التي سردها بما يمكنه أن يلاحظ تلبدا في سماء السياسة المصرية . إذ الواقع أن الحثيين في آسيا الصغرى لم يذعنوا لسيطرة السياسة المصرية ، وهذا هو السبب الحقيقي الذي حدا بالقراعنة إلى وضع السياسة التجارية والعلاقات الزوجية السالفة الذكر لخضد شوكتهم ، ولذلك كان جل هم الحثيين موجهها إلى القضاء على هذه العلاقات إما بالقوة أو بالحيلة . ويظهر ذلك حينما جلس « امينحتب الرابع » على عرش الملك وقد كان لا يزال في حداثة سنه بعيدا عن تجارب الملك مما جعل أيام مجد الدولة المصرية معنودة .

والواقع أن « طيبة » في هذه الفترة كانت في حاجة إلى ملك نشيط قوى العزيمة وسياسي ماهر وجندي نافذ الإرادة ولم تكن في امينحتب هذا أية

صفة من هذه الصفات ، فقد كان جميل الوجه يحب مجالسة النساء والتعجب
للهن وخاصة أمه - تي - وزوجته الشابة - تفرتي - . هذا إلى أنه كان يعنى
معظم وقته فى المناقشات الفلسفية والأحلام اللاهوتية.

ولم تسكن أمه « تي » من أصل أجنبي كما كان يظن بعض المؤرخين ولكن
من المحقق أنه لم يكن يجرى فى عروقها دم ملكى ، لأن أئاث والديها « اويبا »
« وتويا » الذى وجد معهما فى مقبرتهما يدلنا على أنهما كانا من عامة الشعب .
وقد تزوج بها أبوه « أمينحتب » فى السنتين الأوليين من توليته العرش
ويحتمل أن يكون الزواج قبل ذلك . وقد أمر أمينحتب بصنع عدة جمارين
تذكارا لهذا الزواج ، ولبس لدينا إلا بعضها . والظاهر أن هذه الملكة كان
لها تأثير عظيم جدا على زوجها مما أعطى للملكية صبغة غنية بقيت مستمرة فى
باقى ملوك الأسرة الثامنة عشرة .

والملكة « تي » هى أول زوجة اخذت تشارك الفرعون فى إدارة حكم
البلاد ولعبت فيها دورا هاما .

ولما توفى « أمينحتب الثالث » بعد أن حكم نحو ٢٦ سنة (١٤١١ - ١٣٧٥ ق م)
اظهر خليفته على العرش اهتمامه بفضائل قرص الشمس « آتون » أكثر من
مستعمراته فى آسيا وكان لقرص الشمس معبد فى عين شمس وآخر فى الكرنك
وقد بدأ القوم اقتداء به يدعونه الاله الأحد والاله الفرد منبع كل النور وكل
الحرارة ثم منبع كل الحياة على الأرض .

وقد فكر الملك أمينحتب الرابع أنه يتمثله إله الشمس بشكل مادمى محسوس
فى صورة قرص شمس تنشب منه أشعته وينتهى كل شعاع بيد آدمية توزع
الحرارة والنور على البشر يمكنه أن يخاطب كل الشعوب منها اختلفت أجناسها
بطريقة مفهومة أكثر من أسلافه عن الاله الذى يعبد . وهو ذلك الاله الظاهر
الملبوس بدلا من الرموز والاشارات التى كان يتخذها اجداده كآلهة لهم ،
وبخاصة الاله آمون رع فى طيبة . وقد كانت الظاهرة الخاصة فى هذا

الانقلاب الدينى الذى قام به هذا الملك القوي هو ان يخضع من شوكة الاله آمون رع فى طيبة وكهنته حتى يتمكن من وضع ديانة للدولة تجمع تحت لوائها المصريين جميعا وكل الأجانب الذين يسكنون الأقاليم التى فتحها حديثا تحتتمس ذلك وخلقائه ، وقد كان من علامات سيطرة هذا الاله العالمية الدائمة ان وضع اسمه فى خرطوشين مماثلين للخرطوشين اللذين كانا لملك

ولا شك ان رئيس كهنة طيبة أى الكاهن الأكبر للمعبود آمون قد اخذ ينظر الى التحسينات والاصلاحات التى اخذ الملك يدخلها على مباني الاله الجديد كبدعة دخيلة على الدين الأصلى للبلاد . ولا يبعد أنه اتخذ كل الطرق لبعاد هذا الملك عن كرسى الملك واجلاس ملك غيره يكون من المخلصين لاله الدولة آمون ، ولكنه لم يفلح

ولا شك أن أمينحتب الرابع كان يخفى تحت ظاهره الضعيف استعدادا وقوة بأس . وقد حسم النزاع بينه وبين كهنة آمون بطريقة قاطعة معجلة : فمنذ السنة السادسة من سنى حكمه جرد كل كهنة آمون والآلهة الأخرى من كل ألقابهم الدينية وألقى عبادة هذه الآلهة فى معابدها ، هذا الى أنه سماها من جدران المعابد والآثار وبخاصة اسم الاله آمون فانه اضطهد حتى فى المقابر الخاصة . ولما كان هذا الاسم داخلا فى تركيب اسم الملك نفسه أمينحتب «راحة آمون» فانه تقي عن نفسه هذا الاسم وأبدله باسم أخون — آمون (بهاء قرص الشمس آتون) . ثم عزم على هجر مدينة الاله آمون أى طيبة وأسس حاضرة ثانية للملك سماها آخت — آتون ، أفق آتون ، ولا تزال بقايا هذه المدينة موجودة الى الآن باسم تل العمارنة الواقعة على الشاطئ الأيمن للنيل بين ملوى ودبروط

وقد أقام مدينتين أخريين لهذا المعبود الجديد آتون إحداها فى نوبيا على

الشاطئ الأيمن للنيل بعد الشلال الثالث واسمها «جم آتون» («قوا» تواجه
 دنقله) والثانية في سوريا ولم يعرف مكانها بالضبط إلى الآن
 وقد بنى معبد الإله الجديد في اختاتون من جرانيت أسوان ، وكذلك
 شيدت بياني أخرى لأم اختاتون وللأميرة بكيث «آتون خاتمة آتون» ثم انه
 بنى قصرا لنفسه ومساكن للامراء الذين ذهبوا معه إلى عاصمته الجديدة
 أما مقابر الملك وأفراد أسرته وأصدقائه فقد نحتت في الصخر في سلسلة جبال
 العرب القريبة من عاصمة الملك . وهذه المقابر والقصور هي في الواقع عبادة عن
 قصائد شعر من الحجارة أقيمت لتخليد ذكرى الإله الجديد وعلاقاته المتينة
 بالملك وأسرته ، وهي دليل على المجهود العظيم الذي بذله هذا الملك لتعميم عبادة
 «آتون» ومد سلطانه في البلاد النائية من الشلال الثالث إلى أقصى جهات
 سوريا وذلك بدون مراعاة لجنسية أى شعب إدعاه منه بأن الإله آتون لم
 يكن والد المصريين فحسب كما كان الإله آمون ، بل كان أبواً لكل من خلق ،
 أى الانسانية بأكملها . وكان سلطانه عالميا وأبدى لا يشاركه فيه أحد .
 والواقع أن هذه الديانة التى أجبر (اختاتون) البلاد على اعتناقها لم تكن
 ديانة الشعب ولذلك لم تمكث طويلا بعد اختفاء مؤسسها . ومن المحتمل أن
 اختاتون مات في السنة السابعة عشرة من حكمه ولم يبلغ الثلاثين من عمره
 بعد وقد دفن في القبر الذى نحتته لنفسه في صخور قل بنى عمران ولكن أصدقائه
 نقلوا تابوته إلى طيبة فيما بعد وقد عثر الباحثون عليه حديثا في قبر والدته (نى)
 وليس لدينا من الحوادث الهامة التى تستحق الذكر فى أيامه غير الثورة
 الدينية التى قام بها . والواقع أن الحملات المظفرة التى كانت ترسل الى آسيا من
 قبل الفرعون قد انقضت عهدها ولم يهتم الفرعون بتقديم قوة الحثيين والخطر
 الذى يهدد ملكه من جهة هذه الأمة الفتية . ولم يكن له شاغل إلا عبادة

قرص الشمس والتقرب إليه بكل الوسائل على أن الوقت الذي يقتضيه من عبادة قرص الشمس كان يصرفه بين أفراد أسرته وبخاصة أمه وزوجته وبناته ، وقد خرج عن كل التقاليد الدينية في عبادة آلهة . فانه كان يخرج إلى المعبد ومعه سيدات أسرته حيث كن يشتركن معه في إقامة الصلوات ولم يكن ذلك معروفا من قبل .

ويمكننا أن نفهم من غير غناء أن ثورة دينية حاسمة مثل ، التي قام بها (اخناتون) والتي لم يسبق لها مثل في تاريخ الدولة المصرية ، وهذه الروح الجديدة التي كانت تشاهد في حياة الملك اليومية لابد أن يكون من نتائجها انقلاب محسوس في المظاهر الأخرى وبخاصة الناحية الفنية وهي التي كان ينحصرها الملك الشاب بعناية كبيرة . وقد شاهدنا أن الفنانين الذين كانوا يحيطون بالملك الفنى في عاصمته الجديدة ، قد دخلوا عن تمثيل الملك وأسرته بالطرق المعهودة التي كانت متوارثة منذ بداية الفن المصرى ، إذ كان الملك لابد أن يمثل على جدران المعابد أو فى الأحجار الصلبة بأشكال محفوظة لا يمكن أن يحيد عنها الفنان قيد شعرة . ولكن فى عصر اخناتون بدأ المثال أو المصور يمثل الملك فى حالته الطبيعية وفى الموقف الطبيعى الذى كان يجده فيه سواء أكان وحده أم مع أسرته أى أن المثال أخذ فى هذا الوقت يحاكي الطبيعة غير مقيد بقيود رسمية . وقد ظهرت كذلك حرية الفنان فى رسم الأشياء الطبيعية من حيوان ونبات

غير أن هذا الفن الجديد الذى يحاكي الحقيقة ، كانت تنفر منه النفس أحيانا وبخاصة لأنه يميل بعض الشيء إلى الانوثة ، ولأنه كان يضاد كل المضادة الفن القيم الذى كان متبعا فى العصور السالفة

الباب الأول

مصر القديمة

منذ أقدم العصور حتى الفتح العربى

١ — علاقة الجغرافيا بتاريخ مصر العام

سليمه أحمد مزين

الوطن المصرى كوحدة جغرافية^(١)

البيئة والانسان فى عصر ما قبل التاريخ :

امتازت الحضارة المصرية خلال تاريخها الطويل بظاهرتين أساسيتين ، هما القدم والاستمرار . فأما عن القدم فإن مصر فى إجماع الباحثين ، من أقدم مواطن حضارة البشر التاريخية ، إن لم تكن أقدمها فى كثير من ضروب المدنية ؛ بل إن بعض عناصرها الأولى ترجع إلى عهود طويلة قبل فجر التاريخ ، فهى تمتد إلى العصر المعروف بالحجرى القديم ، عند ما كان الإنسان يعيش على التقاط الثرات ، وجمع الحبوب والنباتات ، وصيد البر والبحر ، ينتقل من مكان إلى

(١) هذه مقدمة عامة قصد بها عرض بعض الحقائق الجغرافية الأساسية المتعلقة بمصر وموقعها الجغرافى ، استيضاحاً لما كان للعامل الجغرافى من أثر فى تاريخ مصر العام ؛ فلم يقصد الكاتب إلى سرد التفاصيل الجغرافية ، ولا إلى توضيح البحث بالرسوم والخرائط التفصيلية ، والتعقيب بالأسانيد والمراجع التى تتصل بجغرافية مصر وحوض النيل الأدنى ، أو بعهود ما قبل التاريخ ، عند ما كان أثر البيئة فى الإنسان أظهر منه الآن . ويستطيع القارئ أن يجد غير قليل من هذه الأسانيد إذا رجع إلى قائمة المراجع الملحقه بكل من البحثين الآتين لكاتب هذه المقدمة :

(1) S. A. Huzayyin, "Some new Light on the Beginnings of Egyptian Civilization" Bull. de la Soc. Roy. de géographie d'Egypte, t. xx, 1939.

(2) S. A. Huzayyin, "The Old World and Egypt in Prehistory," Mém de l'Institut d'Egypte, t. XLIII, le Caire. 1940.

مكان، لا يعرف وطناً ولا مستقراً. وأما عن الظاهرة الثانية وهي الاستمرار، فإن التاريخ المصرى أطول التواريخ؛ ومع أنه قد حدثت فيه فترات انقطاع، كعهد الأقطاع الأول، الذى حدث بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى، وكعهد الأقطاع الثانى بين الدولتين الوسطى والحديثة، وعهد الاضمحلال الأخير بعد عصر الفراعنة، وعهد غزوة الأتراك. فإن تلك العهود جميعاً إذا ما أضيف بعضها إلى بعض، لا تزيد على جزء محدود من تاريخ الحضارة والمدنية فى مصر. وقد استطاعت هذه البلاد أكثر من مرة أن تنهض بعد اضمحلالها، وأن تجدد التاريخ بعد عفاؤه؛ كما استطاعت رغم أدوار الصعود والهبوط أن تحتفظ على مر الأيام بطابع حضارتها العام. وإن اختلف مظهر ثقافتها من عصر إلى عصر.

فما السر فى هذا؟ أهى البيئة المصرية التى كانت مسرحاً صالحاً نمت فيه جهود الإنسان، فأنتجت هذه الحضارة العريقة المتصلة؟ أم هو الشعب الذى عاش على ضفاف النيل، واستطاع أن يستغل ظروف البيئة على نحو لم يوفق لمثله غيره من الشعوب، التى عاشت فى بيئات قد تبدو مماثلة للبيئة المصرية، أو أكثر منها صلاحية وأدر خيراً فى بعض نواحي الإنتاج؟ الحق أن مثل هذا السؤال لا يمكن أن نجيب عنه إجابة صحيحة كاملة إلا إذا اعتبرنا البيئة والإنسان فى وادى النيل الأدنى متممين كل منهما للآخر، يؤثر فيه ويتأثر به.

وإذا نحن أردنا أن نتبع أثر البيئة فى سكان هذه البلاد، فقد يكون من المفيد أن نستعرض الحالة فى عصر ما قبل التاريخ، عند ما كانت المدنية فى دور تكوينها الأول، وكان الإنسان أكثر خضوعاً للظروف المحيطة به منه الآن.

امتاز العصر الذى يعرف بالبليستوسين، أو الزمن الجيولوجى الرابع، بوجود أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم الآن؛ فكان معظم أوربا يكسوه الجليد، على حين كانت الأقاليم الصحراوية الواقعة جنوبى البحر الأبيض المتوسط ذات مناخ يشبه من وجوه كثيرة مناخ جنوب أوربا فى الوقت الحاضر، ويعرف ذلك العصر فى أوربا بالعصر الجليدى، وفى أقاليم الصحراء بالعصر الماطر أو المطير.

وكانت لإقليم الصحراء إذ ذاك ثروة نباتية متوسطة، من الحشائش والأعشاب والأشجار المتفرقة، التي قد تتركز في بعض الوديان إلى درجة تقريبها من الغابات الخفيفة غير المتكاثفة. وكانت تعيش بين تلك النباتات قطعان من الحيوان المناسب للبيئة، كالوعول والغزلان والضباع والأغنام الوحشية والبقر الوحشى والنعام وما إلى ذلك. أما الإنسان فكان لا يزال في العصر الحجري القديم، يعيش على الجمع والالتقاط واقتناص الحيوان، ويصنع آلاته الخشنة من الصوان وما يشاكله من الحجر. وقد وجدت مقادير كبيرة من تلك الآلات متناثرة على سطح الصحراوين الشرقية والغربية في مصر، كما وجد كثير منها مطموراً بين الطبقات في المدرجات النهرية على جانبي النهر، وكذلك على جوانب بعض الوديان في الصحراء الشرقية، وحول ينابيع الماء القديمة في منخفض الواحة الخارجة بالصحراء الغربية.

ولم تكن حضارة مصر في ذلك العهد السحيق الذي امتد عشرات الآلاف من السنين تختلف عما عرف من حضارات العصر الحجري القديم خارج مصر، وإن كانت تلك الحضارة قد بدأت تنحصر في وادي النيل الأدنى، وتتخذ طابعاً يميزها عن الحضارات المجاورة والبعيدة في أواخر العصر الحجري القديم؛ وربما ساعد على ذلك قرب انتهاء العصر الماطر الذي أشرنا إليه، واضطرار الحيوان والإنسان إلى أن يهجرا الصحارى التي أخذت تجف تدريجياً في الدور المعروف بالحجري القديم الأعلى، فنزل الإنسان إلى قاع الوادى، حيث يجرى الماء ولو قليلاً. وتيسر أسباب الحياة، لتوافر النبات وصيد البر والنهر.

وبانقضاء العصر الماطر انتهى الدور الأول من تطور الحضارة في مصر، وهو الدور الذي كانت الصحارى وحافاتها فيه أهم من قاع الوادى في حياة الإنسان. أما بعد حلول الجفاف، وانعدام الأمطار أو قلتها الشديدة في خطوط العرض الصحراوية فقد زاد اعتماد الجماعات البشرية على مياه النهر الجارية، وانتقل مسرح نشاطها من الصحراء إلى الوادى، وأخذ الإنسان يتحول تدريجياً نحو استنبات النبات بدلا من الاعتماد على النباتات البرية، التي تنمو في الطبيعة،

فاهتدى إلى غرس الحبوب والبذور، وحراسة النبات حتى موسم الحصاد. وهكذا أخذت الحياة مظهراً جديداً، فصارت زراعية إنتاجية، بعد أن كانت تعتمد على مجرد الجمع والالتقاط، واستقر الناس في «أوطان» صغيرة، فحلت «الوحدة الإقليمية» الثابتة محل «الوحدة القبلية» المتنقلة، وأصبح المجتمع في مصر مؤلفاً من جماعات ترتبط حياتها بقطع متجاورة من الأرض، تتعلق بها وتدافع عنها، كما تحاول توسيعها باغتصاب المناطق المجاورة في بعض الأحيان.

كذلك امتد أفق السكان وبعد نظرهم منذ أن تحولوا إلى الاعتماد على الزراعة بدلاً من الجمع والصيد. فتعلموا ادخار المحصول من فصل الحصاد إلى بقية السنة، وارتبط الحاضر لديهم بالمستقبل، كما تنوعت أسباب الحياة والعمران، فظهرت القرى والمدن الصغيرة، وتنوعت الحرف التي تتصل بالزراعة وفلاحة الأرض، وتنظيم الري، وحصاد الزرع، وحفظ المحصول وتبادلته، وغير ذلك من شئون الحياة الزراعية المستقرة.

وعرف هذا العهد الجديد في مصر بالعصر الحجري الحديث (وما بعده)؛ وترجع بدايته على الأرجح إلى نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، أو قبل ذلك بقليل؛ ولعل من أهم عوامل البيئة التي ساعدت على نشأة الزراعة وتطورها القديم في مصر أن النهر كان يفيض في أواخر الصيف وأوائل الخريف، فيغذى التربة بالماء والغرين. ثم ينحسر عن جانبيه في وقت ملائم جداً لزراعة المحاصيل الشتوية. وكان أهمها الشعير والقمح - حتى إذا ما قامت تلك الزراعات سقط المطر في أشهر الشتاء، فغذاها حتى نهاية موسم نموها، وحلول فصل الحصاد في أواخر الربيع.... وفي هذا يتجلى مبلغ تعاون عناصر البيئة، من التربة ونظام جريان المياه والمناخ، مما مكن لمصر أن تظهر بها الزراعة وتتقدم في وقت لم تكن معروفة فيه في معظم جهات المعمورة. والواقع أن ظهور المدنية الزراعية في مصر لم يكن لمجرد المصادفة ولا محض الاتفاق، وإنما جاء نتيجة لتوافر ظروف جغرافية خاصة، هيأت هذه البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً للحياة الاستقرار والاستيطان، على نحو لم يكن العصر الحجري الحديث إلا أول أطواره

وكان الوادى ودلتاه فى أول الأمر كثير المستنقعات ؛ ولذلك اقتصر نشاط الإنسان فى العصر الحجري الحديث على حافات الوادى الخارجية ، وعلى بعض المناطق الملحقة به كإقليم الفيوم . ولكن الطمى الذى يجلبه النهر فى كل سنة بانتظام أخذ يردم تلك المستنقعات والمسطحات المائية ؛ فاستطاع الإنسان أن ينزل إلى قاع الوادى وقلب الدلتا ، وكان ذلك فى العصر المعروف بعصر بداية المعدن أو عصر ما قبل الأسرات ، عند ما زاد استقرار السكان وارتباطهم بالأرض ، فترك الناس حافة الوادى ، ليقيموا قراهم ومدنهم الصغيرة فى قاعه ، وعلى مقربة من مجرى مياه النهر .

وظهرت مع الحركة الجديدة مشكلتان :

أولاهما : ذلك الخطر المشترك الذى يهدد الجميع وقت الفيضان ؛ فالقرية التى يزعم إقامتها بجوار النهر يجب أن ترفع على قاعدة أو كومة صناعية يتضافر الجميع على إقامتها بجلب الأتربة وتكديسها ، حتى تكون الآكواخ فى مأمن من الفيضان ؛ وكذلك جسور النهر يجب أن تقوى فى كل سنة بانتظام ، وأن تحرس فى أيام الفيضان . ولا سيما فى السنوات التى يكون فيها الفيضان عاليا ؛ ومثل هذا الخطر الإجماعى ، لا يمكن أنه يدفع بالجهد الفردى ، ولا حتى بالجهود الفردية المتفرقة ، وإنما يجب أن يواجه بالجهود الإجماعية المشتركة المنظم .

وأما المشكلة الثانية : فتتمثل فى الفائدة المشتركة والنفع العام الذى يمكن أن يصيب الناس إذا ما نظموا الإفادة من مياه النهر ؛ فالزراعة فى مصر لم تكن من النوع الفطرى ، وإنما كانت تستلزم شق الترع والقنوات ، وتنظيم جريان المياه وتوزيعها ، وإقامة الجسور بين الحياض ، وغير ذلك مما يستدعى قيام فنون كثيرة من هندسة الرى وقياس الأرض ، كما يستدعى تنظيم الجهود وتوحيدها فى سبيل تحقيق النفع العام . وكان لظهور هاتين المشكلتين — الخطر المشترك والفائدة المشتركة — أثر كبير فى توحيد جهود المجتمع فى مصر . وفرض النظام والطاعة على الجميع . لذلك كانت مصر من أعرق بلاد الأرض نظاماً وحكماً وإدارة ؛ « فالحكومة » فيها ضرورة من ضرورات الحياة الأولى ، فرضتها

الحاجة على السكان منذ انبثق فجر الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النهر وفي دلتاه .

والحق أن وجود هذا النهر بنظامه الخاص في الفيضان قد فرض على المجتمع الزراعي القائم على ضفافه « الوحدة » و « النظام » ؛ ولم تكن فائدة النهر مقصورة على تغذية الأرض بالماء والغرين الذي يجدد الخصب باستمرار ، وإنما كان مجرى مياهه بمثابة الشريان الأساسي للواصلات بين مختلف جهات الوادي والدلتا . وهنا نلاحظ أن تيار النهر يدفع السفن في جريانها من الجنوب إلى الشمال ، على حين أن الرياح الشمالية السائدة تدفعها في صعودها نحو الجنوب . وفي هذه الظاهرة يتجلى تضافر عناصر البيئة في مصر مرة أخرى ، تلك العناصر التي تتم بعضها بعضاً منذ البداية ، والتي استفاد الإنسان من أثرها المشترك حتى في عصور ما قبل التاريخ .

وإلى جانب هذا كله كانت عناصر البيئة في مصر لا ينقطع أثرها ، حتى في مواسم هدوء النشاط البشري . فالشمس والحرارة في أشهر الصيف ، عندما يتوقف عمل الإنسان في الزراعة (في وقت لم يعرف فيه نظام الري الدائم) تشقق سطح التربة في الوادي ، فتسمح بنفوذ الهواء إليها ، وتغذيتها بعناصره المفيدة ؛ كما تظهر تلك التربة من الآفات الضارة ، وتنقيها من الحشائش والنباتات التي تمتص خيرها ، ولا تفيد شيئاً ، حتى إذا ما ارتفع ماء الفيضان ملاً شقوق الأرض ، وتسرب إلى الأعماق ، فغذى التربة وأعدّها للعام الزراعي الجديد . كذلك كانت الطبيعة دائمة العمل في مصر حتى في فترات اضمحلال المدنية وانقطاع حبل التاريخ وإهمال المجتمع للأرض والزراعة ؛ فالشمس مشرقة أبداً ، والنيل يأتي بانتظام في كل سنة ، فيكسب الأرض خصباً جديداً ، سواء في ذلك ما كان منها منزرعاً وما كان بوراً مهملاً ؛ وكان من أثر ذلك أن استطاعت مصر أن تخرج من كثير من فترات اضمحلالها أصاح مما كانت ، وأقوى على النهوض والتقدم . وهكذا قامت الدولة الفرعونية المتوسطة بنهضتها في المدنية والثقافة على انقراض عهد الإقطاع الأول ، كما تلت الدولة الحديثة برخائها العظيم

وأمبراطوريتها الواسعة عهد الفوضى والهكسوس؛ بل هكذا أيضاً ظهرت النهضة الحديثة وما صاحبها من تقدم في الإنتاج الزراعى بعد فترة الإهمال والاضمحلال في العهد التركى .

أثر الموقع الجغرافى :

كل هذا عن عوامل البيئة المحلية فى مصر؛ ولكن هناك عاملا جغرافيا آخر له قيمته وله خطره؛ ذلك هو الموقع الجغرافى، وما استتبعه من اتصالات بالخارج تمت فى ظروف جغرافية معينة. فمصر كانت تجمع قارتين (أوراسيا وإفريقية)، ومفرق بحرين داخليين، يمتد أحدهما إلى بلاد الشرق والمحيط الهندى، ويمتد الآخر إلى بلاد الغرب والمحيط الأطلسى. وقد أفادت مصر من موقعها الجغرافى هذا بين الشرق والغرب فى كثير من أدوار تاريخها، ولو أن هذا الموقع كان وبالا عليها فى بعض العهود؛ فلقد تحكمت هذه البلاد فى طرق التجارة فى العصور القديمة والوسطى، ولا تزال لموقعها أهميته الخاصة فى المواصلات العالمية حتى الآن. ولكن مصر كانت تستفيد على الخصوص فى عصور قوتها وتوسعها، كما كان غيرها من الأمم يطمع فى التساط عليها، واستغلال موقعها الجغرافى فى عصور ضعفها وانكماشها. كذلك مكن هذا الموقع الجغرافى المتوسط كثيراً من الغزوات وموجات الهجرة من الوصول إلى أرض مصر؛ ولقد أتننا تلك الغزوات من الشرق أحيانا، ومن الغرب (والشمال) أحيانا أخرى؛ على أننا نلاحظ أن هذه الغزوات، وإن كانت قد وقعت مجرى التاريخ أو حولته فى بعض الأحيان، فإنها قد جددت فى الوقت نفسه دم مصر، وأضافت إلى ملكات شعبها ومواهبه؛ «فالاختلاط، الذى انجلبت عنه قد أدى إلى زيادة فى «تنوع» ثروة البلاد الجنسية والثقافية؛ وليس يعيب مصر فى شيء أن يكون شعبها قد اختلطت فيه دماء الغزاة، فذلك شأن معظم شعوب العالم التاريخية فى العصور القديمة، وفى الوقت الحاضر (كإنجلترا واليابان).

ومع ذلك فإن مصر على الرغم مما أصابها من غزوات قد استطاعت دائماً

أن تدمج الغزاة فيها وأن تسمهم بسماتها ؛ وهى وإن كانت قد غيرت مظهرها الثقافي فى اللغة والدين من عصر إلى عصر ، فإنها قد استطاعت أن تحتفظ بطابعها المصرى الخاص فى الحضارة والمدنية . فالزراعة هى هى لم تتغير (إلى عهد قريب جدا) فى أسسها ونظمها الأولى ، والفلاح هو هو فى عمله ومعيشته ، والحقل المصرى والقرية المصرية لا يزالان يحتفظان بالكثير من مظاهر المدنية التى بدأت فى العصر الحجري الحديث ، ثم العادات والتقاليد المصرية (الريفية) لا تزال تجرى ، فى غير قليل من نواحيها ، على نحو ما جرت عليه أيام قدماء المصريين ، ومن سبقهم من الجماعات الزراعية فى وادى النيل .

فما السر فى هذا الاستمرار العجيب وفى هذه المحافظة الشديدة على الماضى ، والتمسك به إلى حد قد لا يخلو من الغرابة فى بلد كان على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، أو هو على الأقل لم يكن بمعزل عنه ؟ هناك أسباب عدة قد يكون أظهرها أن الجماعات الزراعية عامة شديدة المحافظة على القديم ، لا ترغب فى تغييره أو تبديله . ومثل هذا عرف عن الصينيين وغيرهم من شعوب آسيا الزراعية ، وهو قد تمثل فى مصر بصورة واضحة ، لأن نظام الفيضان قد طبع الزراعة فى الوادى والدلتا بطابع خاص . يحدد نفسه بنفسه فى كل سنة بانتظام ، لا يكاد يختل فى شئ من تفاصيله ؛ ولم يستطع الزارع المصرى أن يغير من طبيعة الأشياء إلى أى حد ملهوس حتى العهد الحديث ، الذى ظهر فيه نظام الرى الدائم ، وأدخلت فيه حاصلات جديدة لم يكن رى الحياض ليسمح بمثلها إلا بمقادير ضئيلة ، لا تغير طابع الزراعة العام فى شئ . وما دام أساس الحياة الاقتصادية فى مصر لم يتغير خلال عهود تاريخها الطويل ، فإن حياة الأفراد ونظرتهم إلى الحياة قد تكيفت بالبيئة المحيطة ، وانتظمت فى نظام الطبيعة المتأصل ، فاتخذت وجهة ثابتة لم تتحول عنها على مر الأيام . ومع ذلك فمثل هذه الحال لا يصح أن توصف بالجمود ؛ فإن استمرار نظام صالح ، كما حدث فى مصر ، ليس معناه ركود الحضارة ، وإنما هو يرجع إلى أن كثيراً من مظاهر النشاط المصرى

والحضارة المصرية الأولى كانت صالحة للبقاء فبقيت ، كما يرجع إلى أن حياة المصريين ومدنيتهم المادية قد تلامت والظروف الطبيعية ، فاستمرت في بيئتها دون تغيير ، على الرغم من انقلاب الأوضاع السياسية والثقافية في كثير من فترات التاريخ .

الصحراء والوادي :

وفوق ذلك فإن الصحراء قد ساعدت في هذا الاتجاه ؛ فبعد أن كانت هي مسرح النشاط في العصر الحجري القديم ، جفت أو كادت تجف تماماً في عصور التاريخ وقل بها السكان ، عدا بعض القبائل المتنقلة في الصحراء الشرقية ، وفي شمال الصحراء الليبية ، وبعض السكان المستقرين بالواحات الغربية ، وغدت تلك الصحارى في عصور التاريخ كالدرع يقي مصر شر الغزوات . وهي وإن لم تقطع صلات مصر بالخارج ، فإنها قد « نظمت » تلك العلاقات ، وخففت من أثرها بحيث إنها لم تستطع أن تغير من أسس الحضارة المحمية ، ولا أن تطمس معالمها الأصلية ؛ واستطاعت مصر بفضل ذلك أن تحتل الغزوات ، وأن « تهضمها » وتصبغ العناصر الدخيلة بالصبغة المصرية في النهاية ، وذلك على الرغم مما استتبعته تلك الغزوات في بعض الأحيان من عهود الفوضى والانقطاع . والواقع أن الدور الذي لعبته الصحارى في مصر كان سلبياً ولكنه كان في غاية الأهمية ، لأنه ساعد مصر في عصور التاريخ المتعاقبة على أن تسير حياتها في أمن واطمئنان ، كما أنه جعل الغزوات من القلة النسبية في العدد والتأثير بحيث إن مصر استطاعت في جميع الحالات أن تنهض وتعاود سيرتها الأولى بعد فترة طويلة أو قصيرة من الاضطراب . ومصر من هذه الناحية تختلف اختلافاً عظيماً عن بلاد كبلاد العراق ظهرت فيها مدنيات قديمة ؛ ولكن مجاورة البدو والرعاة في سهوب بادية الشام وأرض الجزيرة الشمالية من ناحية ، وفي أعالي هضبة إيران والأناضول وما وراءهما من ناحية أخرى ، قد جعل تلك البلاد تحت رحمة الغزاة في معظم أدوار تاريخها . وكان وصول أولئك الغزاة في أعداد كبيرة وعلى موجات متتالية ، لأن الصحارى والبادية التي تحيط ببلاد العراق ليست في جفاف صحارى مصر ، فهي لم

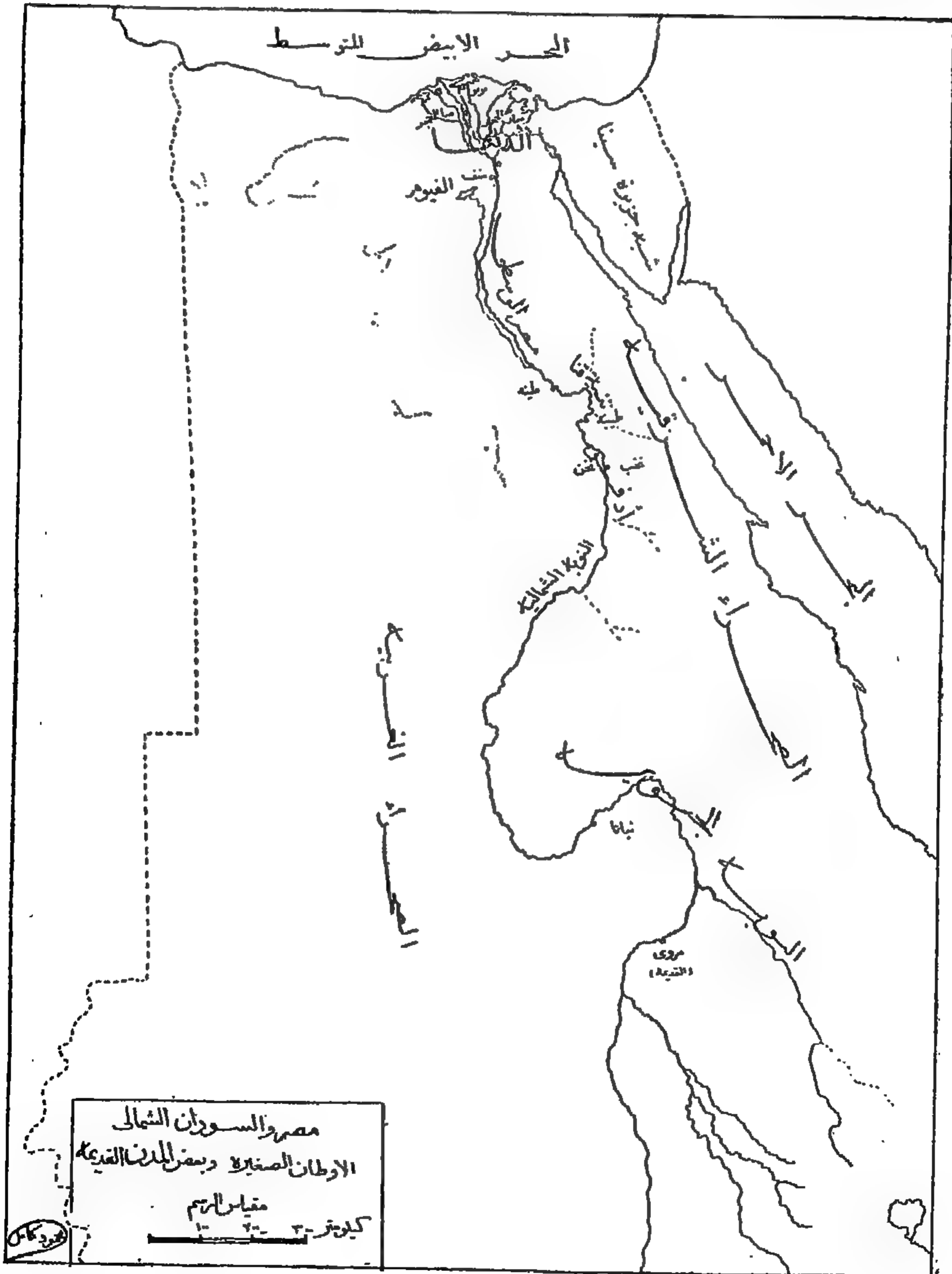
«تنظم» سيل الهجرات ، ولم تخفف من خدة الغزوات . فطغت البادية على الحضرة هناك بصورة أظهر ، وطالت فترات القوضى ولم تتصل حلقات التاريخ والحضارة المستقرة بالعراق اتصالها بمصر . وليس أدل على صحة هذه الظاهرة من أن غزوات العناصر التركمانية والتركية في القرون الوسطى والحديثة ، كان من أثرها انحلال الحضارة انحلالاً يكاد يكون تاماً في أرض العراق ، حيث أهملت الزراعة وعم الخراب والبوار ؛ على حين أن غزو الأتراك مصر قطع طريق الثقافة ، وعطل مجرى الحضارة عامة . ولكنه لم يطمس معالم المدنية ، فلم تلبث البلاد أن جددت نهضتها على أساس تراثها القديم ، وسبقت العراق في الخروج من عهد الركود والاضمحلال . وهكذا كانت الصحارى والفيافي المجاورة عاملاً مساعداً في البيئة المصرية . على عكس ما كانت عليه الحال في بلاد أخرى كالعراق .

الأوطان الصغيرة في وادي النيل الأدنى :

كل هذا فيما يختص بظروف البيئة الجغرافية ، والموقع الجغرافي العام ، وأثرهما في النشاط البشرى والحضارة في مصر . على أن الوطن المصرى يمكن تقسيمه إلى عدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليماً جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص في نشأة المدنية وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعاً يتكون هذا الوطن المصرى الذى يربط النهر بين أجزائه بحيث يتمم بعضها بعضاً . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى تلك الأقاليم إشارة تساعدنا على تفهم قيمة العامل الجغرافى فى كل منها .

ولكن يصح قبل ذلك أن نشير إلى حدود هذا الوطن المصرى من الناحية الجغرافية . وهنا نعرض لأنواع كثيرة من الحدود . فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التى تشمل المصالح الضرورية التى ترتبط بها حياة مصر . وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل . ولا سيما الحبشة التى يأتى منها ماء الفيضان والغرين الذى يغذى الأرض ويحدد الخصب ؛ وكذلك الهضبة الاستوائية التى تمتد مصر بالمياه فى انتظام طوال العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشى ، الذى يقتصر على جزء محدود من السنة . وهناك

أيضاً الحدود الثقافية والبشرية العامة ؛ التي تشمل تلك الأراضي التي تربطها بمصر التاريخية روابط قوية ، من الثقافة المتبادلة ، ومن مختلف النواحي الاجتماعية والبشرية العامة ؛ وهذه تشمل السودان الشمالى وبقية شمال شرق إفريقيا ؛ ثم الحدود العسكرية ، التي ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، فتشمل الصحارى المجاورة . وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب .



على أننا إذا جمعنا بين الناحيتين الحيوية والبشرية العامة، فإننا نصل إلى أن حوض النيل الأوسط والأدنى في شمال السودان (ووسطه) وفي مصر يكون وطناً واحداً متماسك الأجزاء ؛ ويمكن تقسيمه إلى أوطان صغيرة أو أقاليم محلية كما يأتي (راجع الخريطة) :

(١) إقليم النوبة : ويمكن تقسيمه قسمين :

(أ) النوبة الجنوبية ؛ وتتمثل في السودان الشمالي (جنوب الشلال الثاني) ، ولا سيما إقليم دنقلا . الذي تسربت إليه معالم الحضارة المصرية القديمة ثم الثقافة العربية عن طريق مصر . وقد دخل هذا الإقليم في حكم مصر أكثر من خمسة قرون ، كما أنه استطاع في وقت من الأوقات أن ينتج حضارة شبه مصرية في طابعها ومظهرها . ومنه خرج الغزاة وأسسوا إحدى الأسرات الفرعونية في العهد المتأخر . وإقليم النوبة الجنوبية — كما ذكرنا — يصح أن يشمل السودان الشمالي (والأوسط) ، الذي هو أقرب — من حيث ثقافته وحالته البشرية العامة — إلى مصر من إقليم النوبة الشمالية نفسه ؛ حتى إنه يمكن القول إن حدود مصر السياسية الجنوبية لا تقوم على أساس ثقافي ولا بشري .

(ب) النوبة الشمالية ، بين وادي حلفا وأسوان ، وهنا يضيق النهر ، وتقل الأراضي الزراعية على الجانبين وكان هذا الإقليم في أدوار تاريخه المختلفة يمثل حلقة الاتصال بين مصر والسودان ؛ وعلى الرغم من صعوبة المواصلات في مناطق الشلالات ، ومن أن الثقافة المصرية والعربية لم تستأصلا مظاهر الثقافة المحلية ولا سيما اللغة (حيث اللغة « البربرية » لا تزال قائمة إلى الآن) فإن هاتين الثقافتين (المصرية والعربية) قد تسربتتا إلى النوبة الجنوبية كما ذكرنا وعلى ذلك يمكن القول بأن بلاد النوبة الشمالية لم تقطع صلة مصر بالسودان ، وإن كانت قد « نظمت » تلك الصلة . وقد وقى هذا الإقليم — فيما يظهر — مصر شربعض الغزوات والهجرات التي كان يصح أن تأتيها من الجنوب ، كما أنه أخذ يلعب في الوقت الحاضر دوراً خطيراً ، زاد في ارتباطه

ببقية أرض مصر . فم شروع خزان أسوان قد زاد من حاجتنا إلى هذا الإقليم واعتمادنا عليه ، وقد أغرق ماء الخزان هذه القطعة من الوطن ، ليصير في الامكان إجراء التوسع الزراعى فى بقية أرض مصر إلى الشمال .

(٢) إقليم أدفو :

وهنا يتسع الوادى بعض الشيء ، وتتكون الصحارى على الجانبين من حجر الرمل (الخراسان النوبى) ، فالتربة فقيرة فى المواد الجيرية ، لأن حجر الجير لا يبدأ ظهوره فى صحارى مصر إلا فى شمال هذا الإقليم . ولكن على الرغم من ذلك فإن منطقة أدفو كانت أول أقاليم مصر العليا اتساعا ، واستقرت فيها جماعات بشرية منذ أقدم العصور . ويظهر أنه كان لها شأن عظيم قبيل فجر التاريخ ، حيث تحكى الأساطير أنها كانت الوطن الأول للأمراء الذين نزحوا إلى إقليم طينة شمالا ، ثم صاروا فيما بعد ملوك مصر الموحدة . وفى إقليم أدفو قامت مدينتا نخب ونخن القديمتان على ضفتى النيل فى الشرق والغرب .

(٣) إقليم ثنية قنا :

وهو يمثل قلب الصعيد ، حيث يزيد اتساع الوادى وينعرج النهر فيكثر الإرساب ، كما تصل بعض الأودية من الصحراء الشرقية ولا سيما وادى حمامات ووادى قنا ، فتجلب من المواد ما تضيفه إلى رواسب النيل ، فتتنوع عناصر التربة ويزيد خصبها ، وتوجد بالإقليم تربة صلصالية تصلح بصفة خاصة لصناعة الفخار ، مما أوجد صناعة زادت فى تنوع الحرف بين السكان . كذلك امتازت هذه المنطقة بموقع جغرافى ، هو قربها من البحر الأحمر ، فالنيل هنا ينعرج نحو الشرق ، ويصبح أقرب ما يكون إلى ذلك البحر . وقد سهلت الوديان هناك سبل المواصلات ، فاستغل الإنسان موارد الصحراء الشرقية المعدنية من جهة ، كما وصل إلى البحر الأحمر ومد طريق التجارة البحرى إلى بلاد « پنت » فى جنوب ذلك البحر من جهة أخرى ، وكذلك اتصل الإقليم فى الغرب بالواحات الخارجة وما وراءها من دروب الصحراء ، وزاد ذلك فى النشاط

التجارى والثروة التجارية فى هذه المنطقة . من أجل هذا كله امتازت ثنية قنا بثروتها فى الزراعة والصناعة والتجارة منذ القدم . واستطاعت أن تلعب دوراً خطيراً فى تاريخ مصر العام ؛ فهنا قامت عاصمتان من أهم العواصم القديمة فى طينة ثم طيبة . وفى الأولى نشأ أمراء الأسرتين الأولى والثانية ، ومنها بدأ نارمر (مينا) حملته نحو الشمال لتوحيد الوجهين ؛ ثم فى طيبة (ومايجاورها) نشأت الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة ، كما ظهر أمراء الأسرة الثامنة عشرة ومؤسسو الدولة الحديثة . وقد كان لموقع هذا الاقليم وبعده النسبى عن مصدر الغزوات من الشمال قيمته الخاصة ؛ ففى عهود الغزوات التى أتت من الشمال الشرقى فى فترتى الإقطاع الأول والثانى أيام الفراعنة ، تركز نشاط الأمراء المصريين فى هذا الاقليم البعيد . الغنى بموارده ؛ وهنا نضج المجهود وأتى ثمرته فى الدولتين الوسطى والحديثة ، وكان الفضل فى تجديد مجد مصر فى كلتا الحالتين لأمراء طيبة . وإن كانت العاصمة قد انتقلت بعد انقضاء الأزمة إلى مواطن أخرى فى شمال مصر .

(٤) إقليم مصر الوسطى (ويشمل جانباً مما نسميه مصر العليا) :

وهنا يتسع الوادى . ولا سيما فى أجزائه الشمالية ، حيث تمتد الأراضى الزراعية على جانبي النهر خصوصاً فى الغرب ؛ فهذا الاقليم غنى بأراضيه الزراعية الواسعة نسبياً . وإن لم يمتاز بما يمتاز به إقليم ثنية قنا من حيث تنوع موارد الثروة . وكان يمثل إقليم توسع واستعمار للعناصر الآتية من الجنوب أحياناً (كما حدث فى العصر السابق لظهور الأسرات الفرعونية مباشرة) . ومن الشمال أحياناً أخرى (كما حدث فى بعض فترات عهد المماليك والأتراك) . وفضلاً عن ذلك فقد كانت لهذا الاقليم ، أو لأجزائه الشمالية على الأقل ، وظيفة أخرى فى تاريخنا القومى ؛ إذ كان بمثابة حلقة الاتصال بين الجنوب والشمال ؛ وعند طرفه الشمالى قامت عاصمة البلاد المتحدة فى منف التى أنشأها نارمر (مينا ، موحد الوجهين) حضناً يرتكز إليه فى فتح الدلتا وتوحيدها بالصعيد ؛ وعرف ذلك الحصن « بالحوائط البيضاء » أو « الحصن ذى الحوائط البيضاء » ، لأن

هذا اللون كان يمثل شعار الصعيد (كما كان اللون الأحمر يمثل شعار الدلتا) . وكان الصعيد صاحب اليد العليا في النضال العسكرى الذى أدى إلى إتمام وحدة البلاد . وبعد أن بقيت عاصمة البلاد فى طينة (موطن نارمر) فى قلب الصعيد مدة انتقلت نهائياً إلى منف فى عهد الأسرة الثالثة .

وقد بقى إقليم منف أصلح نقطة للربط بين الوجهين وإدارة البلاد ، وإن كان مركز الحكم ومقر الملك قد تنقل من مكان إلى آخر داخل هذا الإقليم ؛ ولم تنتقل العاصمة إلى قلب الصعيد (ثنيةقنا) أو الدلتا إلا فى ظروف خاصة ، ولضرورات طارئة ، سببها فى الغالب اتصال مصر واحتكاكها بالخارج ، وما تبع ذلك من غزوات أجنبية كانت تمهد السبيل لارتداد قاعدة الجهاد إلى إقليم طيبة ، أو من توسع من الجانب المصرى نحو بلاد الشرق (تنتقل من أجله قاعدة الإمبراطورية العسكرية إلى شرق الدلتا) ، أو من ارتباط بين مصر وبلدان البحر المتوسط كان يحتم نقل العاصمة إلى الاسكندرية .

وتعتبر القاهرة الآن خايفة منف ، ولكنها تقوم فى شرق النهر بدلا من غربه (كما كانت الحال فى منف) ؛ ولعل السر فى ذلك أن الذين أنشئوها كانوا من العرب القادمين من الشرق ، فلم يكن غريباً أن يختاروا الناحية الشرقية من الوادى موقعاً لعاصمتهم .

على أن القاهرة كمنف لم تقم عند تفرع رأس الدلتا تماماً ، وإنما قامت إلى الجنوب من ذلك ؛ ويرجع السبب الجغرافى فى ذلك إلى أن رأس الدلتا ظاهرة متغيرة مع تغير نقطة تفرع أذرع النيل ، فكان من الصعب قيام مدينة ثابتة هناك ؛ فضلا عن أن وجود تلال المقطم جعل من الأصلح عسكرياً أن تقام العاصمة فى هذه النقطة التى تتحكم فى مدخل الصعيد ، كما تشرف على جنوب الدلتا ، وتتصل فى الوقت نفسه بطرق الصحراء الآتية من الشرق والمؤدية إليه .

(٥) إقليم الفيوم .:

وهو حوض يقع فى غرب الوادى ، خارجاً عنه ، وإن كان يرتبط به بفتحه اللاهون أو الهوارة ، حيث يمر بحر يوسف ليغذى الأراضى الزراعيه وبركة

قارون . وكانت لهذا الإقليم أهمية ظاهرة في تطور الحضارة المصرية في العصر الحجري الحديث ، عندما كانت جماعات الزراعة والصيادين والرعاة تعيش على حافة بحيرة كانت أكثر اتساعاً وأعلى منسوباً من بركة قارون الحالية . على أن هذا الإقليم قد استطاع خلال أعصر التاريخ أن يحتفظ بطابع خاص في المدنية والحياة البشرية ، لا يزال يميزه حتى الآن ؛ ففيه يختلط رعاة الصحراء بالزراعة ، وفيه يختلف مظهر الريف عن بقية بلاد القطر ، فتدرج الحقول على هيئة مساطب ومدرجات ، ينحدر الواحد منها نحو الآخر نحو البحيرة التي تنخفض الآن ٤٥ متراً عن مستوى البحر . وقد اختلفت مشكلات الري والزراعة هنا عنها في الوادي والدلتا ، وإن كان سكان الوادي وبعض العناصر الدخيلة قد اتخذوا من إقليم الفيوم في بعض فترات التاريخ مجالا « للتوسع والاستعمار » ، كما حدث في عهد البطالمة .

(٦) الدلتا:

وفيها تنسع الأراضي عن اليمين وعن الشمال ، وتشعب أفرع النيل ، التي كانت في الماضي أكثر عدداً منها الآن (راجع الخريطة) . إذ بلغ عددها سبعة في أيام الرومان . ثم إن الدلتا أوفرت ثروتها وأكثرت تنوعاً في مواردها من الصعيد ؛ ففيها الأراضي الزراعية المتسعة ، والبراري الصالحة للرعي ، والمستنقعات والمجاري المائية التي تكثر بها الأسماك وتعمر أحراجها الطيور . وكذلك كانت الدلتا سهلة الاتصال بالعالم الخارجي عن طريق البر شرقاً وغرباً . وعن طريق البحر شمالاً ؛ فاتصلت حضارتها بالخارج ، وأضاف ذلك إلى تراثها المادي والثقافي . لذلك كله كان هذا الإقليم منذ عصر ما قبل التاريخ أكثر تقدماً من الصعيد ، وأغزر نعمة ، وأوسع أفقاً من ناحية المدنية والثقافة . على أنه كان في الوقت نفسه أكثر تعرضاً للغزاة الذين طمعوا فيه ، واندفعوا نحوه من جهات كثيرة فيما وراء الصحراء ، وما وراء البحر ، ولا سيما في فترات الضعف السياسي والاجتماعي في مصر . ومع ذلك فإننا نلاحظ أنه على الرغم من أن تلك الغزوات أضافت إلى تنوع العناصر الجنسية بين سكان الدلتا ، فإن بيئة الاستقرار وطبيعة الحياة في هذا

الأقليم المتسع كاتنا من القوة والتركز بحيث ساعدتا دائماً على « هضم » الغزاة ومقاومة أثرهم على طريقة الإقليم الخاصة ، التي تتمثل في تقبل العناصر الدخيلة ثم صبغها بالصبغة المصرية قبل أن يمتد أثرها إلى بقية البلاد. وهكذا كان للدلتا وظروفها الجغرافية فضل كبير في احتفاظ مصر بطابعها الحضارى ، على الرغم مما انتابها من غزوات .

ولكن الدلتا كانت بطبيعتها أقل تماسكا ونظاماً ، كما كان أهلها أقل عصبية من أهل الصعيد ؛ ذلك أن أفرع النيل الكثيرة وأرض المستنقعات تقطع بين أجزائها في الشرق والوسط والغرب وأقصى الشمال ؛ كما أن مجارى النهر هنا كانت كثيرة التغير والتحول من سنة إلى أخرى ، نظراً لشدة استواء الأرض واتساعها ، مما أدى إلى تغير الحدود باستمرار بين الأقاليم أو المقاطعات المتجاورة ، وزاد في الفوضى والاضطراب بين السكان . وقد نشأت في الدلتا عدة عواصم قديمة ، منها بوتو وسائيس (صا الحجر) وتانيس (صان الحجر) وغيرها . بل لقد تمثل تفكك الدلتا من ناحية الإدارة والسياسة منذ فجر التاريخ ، فاستطاع رجال الصعيد أن ينتزعوا لأنفسهم نحر توحيد البلاد ، فتغلب نارمر (مينا) وجنوده على أمراء الدلتا ، الذين كانوا فيما يظهر أكثر منه مالا وأعز نفراً ، ولكنهم كانوا أضعف عصبية وأقل نظاماً وتماسكاً . وبذلك تم النصر في النهاية لأهل الجنوب .

وقد لا نبعد كثيراً عن الحقيقة إذا استخلصنا مما سبق قاعدة عامة (لا تخلو من شواذ بالطبع) تنطبق بصورة أوضح على مصر الفرعونية ، وهى أن الدلتا كانت تمد مصر بالمال ، على حين كان الصعيد يمدّها بالرجال .

(٧) الأقاليم الصحراوية على جانبي النيل:

وتشمل (١) الصحراء الشرقية (وشبه جزيرة سيناء) (ب) الصحراء الغربية . وقد كان لهذه الصحارى أثر هام في تاريخ مصر العام ؛ ويطول الأمر إذا حاولنا أن نتوسع في سرد الحقائق الجغرافية الخاصة بها ، ولكننا نجتزئ

بما أوردناه من تأثيرها في تطور الحضارة في مصر في عهود ما قبل التاريخ ،
ثم في العصر التاريخي . وقد كانت الصحارى في العصر الحجري القديم المسرح
الأول للنشاط البشرى في هذا الركن من إفريقيا ؛ أما بعد انقضاء عصر المطر
وحلول الجفاف فقد نزل السكان إلى الوادى ، واضطروا إلى الإقامة على
ضفافه . ومع ذلك فهم لم يقطعوا صلتهم بالصحراء (وشبه جزيرة سيناء) التي
كانت مورد كثير من المعادن ، كما كانت تمثل الدرع التي اضطرت مصر إلى
التمسك بها ، حرصاً على كيانها وضماناً لوقايتها شر الغزوات . وكذلك كانت
الطرق التجارية تخترق الصحراويين ، شرقاً إلى البحر الأحمر وما وراءه ، وغرباً
وجنوباً بغرب إلى شمال إفريقيا وإلى المناطق السودانية . وقد جنت مصر
من هذه التجارة ثمرة طيبة في عهود مختلفة من تاريخها الطويل .
فالصحارى إذن كانت ولا تزال تكويناً خطيراً من الوطن المصرى .
ولولا وجودها على جانبي النيل لتغير وجه التاريخ في كثير من نواحيه .

الخلاصة :

إذا نحن حاولنا الآن أن نجمل القول عن البيئة والإنسان ، وعن علاقة
الظروف الجغرافية بالحوادث التاريخية الأساسية في مصر ، فإننا نجد أن هذه
البلاد (وادى النيل الأدنى والأوسط ، بما في ذلك السودان الشمالى) كانت تمثل
وطناً غنياً ، ومسرّحاً لآل لأن تثمر فيه جهود البشر في إنشاء حضارة عريقة
متصلة الحلقات استطاعت أن تغالب الدهر وأن تبقى على الزمن ، على الرغم
مما أصابها من فترات ركود ، لا تزيد في مجموعها على ربع التاريخ المصرى منذ
بداية الأسرات (سنة ٣٣٠٠ ق.م) ، ولا على خمسة (أو سدسه) إذا رجعنا به
إلى بداية الحضارة الزراعية المستقرة على ضفاف النيل . ولم يكن هذا القدم
والاستمرار نتيجة المصادفة أو الاتفاق ، وإنما هما قد ترتبا على توافر أسس
جغرافية معينة . وعلى تضافر عناصر البيئة في مصر تضافراً له أثره في مختلف
نواحي الحياة ؛ فالصحراء تحيط بالوادى من جنباته ، وتقيه كأنها الدروع ،

والنهر تجرى مياهه بانتظام ، وتفيض بالخير فى كل عام ، والتربة الزراعية دائمة الخصب ، تتجدد حتى فى فترات الجود وعهود الإهمال ، والمناخ صالح للإنبات والنمو والإنتاج ، والثروة الزراعية غنية وفيرة بما لا يكاد يضارع فى بلاد غير مصر ، والاتصال النهري سهل ميسور بين مختلف أجزاء الوادى ، ثم الموقع الجغرافى الذى قد جعل من مصر مفرق البحرين وملتقى الأرضين . كل هذه العوامل مجتمعة قد تضافرت ، وأكمل بعضها بعضاً فى هذا الوطن الصالح ، الذى أخرج للناس أمة عريقة ، لا تكاد تضارعها فى قدم التاريخ واتصاله أمة من الأمم .

ثم إن هذا الوطن قد امتاز إجمالاً بظاهرتين ، ترتبت عليهما ظاهرة ثالثة . فأما الظاهرة الأولى فتتمثل فى أن ظروف هذا الوطن الجغرافية كانت تفرض على الناس « الوحدة » ، فأساس الحياة فى مصر واحد ، ومصدرها واحد ، والفائدة التى يجنيها السكان من تنظيم شئون الري والزراعة مشتركة ، كما أن الخطر الذى يهددهم به الفيضان فى كل سنة مشترك . والواقع أن الطبيعة قضت بأن يكون وادى النيل الأدنى وطناً واحداً ، ترتبط فى داخله تلك الأوطان الصغيرة التى عرضنا لها ، ويتضامن سكانه فى الغاية والوسيلة وفى السراء والضراء . وقد تجلت عظمة ذلك الوطن فى الأوقات التى استجاب فيها السكان للبيئة ، فأخذوا بأسباب الوحدة فى الحياة والمدنية والفكر والثقافة ، على حين انحلت أوصاله وتضعفت شئونه عند ما باعد الإنسان بينه وبين مقتضيات بيئته ، فتنابد الناس ، وتنافرت الأقاليم ، وضاعت المصلحة العامة ، وفسدت الأمور ، لأن البيئة فى مصر من ذلك النوع الذى يغلب الجماعات البشرية الصغيرة متفرقة . ولا يخضع لها إلا مجتمعة . ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة أمامنا فى التاريخ الحديث ، بل وفى حياتنا القومية فى الوقت الحاضر ، مثولها فى عصور التاريخ ، وفى الماضى البعيد .

وأما الظاهرة الثانية فهى « النظام » . إذ البيئة المصرية قد فرضت النظام على الناس منذ بدأ استقرارهم على ضفاف النيل ؛ فكان النظام ضرورياً لتوحيد الجهود

وتنسيقها ، وضمان نجاح المجهود الإجماعي في إقامة الجسور وحراسة النيل ، وتكديس كميات التراب التي تقام عليها القرية المصرية فوق مستوى الفيضان ، وشق الترعة والقنوات ، وغير ذلك من مرافق الحياة . ولقد كان شعب مصر بطبيعة بيئته شعباً نظامياً منذ البداية ، وكانت استجابته لدواعي الطاعة والنظام ، واستكاته للعرف والقانون ، سجية فطرته عليها الطبيعة . والحق أن مصر إنما اختل أمرها ، وضعف شأنها ، وعمتها الفوضى ، وسادها الإهمال ، عندما خرج الناس على النظام ، وعلى من بيده أمر الجماعة ومصالحها المشتركة . وإذا كانت هذه القاعدة مما ينطبق على غير مصر من الأمم القديمة والحديثة ، فإن انطباقها على الحالة في بلادنا كان أظهر وأشد وضوحاً .

وأما الظاهرة الثالثة والأخيرة فقد ترتبت على هاتين الظاهرتين ، واتصلت بعامل جغرافي آخر ، هو موقع مصر بالنسبة للعالم المجاور وغير المجاور ؛ فقد كان هذا الموقع مما يصح أن يكون خيراً لمصر أو وبالا عليها . ففي العصور التي استعصمت فيها البلاد بوحدتها واستمسكت بنظامها ، ازدهرت حضارتها وامتد نفوذها وسلطانها ، وأفادت من موقعها الجغرافي دون أن تخشى طمع طامع أو عدوان معتد ؛ وفي العصور التي انحلت فيها الوحدة ، وعمت الفوضى ولم يستجيب الناس لدواعي البيئة ودوافعها الظاهرة والخفية ، طمع في مصر الطامعون ، وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر ، وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها ، ويوجهها وجهات كثيرة ، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها ، وإن لم تستطع أن تغير من أسس مدنياتها الأولى .

٢ - مصر في عهد الأسرات

عبد المنعم أبو بكر

مصادر التاريخ المصرى القديم :

تمهيد : تنقسم هذه المصادر قسمين : أولهما وأوثقهما ما خلفه لنا المصريون القدماء من آثار عدة ، بينها قوائم^(١) أراد بعض ملوك مصر أن يخلد عليها أسماء الملوك الذين سبقوه فى الحكم ، وهى :

(أ) قائمة حجر بالرمو ، وقد دونت عليها أسماء الملوك من عصر فجر التاريخ حتى عصر الأسرة الخامسة .

(ب) قائمة الكرنك ، وقد دونت عليها أسماء الملوك من الأسرة الأولى حتى الأسرة الثامنة عشرة ؛ وقد أخطأ كاتب هذه القائمة فى تقسيم الأسر وترتيب ملوكها .

(ح) قائمة أبيدوس ، وقد دونت عليها أسماء الملوك حتى الأسرة التاسعة عشرة ، وليس عليها أسماء ملوك الهكسوس والملوك الذين تولوا فى عهد ثورة إخناتون الدينية .

(د) قائمة ورقة تورين البردية ، وقد دون عليها أسماء الملوك حتى الأسرة التاسعة عشرة ، وتمتاز بذكر مدد حكم الملوك بالسنة والشهر واليوم .

(هـ) قائمة سقارة ، وقد كتبت على جدران مقبرة زيلابى ، أحد الأشراف المعاصرين للملك رمسيس الثانى ، وهى تخلو من أسماء ملوك عصرى الاضمحلال الأول والثانى .

أما المصدر الثانى فهو ما وصل إلينا من نبد عديدة دونها مؤرخو الأغريق

(١) يقصد بتلك القوائم الألواح الحجرية التى دون عليها بعض الأسماء والحوادث التاريخية .

في كتبهم التاريخية عن مصر . ويجب ألا ننسى أن مصر في عصورها الأولى كانت مغلقة في وجه الأجانب ، وأن أول من سمح للأجنبي بدخول مصر كان بسامتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين .

تبوأ هذا الملك عرش مصر بعد أن ساعده على ذلك ملك اليونان وأيده بجيشه ، فعرف بسامتيك أن عرشه وأسرته لن يتمكنوا من البقاء في مصر إلا بمساعدة الجند المرتزقة وعطف الشعب اليوناني عليه ، فسمح لهؤلاء الجند بالبقاء في مصر ، وشجع اليونان على السفر إليها ، فحضر إلى مصر نفر كبير من قادة الفكر في اليونان ، فزار مصر هيكتيوس دي ميليت حوالي عام ٥٢٠ ق.م ، ثم تبعه هيردوت حوالي عام ٤٣٠ ق.م . ونحن إذا اعتمدنا على هذين المصدرين ، فإنما نعتمد على مادونوه في كتبهم من مشاهدات رأوها بأعينهم ووصفوها أدق وصف . ومانيتون الذي عاش في حكم بطليموس الأول حوالي عام ٣٠٥ ق.م يعد أهم مؤرخ كتب عن مصر ، فألف كتاباً في ثلاثة أجزاء ، خصص منها جزءاً للتاريخ ، وآخر للديانة ، والثالث للحياة الاجتماعية وملاحظاته الشخصية . ولكن يوسفنا أنه لم يصل إلينا من كتاب مانيتون هذا إلا ما نقله عنه بعض المؤرخين ، الذين عاشوا بعده بسنين عدة ، مثل يوزيفوس ويوليوس أفريكانوس وأيزيديوس . وقسم مانيتون ملوك مصر إلى ثلاثين أسرة . وقد أخذنا بطريقته بعد أن وجدنا انطباق تقسيمه على ما عثرنا عليه من آثار لهذا العهد الطويل .

ثم كتب في تاريخ مصر في أوائل ظهور المسيحية ديودور واسترابون .

عصور التاريخ المصري القديم

- (١) عصر الأسرات الأولى ، ويشمل الأسرات الأولى والثانية : (من سنة ٣٣٠٠ إلى سنة ٢٧٧٨ ق.م) .
- (٢) عصر الدولة القديمة ، ويشمل الأسرات الثالثة حتى آخر السادسة : (من سنة ٢٧٧٨ إلى سنة ٢٤٢٣ ق.م) .

- (٣) عصر الاضمحلال الأول ، ويشمل الأسرات السابعة حتى آخر العاشرة
(من ٢٤٢٣ إلى ٢١٦٠ ق . م .) .
- (٤) عصر الدولة الوسطى ، ويشمل الأسرات الحادية عشرة إلى آخر الثالثة
عشرة : (من ٢١٦٠ إلى ١٦٨٠ ق . م .) .
- (٥) عصر الاضمحلال الثاني (الهكسوس) ، ويشمل الأسرات الرابعة عشرة
إلى آخر السادسة عشرة : (من ١٦٨٠ إلى ١٥٨٠) .
- (٦) عصر الدولة الحديثة ، ويشمل الأسرات السابعة عشرة إلى آخر العشرين :
(من ١٥٨٠ إلى ١١٠٠ ق . م .) .
- (٧) عصر حكم كهنة أمون ، ويشمل الأسرة الحادية والعشرين : (من ١١٠٠
إلى ٩٥٠ ق . م .) .
- (٨) عصر حكم الليبيين . ويشمل الأسرات الثانية والعشرين إلى آخر الرابعة
والعشرين : (من ٩٥٠ إلى ٧١٥ ق . م .) .
- (٩) عصر حكم الإثيوبيين ، ويشمل الأسرة الخامسة والعشرين : (من ٧١٥
إلى ٦٦٣ ق . م .) .
- (١٠) العصر الصاوى ، ويشمل الأسرة السادسة والعشرين : (من ٦٦٣ إلى
٥٢٥ ق . م .) .
- (١١) عصر حكم الفرس ، ويشمل الأسرات السابعة والعشرين إلى آخر
الثلاثين : (من ٥٢٥ إلى ٣٣٢ ق . م .) .
- (١٢) عصر حكم اليونان ، وذلك بدخول الإسكندر عام ٣٣٢ ق . م .
- (١٣) عصر البطالسة (من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٠ ق . م .) .
- (١٤) العصر الرومانى (من سنة ٣٠ ق . م . إلى دخول العرب سنة ٦٤١ م .) .

أولا — عصر الأسرتين الأولى والثانية

كنا نعتقد إلى عهد قريب أن مينا هو أول ملك حكم مصر ووحيد
أقاليمها ، وبعد أن عثرنا على قائمة حجر بالرمو ظهر لنا خطأ اعتقادنا ، إذ أن هذه

القائمة ذكرت أسماء ملوك حكموا قبل مينا . وبعد البحث الطويل ثبت أن مصر وحدث قبل عصر مينا ؛ وحدها ملوك ينتسبون إلى مقاطعة الصقر ، التي كانت مدينة دمنهور تعتبر عاصمة لها . أما عاصمة البلاد فكانت وقتئذ هليوبوليس ؛ وتؤرخ هذا التوحيد بعام ٤٢٤٠ ق.م . وبعد ذلك انقسمت مصر إلى وجهين : الوجه البحرى والوجه القبلى . وتقسم مصر إلى وجهين أمر تحتمه طبيعتها . ولقد اعتز كل من الوجهين بتقاليده ، وحافظ على حضارته ، وساق هذا التعادل فى المدنية إلى تشابه كبير بينهما ، فالوجه البحرى كانت له عاصمتان : (بوتو) و (پى) ، والوجه القبلى كانت له أيضا عاصمتان : (نخبت) و (مخن) . وكان الإله الذى يحمى العاصمة فى دولة الشمال هو الحية « أوتو » ، على حين كانت « نخبت » تحمى عاصمة دولة الجنوب . وكان حوريس مدينة دمنهور هو حامى دولة الشمال ، وحوريس مدينة إدفو حامى دولة الجنوب . وكان ملك الشمال يلبس تاجا أحمر ، ويلبس ملك الجنوب تاجا أبيض ؛ وعلم الشمال كان ممثلا فى نبات البردى ، واتخذ الجنوب نباتا آخر (لعله القش) كعلم له ، وهلم جرا .

لقد اقتطعنا عصر الأسرتين الأولى والثانية من الدولة القديمة ، وسميناها عصر الأسرات الأولى ، لأنه قليل الأهمية ، بل لأنه ذو طابع خاص ، ولأنه العصر الذى اشتد فيه النزاع بين الوجهين البحرى والقبلى ؛ ذلك إلى أنه العصر الذى كونت مصر فيه لنفسها أسس الحضارة الزاهرة التى تباهى بها كل أمم التاريخ القديم . والتوحيد الثانى لم يتم إلا بعد حروب طويلة رأينا آثارها منتشرة على كل ما عثرنا عليه من وثائق مكتوبة من هذا العصر .

وكان من أهم الأمور التى عنى بها كل من جلس على عروش مصر من ملوك هاتين الأسرتين ، هو توطيد الحكم ، وإخضاع الثائرين على نظام وحدة السلطة . وهناك دلائل عدة توضح لنا تماما كيف كانت سياسة الدولة جمعاء فى عصر هاتين الأسرتين متجهة هذا الاتجاه .

مضارة عصر الأسرات الأولى :

الفن : كانت مصر في عصر فجر التاريخ يتشابه فيها مع فنون كل الأمم المجاورة لها ، ثم بدأت تفصل نفسها عن هذه الأمم في العصر الذي سبق عصر الأسرات ، وكونت لها فنا ذا طابع خاص ، وبميزات خاصة لم تتغير حتى آخر عصور التاريخ المصري القديم . ظهرت بواذر هذا الطابع على لوحى الملك نارمر (مينا) والملك (دجر) المحفوظين في المتحف المصرى ، ثم على لوح الملك (زت) المحفوظ في متحف اللوفر .

الديانة : ديانة المصريين القدماء هى أصعب الديانات القديمة دراسة ، إذ أن تنوع آلهتها وتشعب نظرياتها . يجعل من الصعب علينا أن نكون عنها فكرة كاملة متسلسلة ، كما نفعل مثلاً عند دراسة الفن أو التاريخ القديم . ولكن يمكننا أن نقول إن كل ما وصل إلينا عن هذه الديانة قد وجدت أصوله في عصر الأسرات الأولى . بل في عصر فجر التاريخ .

الدولة القديمة

تبدأ الدولة القديمة بالأسرة الثالثة . وعنوان هذه الدولة الأهرام التى تمتد من ميدوم إلى دهشور ، إلى سقارة ، ثم إلى أبي صير ، ثم إلى الجيزة وأبي رواش . وإذا كان العصر الذى سبق الأسرة الثالثة عصر الانتقال من الاقطاع إلى الاتحاد ، ومن التفكك إلى الاندماج ، فإن هذا العصر عصر اتحاد كامل ، يحكم مصر ملك يدير دقتها وحده ، هو الإله ابن الإله (رع) . وإذا وصفنا هذا العصر بأنه عصر ذهبي ، فيجب أن نميزه عن العصور الذهبية الأخرى . فهذا العصر لم يكن كنتيجة لعوامل خارجية فقط مثل الفتح ، وتدفق الأموال من الجزية المفروضة على الشعوب المستعمرة ، أو كثرة الأسرى الذين يستخدمون لتقوية شأن مصر ؛ وإنما كان كذلك نتيجة لاتحاد مصر ونهوضها أمة واحدة ، لامتياز فيها بين مصرى الشمال ومصرى الجنوب .

(١) عصر القوة

١ — الأسرة الثالثة :

ملوكها : هم زوسر ، وسنخت ، ونب كا ، وحونى .
ولا نعرف الكثير من أعمال زوسر الحربية ، ولكننا عثرنا على لوح تذكارى فى منطقة شبه جزيرة سينا ، نرى عليه الملك يعاقب قبائل البدو التى تسكن الصحراء الشرقية . وهناك لوح حجرى آخر هو لوح المجاعة ، كتب فى عصر متأخر ، يحدثنا عن مجاعة أصابت مصر فى عصر الملك زوسر ، وعن الجزية التى فرضها هذا الملك على بلاد النوبة الشمالية (التى خضعت وقتئذ لحكم مصر) قدرها عشر المحصول ، لتخفيف وطأة المجاعة .
أما الملوك الآخرون فلم تصل إلينا عنهم أخبار كثيرة .

وحضارة هذا العصر لم تظهر لنا جلية إلا بعد إزالة الرمال عن منطقة هرم زوسر المدرج بسقارة . إذ ظهرت لنا أبنية استعمل فى تشييدها فن كنا نعتقد إلى عهد قريب أن موطنه اليونان لا مصر . أقصد بذلك تلك العمدة المضاعة المعروفة فى الفن اليونانى باسم Proto - doric . واعتقد بعض أن هذا التقدم فى فن العمارة فى عصر الأسرة الثالثة كان نتيجة لتقدم مستمر متسلسل ظهرت آثاره فى عصر الأسرة الأولى والثانية ، فاستعمل الملك (دن) والملك (خاسنموى) الحجر فى بناء مقبرتيهما بدلا من اللبن الذى كان يعتبر المادة الفذة لبناء مقابر ذلك العصر . ولو أن زوسر بدأ عصره ببناء هرمه المدرج لصحت هذه الفكرة ؛ غير أنه عند ما اعتلى عرش مصر نحا نحو أجداده ، وبني مقبرة كبيرة من اللبن فى بيت خلاّف . وعلى ذلك أصبحنا نميل الآن إلى الاعتقاد بعدم وجود تقدم متسلسل ، بل إن الخطوة الجريئة التى خطاها زوسر كانت نتيجة لعبقرية فنان كبير ؛ هذا العبقرى هو إيمحوتب وزير زوسر ومهندسه وكبير أطبائه ، بل كان أيضاً المشرف على كل كبيرة وصغيرة فى شئون الدولة . واشتهر

هذا الرجل حتى تحدث بنبوغه كل مصرى عاش في الأجيال المتأخرة ، وبلغ تقدير المصريين له أن جعلوا منه إلهاً للطب والفن والصناعة .

٢ — الأسرة الرابعة :

ملوكها :

| | |
|-----------|--------------|
| (١) سنفرو | (٤) خفرع |
| (٢) خوفو | (٥) منقرع |
| (٣) دوفرع | (٦) شبسس كاف |

اشتهر ملوك هذه الأسرة بأهرامهم الضخام ، وما يتبعها من معابد جنائزية ومعابد للوادی . وهذه الأبنية الشاخنة العظيمة أكبر حجة على قوة الحكومة في هذا العصر ، وعدم اشتغالها بأية حروب أو فتوح . ويمكننا التحدث عن عصر هذه الأسرة بأنه كان عصر هدوء تام ، لم تحدث فيه حوادث خارجية تستحق الذكر ؛ ولذا يحسن قصر الحديث على آثارها الخالدة ، حتى تتمكن من فهمها والوصول إلى المغزى الذى من أجله بنيت هذه الأهرام .

الهرم : فى أوائل عهد الأسرة الثالثة كان الملوك والمصريون أجمعون يبنون مقابرهم من اللبن . وقد عرفنا كيف أن زوسر كان أول ملك مصرى استخدم الحجر فى البناء ؛ وفى عصر الدولة القديمة بنيت المقابر من الحجر . ولقد اصططحنا على تسمية مقابر هذا العصر « مساطب » للتشابه بينها وبين مساطب الفلاحين . وتنقسم المسطبة إلى قسمين : أحدهما فى جوف الأرض ، وهو معد لدفن الميت ، والآخر فوق الأرض ، وهو معد لزيارة أقارب الميت . ومن المسطبة نشأت فكرة الهرم ؛ إذ أن هرم زوسر المدرج ليس إلا ست مساطب تعلو الواحدة الأخرى . ثم ظهر الهرم الحقيقى فى عصر الأسرة الرابعة .

لماذا بنى الهرم ؟ اعتقد المصري فى خلود الروح ، وأن الإنسان سيجيا حياة ثانية على الأرض ، من شروطها بقاء الجثة حافظة لعناصرها . ولذلك بنى المسطبة ووضع الجثة فى تابوت محكم وخبأها فى أعماق الأرض ، ثم حلى جدران

المسطبة (أى الجزء الذى يعلو الأرض) بكل ما اعتقد أنه سيحتاج إليه فى حياته الثانية : فمن قوارب لعبور النيل ، إلى مناظر الزرع والحصاد ، ومناظر الصيد على اختلاف أنواعه ، إلى المناظر التى تظهر لنا ما يجرى فى منزله من الطبخ وتربية الحيوانات المنزلية وغير ذلك ؛ وزود كل هذه المناظر بنصوص تفسرها حتى لا تحار الروح فى التعرف عليها . ثم خشى أيضا أن يتغلب الدهر على الجثة المحفوظة ، مما يجعل العطب يدب إليها ، فصور صاحب المسطبة فى مواقفه المتعددة ، ثم قطع عدة تماثيل من الحجر تمثله ، وأودعها مكانا خاصا نسميه « السرداب » . أما الملوك فلم يبنوا لأنفسهم مساطب ، بل شيدوا الأهرام تحوى جثثهم . وبجانب كل هرم بنوا معبدين : الأول خاص بكبار الكهنة والبيت المالك ، وتقام فيه الشعائر الدينية ، وتقدم فيه القرابين للملك الراحل . ويسمى « المعبد الجنائزى » ، والثانى وهو ما نسميه بمعبد « الوادى » ، فيقام عادة عند سفح الهضبة ، وكان بمثابة مدخل كبير تصل إليه الوفود من كل جانب ، حتى إذا اجتمع شملهم صعدوا إلى « المعبد الجنائزى » محترقين ممرأ منحدرأ طويلا يصل بين المعبدين .

٣ — الأسرة الخامسة :

تاريخ هذه الأسرة يظهر لنا مدى التطور الفكرى والاجتماعى الذى وصلت إليه مصر ، بعد تلك الخطوات السريعة التى قطعتها فى الحضارة منذ الأسرة الأولى حتى آخر الأسرة الرابعة . وهو تطور طبعى نراه ممثلا فى كل الأمم المتحضرة ، واقتضته فى مصر تلك النظم الاقتصادية التى اتبعتها السلطة المركزية فيها لعدة قرون . وكان من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تستمر هذه السلطة مع تعسفها هذا قائمة بكل الالتزامات المطلوبة منها ، دون أن تواجه المعضلة الاقتصادية التى تواجهها الآن كل الأمم الديكتاتورية ، وهى نقص موارد الدولة ، واستنفاد كل مجهود الأمة لتحقيق فكرة أو هدف واحد .

اشتهر عصر الأسرتين الثالثة والرابعة بأنه كان عصرا قبض فيه الملوك بيد من حديد على جميع موارد الأمة . وما هو إلا أن انقرضت الأسرة الرابعة وجلس

ملوك الأسرة الخامسة على عرش مصر ، حتى ضعفت هذه السلطة ، ووزعت الوظائف الكبيرة على أفراد من الشعب بعد أن كانت وقفاً على أعضاء البيت المالك . ثم أصبح لحكام الأقاليم شيء من النفوذ والسلطة المحلية مع بقائهم متصلين بالسلطة الرئيسية في العاصمة .

وظهرت سياسة جديدة في عصر هذه الأسرة فبدأت الحكومة تبدى عنايتها بالبلاد الواقعة وراء حدودها ، فأرسلت البعثات التجارية إلى سورية ، وبلاد الصومال ، ثم إلى السودان فيما وراء الشلال الثاني ، وذلك لتسد النقص الذي اشتد في عصر الأسرة الرابعة من الناحية الاقتصادية .

أما من الناحية الدينية فتختلف الأسرة الرابعة عن الخامسة بأنها جعلت الإله (رع) معبود الدولة الأول بدلاً من الإله (حوريس) ، وأصبح بذلك الملك ابن الإله رع ، وزالت عنه صفة الألوهية المطلقة ، كما كان الحال طوال عصر الأسرة الرابعة .

وملوك هذه الأسرة هم :

- | | |
|-------------------|------------------|
| (١) أسركاف . | (٦) نى أومر رع . |
| (٢) ساجورع . | (٧) من كاوحور . |
| (٣) نفر ايركارع . | (٨) ردكارع . |
| (٤) شبسس كارع . | (٩) أوناس . |
| (٥) نفران رع . | |

٤ — الأسرة السادسة :

لسنا ندرى الأسباب التي أدت إلى انقراض الأسرة الخامسة ، كما لا نعرف أتزوج أول ملوك الأسرة السادسة من بيت الأسرة الخامسة أم اغتصب الحكم لنفسه بالقوة ؟ وكل ما نعرفه هو أن الأسرة الجديدة بقيت في « منفيس » .

ملوك الأسرة السادسة هم :

- | | | |
|--------------------|------------------|----------------------------|
| (١) تى . | (٢) أسركارع . | (٣) يبي الأول (مري رع) . |
| (٤) مرن رع الأول . | (٥) يبي الثاني . | |

كان عصر هذه الأسرة حافلاً بحوادث خطيرة كادت تهدم كيان الأمة المصرية وتقودها إلى الخراب ، لولا يقظة الحكومة المصرية ، ووجود قواد بارعين في أساليب الحرب أخلصوا وتعاونوا في الدفاع عن حدودها، وصدوا ذلك التيار الجارف من القبائل المهاجرة التي تركت أوطانها وهامت على وجوهها لاهم لها إلا الغزو والحرب . واستطاع الملك يبي الأول أن يقضى على الغزاة ، وتمكنت مصر من أن تتق شر هذه القبائل طوال عهد الأسرة السادسة .

مبدأ ظهور العصر الإقطاعي :

تحدثنا عن ضعف السلطة المركزية في عصر الأسرة الخامسة ، وبيننا كيف أن ملوك هذه الأسرة أغفلوا قليلاً شئون السياسة وجعلوها تفلت من أيديهم ، وتتجمع في أيدي رؤساء الأقاليم الذين انتهزوا فرصة اشتباك الأسرة السادسة في حروبها الطويلة ، وأخذوا يعملون على جمع السلطة في أيديهم ، بل تمادوا إلى أكثر من هذا ، فجعلوا مناصبهم وراثية ، ثم تركوا العاصمة وانتقلوا إلى ولاياتهم ، وأقاموا فيها لا يبرحونها إلى العاصمة إلا إذا حتم عليهم ذلك . وعندما استتب لهم السلطان حاطوا أنفسهم بحرس خاص وموظفين ، وسموا أنفسهم : « أمراء الأقاليم العظام » بدلاً من حكام الأقاليم . فاضطر ملوك الأسرة السادسة إلى أن يتوددوا إلى هؤلاء الحكام يضيفون أبناءهم في القصور الملكية راغبين في استمالتهم إلى سكنى العاصمة ، لينغمسوا في ملاذها ويتمتعوا بنعيمها ، فيلهيهم ذلك عن التفكير في الجاه والسلطان . ولكن خاب فألهم ، فما أن انقرضت الأسرة السادسة حتى استقل هؤلاء الحكام بأقاليمهم وناوءوا كل ملك اعتلى عرش مصر .

الحالة الفكرية في الدولة القديمة :

يصعب علينا أن نشبه المصري بالأغريق من الناحية الفكرية ؛ فالمصري لم يهتم بالعلوم من ناحيتها العالمية المحضة كما فعل الأغريق بل من ناحيتها العملية وحدها . ومن العلوم التي اهتم بها الفلك والحساب والهندسة والطب والكيمياء . ونخص الطب بالذكر وخصوصاً بعد أن ظهرت ورقة « أدون سمش » البردية التي

تحدثت بأسهاب عن التقسيم التشريحي لكل أعضاء الجسم ، ثم ذكرت الأمراض المختلفة ودواء كل داء ، وحذرت الطبيب أن يصف الدواء قبل أن يشخص الداء . وذكر لنا هيرودت أن الطب في مصر كان متقدماً إلى درجة جعلت لكل نوع من الأمراض طبيباً خاصاً به . وقد عثر الأستاذ «يونكر» في حفائره بمنطقة الجيزة على ما ثبت ذلك ، إذ وجد جثة سيدة ربطت إحدى أسنانها بسلك ذهبي بالسن المجاورة .

أما تفوق المصري في العلوم الرياضية فمعروف لاشك فيه ، وأهرامهم الضخمة ومعابدهم الكبيرة أكبر دليل على ذلك . أما النظم الاجتماعية والكمالات الخلقية التي كان يرنو إليها المصري فقد خلدها لنا «بتاح حوتيب» الذي عاش في عصر الأسرة الخامسة ، ودون نصائح يبين فيها للمصري حقوق الحاكم والتزاماته ، ثم قواعد الحديث والعادات المتبعة في الزيارة وواجب الابن نحو أبيه ، ثم الصداقة وأسسها .

وقد وصل إلينا من عصر الأسرة الخامسة والسادسة مجموعة من النصوص نطلق عليها اسم نصوص الأهرام ، لأنها نقشت على حجرات الدفن في أهرام ملوك هاتين الأسرتين في «سقارة» . وهذه النصوص تتحدث عن الشعائر الدينية التي كانت تقام عند الوفاة وفي أيام الأعياد ؛ ثم تحتوى زيادة على ذلك على آمال وتمنيات الميت في الخلود ، وتشير أيضاً إلى بعض العادات والنظم الاجتماعية ؛ فهي تعد لذلك مجموعة تاريخية سجلت تطور المصري في حياته الاجتماعية وعقائده الدينية في عصر الدولة القديمة .

(٢) عصر الاضمحلال الأول

عاش «بيبي الثاني» قرناً كاملاً وحكم البلاد ٩٤ سنة ، فانتهز أمراء الأقاليم ضعفه لشيخوخته ، وتمادوا في بسط سلطانهم ، وأصبحت مصر مجزأة إلى إمارات صغيرة مستقلة . وبعد موت هذا الملك اعتلى عرش مصر ملوك لا نعرف عنهم شيئاً إلا أسماءهم ، فورد ذكر «مرنرع» و «توكريس» . ثم ذكر «مانيتون»

سبعين ملكاً كل منهم حكم يوماً واحداً ، وأطلق عليهم ملوك الأسرة السابعة . وإذا صح هذا فإن ملوك هذه الأسرة لم يكونوا إلا كبار رجال الأمة المصرية ، أقاموا من أنفسهم مجلساً نشبهه بمجلس الوصاية على العرش في زماننا هذا ، حكم كل منهم يوماً واحداً حتى تستتب الأمور وينتخب الملك على مصر .

وعرف « مانيتون » أيضاً ملوك الأسرة الثامنة ، وقال إن عددهم كان ١٨ ملكاً حكموا ١٤٦ سنة . لكن قائمة (ورقة تورين) ذكرت « سبعة أسماء » لملوك حكم كل منهم سنة واحدة . أما قائمة (أيديوس) فقد أتت ملوك الأسرة السادسة بسبعة عشر اسماً لملوك نرى تشابهاً كبيراً بين أسمائهم وأسماء ملوك الأسرة السادسة .

في عصر الأسرة الثامنة وجد حكام أهناسيا (غرب مدينة بنى سويف الحالية) الفرصة سانحة لبسط نفوذهم على ماجاورهم من المقاطعات آمليين إسقاط ملوك الأسرة الثامنة ، عليهم يتقلدون هم شئون الحكم في البلاد . وانتهى الكفاح بينهم بأن حكموا النصف الجنوبي من مصر في نفس الوقت الذي كان فيه بعض ملوك الأسرة الثامنة يتقلدون مهام الحكم الوهمي في « منفيس » .

وملوك الأسرتين التاسعة والعاشر كانوا من بيت حكام « أهناسيا » ، ولا نعرف من أسمائهم سوى ثلاثة ملوك يحملون اسم خيتي ، ورابع يحمل اسم « مري كارع » . ويظن أنهم توصلوا إلى حكم البلاد ، إذ عثرنا على لوح تذكاري للملك « خيتي » في جنوب مصر ، ولكن هذا الحكم لم يدم لهم طويلاً ، إذ انفصلت عنهم المقاطعات بجوار طيبة ، وانضوت تحت لواء حكام طيبة الذين قاموا بحركة واسعة النطاق ، مناوئين حكم أسرة (أهناسيا) وكونوا أسرة حكمت الجنوب بأجمعه ، وهي الأسرة (الحادية عشرة) . ولذلك يمكننا أن نقول : إنه كما كانت الأسرتان الثامنة والتاسعة تشتركان في الحكم ، اشتركت أيضاً العاشرة والحادية عشرة في الحكم .

الحالة الاجتماعية في مصر في أثناء عصر الإضمحلال الأول :

كان هذا العصر عصر ثورات داخلية أتى على وصفه رجل اسمه «إيبو-فر». وقراءة فقرات مما كتبه هذا الرجل كافية لإعطائنا فكرة عن حالة مصر في ذلك العصر .

« لقد انقلبت الحالة في مصر رأساً على عقب . حقا أن النيل لا يزال يجري ويأتي بفيضانه ، ولكن لا يقدم أى مصرى على حرث أرضه ، بل يقول كل منهم نحن لا ندرى ماذا حدث بمصر ؛ لقد وقعت مصر في الهاوية ، وعم الحزن البلاد وانتشر العويل . وبينما كان الأغنياء يولولون نرى الفقراء قد عمهم الفرح ، ورجالات كل مدينة يقولون : لنقض على رجال السلطة المحلية الآن . ولهم الحق في ذلك ، إذ أن الذهب والفضة تكاثرا حول أعناق الخادmates « العبيد » ، على حين كان نساء البيوتات يهن على وجوههن ، ويقان لم يبق لنا كسرة ناكلها . انظروا ! لقد فسد النظام ، وأصبح الناس كالماشية دون راع لها ؛ الآسيويون قد انتشروا في البلاد ، وأتى الأجانب إلى مصر أفواجا ، وأصبح كل مصرى له ضمير يسير والحزن يملؤه ، لما يحدث في البلاد ، إذ أن الأجنبي أصبح الآن هو ابن البلاد . حقا أن الناس قليلون على الأرض ؛ ولكن في مصر أصبح الأخ يقتل أخاه ، والجميع ينادون : ليتنا كنا أمواتا ، والأطفال يقولون ياليت أمهاتنا لم تلدنا . »

هذه الثورة لم تؤثر في الحالة الاجتماعية وحدها في مصر ، بل تعدتها إلى الحالة الدينية ، إذ أصبح المصرى يرى مثله العليا تصاب أمام ناظره بكل أذى ، ويلحقها الدمار بطرق وحشية ، فالملك أصبح العوبة في أيدي حكام الأقاليم ، وصار أشبه بالسجين في قصره ، وأكثر من هذا رأى المصرى حياته الثانية قد ضاع الأمل فيها ، تلك الحياة التي كان يحيا على الأرض من أجلها ، يعمل ويكد ويجمع المال ، ويعلو بنفسه لكي يسهل لنفسه السبل التي تحفظ الحق له فيها ، وتمكنه من حياة خالدة هائلة . رأى المقابر تسرق والتماثيل تهشم ، والمناظر والنقوش

نمحي ، ورأى أكثر من ذلك أن الجاني لا يعاقب ، فتساءل المصريون أولاً عن معنى الحياة ، وثانياً عن أهمية معتقداتهم الدينية . ولأول مرة في تاريخ مصر صادفنا مثل هذه الأسئلة ، فانقسم المصريون في معتقداتهم قسمين : الأول يفضل المرح والسرور ، ويسعى جهد طاقته أن يقنع بما هو فيه ، يحتقر الدنيا الثانية ولا يثق بها ، أما القسم الثاني فكانوا من الرجال الذين عرفوا الحياة وشعروا بالآزمة ، ولكنهم لم يفقدوا الأمل ، وبقوا على اعتقادهم في الدنيا الثانية ، ومنوا أنفسهم بالسعادة فيها ، وعرفوا أنهم لا ينالون هذه السعادة بما يضعونه في مقابرهم من أثاث فاخر وما كل متنوعة ، بل بما صنعوا في الحياة ؛ فمن عمل صالحاً عاش حياة كلها متعة ، ومن كان مجرمًا ضيعت عليه آثامه التمتع في الحياة الثانية . وأحسن مثل لذلك ما قاله « مري كارع » من الأسرة العاشرة محذراً الناس : « لا تطمئن على حياتك الطويلة على الأرض ، فإن قضاة محكمة العدل سينظرون إلى سنى حياتك كما لو كانت ساعة واحدة . الإنسان سيبقى بعد موته ، وستبقى أعماله بجانبه ، سنجيا حياة الخلود في الدنيا الثانية ، وأحق كل من لا يعتقد في دنيا الخلود . ومن يقدم أمامه (أوزوريس) وقد خلا من السيئات ، أبقاه وجعله يسير كالألهة بحرية » . وبذلك نمت وترعرعت في هذا العصر عقيدة « أوزوريس » ، إله الموتى ، وملك الدنيا الثانية ، ورئيس المحكمة التي تزن حسنات وسيئات كل ميت .

ثالثاً — الدولة الوسطى : الأسرات ١١ — ١٤

١ — الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

الأسرة الحادية عشرة : نشأت هذه الأسرة في طيبة ، وتبادل الحكم أفراد أسرة (أتنف ومتوحوتب) . وكانت مصر في أوائل عصر هذه الأسرة منقسمة ثلاثة أقسام : الدلتا ، وكان يحكمها أجنبي جاءوا إلى مصر من آسيا ؛ ومصر الوسطى حتى أسيوط : يحكمها أفراد أسرة (خيتي) ملوك الأسرة العاشرة ؛ ثم

الجنوب من أسيوط إلى أسوان ، ويحكمه أفراد أسرة (أنتف) .
وقد خلد لنا بعض الآثار الكفاح الطويل الذى قام بين حكام « طيبة »
وحكام « إهناسية » ، ودلتنا هذه الآثار على أن الحرب بقيت سجالا بين
الطرفين طوال حكم أربعة من حكام « طيبة » اسمهم « أنتف » ، وستة اسمهم
« متوحوتب » ، تمكن الثانى منهم أن يسجل لنفسه النصر ، وأخضع الشمال ،
وأرجع مصر إلى وحدتها ، وجعل منها أمة واحدة .

الأسرة الثانية عشرة : قدر لمصر مرة ثانية أن تستعيد مجدها ، وأن ترى
عصر أزهياً خلال حكم هذه الأسرة . وقد سبق أن ذكرنا كيف أن حكام طيبة
« ملوك الأسرة الحادية عشرة » تمكنوا من توحيد مصر بعد أن هزموا حكام
« إهناسية » . ولما كتب لهم النصر ، رجعوا إلى سياستهم القديمة من البطش بحكام
الأقاليم الذين ناوهم . ولكن هذا لم يحدث إلا بمساعدة بعض الحكام الآخرين
الذين أملوا فى رضا الملك إذا ماتم له النصر ، وسار ملوك الأسرة الثانية عشرة
على ذلك المنوال ، وبدموا حكمهم بالإيقاع بين الحكام ، والاستعانة ببعضهم
على بعض . وإذا كان ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يتغوا بنصرهم وإعادة
الاتحاد بين أقاليم مصر ، فإنهم اضطروا فى نفس الوقت إلى ترك بعض
السلطة للحكام الذين ساعدوهم على نيل هذا النصر . وعلى ذلك فالسلطة المطلقة
التي تمتع بها ملوك الدولة القديمة ، لم تكن لملوك الدولة الوسطى ، ولكن هذا
لا يمنع أن يكون العصر الذهبى المتوسط قد بلغ فى أهميته وتقدمه ما بلغه
عصر الدولة القديمة الذهبى ، فالحرب الطويلة والاضطرابات التي شملت مصر
طوال عصر الاضمحلال الأول ، والمحنة التي شعر بها كل مصرى ، ساعدت على
نضج العقل المصرى على وجه الإطلاق . وبينما كانت العاصمة والملك فى عصر
الدولة القديمة هما موضع السلطة ، ومنهما وحدهما تستمد مصر بأجمعها قوتها
ونشاطها وتقدمها فى سبيل المدنية ، إذ قامت إلى جانب العاصمة مراكز أخرى
تهتم بمظاهر الحضارة ، وتعمل على ترقيتها وتنميتها — هذه المراكز هى قصور
حكام الأقاليم .

الأسرة الثانية عشرة :

صادف أمنمحات الأول عقبات كثيرة في أول حكمه، أقامها أمراء الأقاليم الذين ودوا الاستمرار في استقلالهم، والآنفراد بالحكم في إقطاعاتهم، فعمل الملك على التفرقة بينهم، واعترف بحكم من والاه منهم. بعد ذلك أسس عاصمة جديدة لأسرته في نقطة تتوسط مصر، سماها « إيثت تاوى ». ولما استتب له حكم مصر اتجه بفتوحاته إلى بلاد النوبة، فأخضعها وتوغل فيها حتى كورسكو، ثم استغل مناجم سينا ووادي الحمامات .

سن هذا الملك سنة جديدة في حكم البلاد، إذ أشرك ابنه الأكبر في إدارة شئون الدولة مدة حياته؛ وهذه السنة الجديدة سار عليها كل ملوك الأسرة الثانية عشرة تقريباً. ومن الغريب أن هذا الملك الفذ القدير قد قوبل في أواخر حياته بنكران الجميل، فدبر بعض أفراد حاشيته مؤامرة لاغتياله، ولكنه نجا منها .

وتقلد سنوسرت الأول الحكم بعد موت أبيه، وذهب في أول حكمه بجيوشه إلى بلاد الكوش فيما وراء الشلال الثاني، وكانت هذه أول مرة يرافق فيها ملك مصرى حملة حربية. وبعد تغلبه على هذه البلاد ترك حاكماً هناك، وجعل مقره قلعة بناها في بلدة تسمى (قمة)؛ ثم اتجهت أنظاره بعد ذلك إلى الواحات، فنظمها، وبدأ في استغلالها، وعين حكاماً عليها لكي يدافعوا عن حدود مصر الغربية، وشملت هذه العناية أيضاً بلاد الفيوم .

وقد تمتعت مصر طوال حكم أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني بالرخاء والرفاهية، فاستغلت مناجم سينا، واستؤنفت العلاقات التجارية مع بلاد « بنت » حتى ألف أهلها رؤية المصريين، فأخذ هؤلاء يذكرون تلك البلاد في قصصهم، ومن أطرفها قصة (الملاح الغريق)، التي تصف ملاقاه ملاح مصرى من مشاق وصعاب في سبيل وصوله إلى بلاد « بنت » .

ويظهر أن سنوسرت الثالث هو الملك الوحيد الذي لم تسنح له الفرصة بالتدرب على شئون الحكم في عصر أبيه . ومع هذا تمكن من أن يحكم مصر

حكماً عادلاً ، مظهراً من الحنكة والقدرة ما لم يظهره أى ملك من ملوك هذه الأسرة . وكان أول همه ضم بلاد السودان نهائياً إلى مصر ، فحفر ترعة توصل إلى مابعد الشلال الأول ، ليسهل عليه نقل الجيوش اللازمة لفتح هذه المنطقة ؛ وبعد أن تم له هذا الفتح ، أقام لوحاً حجرياً عند أقصى الحدود الجنوبية ، فيما وراء الشلال الثالث ، مبيناً حد المملكة المصرية ، مهدداً كل زنجي يريد أن يتعداها بالقتل ، سواء أكان مسافراً على الأرض أو على النهر ، بمفرده أو مع قطعانه ، مستثنياً كل رجل ينوى التجارة في أرض مصر أو يحمل رسالة إليها ، وأمر رجاله أن يعاملوه بالحسنى . واعتاد هذا الملك أن يقود حملاته التى قام بها في بلاد السودان بنفسه ؛ ويعد في نظر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفاتح الحقيقي والمستعمر الوحيد لبلاد النوبة ، فجعلوا منه إلهاً محلياً لهذه البلاد وعُبد هناك . ولم تعق هذه الحروب في بلاد النوبة « سنوسرت الثالث » عن الاهتمام بسورية فأرسل بعض الحملات إليها . وكما انتصر هذا الملك في حروبه وفق أيضاً في نضاله مع أمراء الأقاليم ، واستطاع التغلب عليهم ، وقضى على ما كان لهم من نفوذ . ويعتبر عصر أمنمحات الثالث عصر سلام ورخاء ؛ فقد اهتم بموارد مصر الطبيعية ، وحاول جهده أن ينميتها ويوسعها . وكان من الطبعي أن يوجه كل عنايته إلى شئون الري ، واشتهر اسمه بعمله العظيم في منطقة الفيوم ، وحسّر المياه عن منطقة تبلغ في اتساعها ما يقرب من عشرين ألف فدان ، ببناء سد ضخيم بلغ طوله أربعين كيلو متراً . وفي الجهة الشمالية من هذا السد شيد قصراً عظيماً تبلغ مساحته ٢٥٠ × ٣٠٠ متر ، جعل منه مسكناً ومعبداً ومقراً للحكومة . وكان بهذا القصر اثنتا عشرة ردهة وثلاثة آلاف حجرة ، خصص بعضها لحكام الأقاليم ، الذين يفدون كل سنة لتقديم الأموال المطلوبة منهم لخزانة الملك . وقد شاهد هذا القصر (استرابون) حوالى عام ٢٤ ق . م ، ورأى فيه أعجوبة من أعاجيب مصر ، واستحق اسم « اللابرنس » قصر التيه ، لأن الزائرين كانوا إذا بادخلوه صعب عليهم الخروج منه (وتاهوا) في ردهاته وحجراته المتعددة . وقد ورث أمنمحات الرابع أمة غنية وكنوزاً لا عداد لها وشعباً يحب السلام ،

فلم يقابله من الصعوبات ما يشحذ عزيمته، قهائون وترك الأمور تجري في أعنتها، فضعف شأنه. ولما مات هذا الملك دون أن يترك ولى عهد ورثته «سبك نفروع»، فضعفت الملكية ضعفاً أدى إلى انتهاء العصر الذهبي للأسرة الثانية عشرة الذي دام ما يقرب من قرنين.

أسباب سقوط الأسرة الثانية عشرة :

تختلف الأسباب التي دعت إلى اضمحلال الدولة الوسطى عن تلك التي أدت إلى سقوط الدولة القديمة. لقد عرفنا كيف انتزع حكام الأقاليم في عصر الأسرة السادسة السلطة من ملوك مصر. واستقلوا تدريجياً بالسلطة المحلية، وأصبحوا يتصلون بالملك في عاصمته بخيوط وهمية لا تتعدى العلاقات الرسمية بين ملك البلاد وملوك آخرين كل منهم استقل بمقاطعته.

لم يظهر هذا الخطر في عصر الدولة الوسطى، وخصوصاً بعد أن تمكن الملك (سنوسرت الثالث) من القضاء على هذه الفئة قضاء تاماً، وإنما أتى الخطر من ناحية أخرى؛ فقد اعتمد ملوك الأسرة الثانية عشرة على الموظفين الذين عينوا لمنافسة حكام الأقاليم في سلطتهم، ونجحت هذه السياسة، وقضى هؤلاء الموظفون على كل ما كان من سلطة لحكام الأقاليم. ومن ناحية أخرى اعتمد الملوك في حكمهم على الجيوش القائمة، وكانت هذه الجيوش غير معروفة من قبل، وكان الملوك كلما دعت الحال (كحدوث غارة على مصر أو إرسال بعث إلى الحدود أو إلى الخارج) يجمعون الناس ويدربونهم بسرعة على النظام، ويكوّنون منهم فرقاً لا تلبث أن تسرح إذا ما انتهوا من المهمة التي جمعوا من أجلها.

فعصر الدولة الوسطى إذن هو أول عصر بقيت فيه فرق الجيش قائمة في أيام السلم. والسبب الذي حدا بالملوك إلى ذلك هو النزاع الدائم بينهم وبين حكام الأقاليم، واعتماد هؤلاء على فرقهم الخاصة، وتفنيهم في تدريبهم والعناية بهم. وبذلك تكون في مصر في أواخر عصر الأسرة الثانية عشرة حزبان كبيران لهما خطرهما: حزب الموظفين، وحزب الجيش؛ وعند ما اعتلى عرش مصر

« امنمحات الرابع » و « سبك نفرو رع » ، وكان كلاهما ضعيفا لم يعرف كيف يسيطر على كل من الحزبين ، أو يمنع تصادم هاتين القوتين ، سقطت الأسرة الثانية عشرة .

ويظهر أن ملوك الأسرة الثالثة عشرة كانوا من هاتين الفئتين ، كل فئة تناضل قدر جهدها ، ليكون ملك مصر من بينها ، حتى إذا نجحت تصدت لها الفئة الأخرى ، وناوأت الملك حتى تسقطه وتعين ملكا آخر من بينها . وهذا هو السبب في تعدد ملوك الأسرة الثالثة عشرة (حتى بلغ عددهم ستين ملكا) ، وفي اختلاف أسمائهم ، بل وفي ظهور لقب جديد (رئيس الجيش) أضافه بعض ملوك هذه الأسرة على ألقابه الملكية .

ومن العبث حقاً سرد أسماء ملوك هذه الأسرة ، فهم على كثرتهم لم يخلدوا في تاريخ مصر أى أثر ، ولم يساهموا مطلقاً في رقيها ؛ بل بالعكس أسدلوا ستاراً كشيفاً من الظلام على عصرهم ، وسهلوا للأعداء أن يجدوا في مصر لقمة سائغة ، فدخلها الهكسوس ، وأقاموا دولة عمرت فيها أكثر من قرن ونصف .

(٣) عصر الاضمحلال الثانى وقيام دولة الهكسوس

الهكسوس :

بعد أن انحلت الأسرة الثالثة عشرة واختفت أحزابها المتنازعة ، انقسمت مصر ثلاثة أقسام : قسم حكمه ملوك اصطالحنا على تسميتهم « ملوك الأسرة الرابعة عشرة » ، استقلوا بغرب الدلتا مع جزء من وسطها ، وذكرت لهم ورقة تورينو ما يقرب من واحد وعشرين اسماً . وقد هاجم مصر في عصرهم الهكسوس وأقاموا دولتهم التي امتدت على شرق الدلتا ، ثم على مصر الوسطى حتى أسيوط . أما مصر العليا فكانت تحت إمرة حكام مدينة « طيبة » ، الذين يرجع إليهم الفضل في طرد الهكسوس وتأسيس الدولة الحديثة ، كما سنرى فيما بعد .

ودولة الهكسوس تشمل الأسرات : الخامسة عشرة ، والسادسة عشرة ، ثم السابعة عشرة في الشمال . أما في الجنوب فتكونت أسرة من حكام طيبة نطلق عليها أيضاً الأسرة السابعة عشرة .

ولانزاع في أن الهكسوس من أصل سامي ، أو قل إنهم من البدو الذين سكنوا فلسطين ؛ ويظهر من أسمائهم التي وصلت إلينا مثل يعقوب ، وعبد ، ونحمن ، أنهم كانوا من أصل يمت بصلة كبيرة إلى العبرانيين .

لقد اختلفت الآراء في تاريخ الهكسوس في مصر ، ويحدثنا (مانيتون) عن هذا العصر محددًا له ٩٢٩ سنة . وبما لانزاع فيه أنه قد غالى في تقدير مدة هذا العصر كل المغالاة ، واتفق العلماء أخيراً على أن الهكسوس دخلوا مصر عام ١٧١٠ ق . م . وأسسوا عاصمتهم أواريس (صان الحجر) وأقاموا فيها معبداً للإله (ست) عام ١٦٨٠ ق . م ، ثم طردوا نهائياً من مصر عام ١٥٨٠ ق . م ، وبذلك يكونون قد مكثوا في مصر ما يقرب من قرن ونصف .

آثار الهكسوس في مصر :

بلغت الأسماء التي وردت على آثار خلفها لنا ملوك الهكسوس في مصر ٢٣ اسماً ، وبما يؤسف له أن هذه الأسماء وردت متفرقة ، بحيث يصعب ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وكيف يمكننا ذلك وأهم هذه الآثار ليست إلا جعارين حاول بعض الأثريين ترتيبها ترتيباً تاريخياً ، ولكنه أخفق في ذلك كل الإخفاق ؟ وأهم الملوك الذين تركوا لنا آثاراً من هذا العصر ، هو الملك « خيان » الذي خلف آثاراً لم نعثر عليها في مصر وحدها ، بل في كل البلاد المجاورة مثل فلسطين ، وسورية ، والعراق ، وجزيرة « كريت » ، بل في بلاد ما بين النهرين أيضاً ، وأراد البعض أن يتخذ من هذا الانتشار دليلاً على دولة أسسها الهكسوس ، تمتد من بلاد ما بين النهرين شمالاً إلى « جزيرة كريت » في الغرب ، وتضم سورية وفلسطين ومصر . ولكن ظهور هذه الآثار في سورية وفلسطين لا يدل إلا على العلاقة الجنسية بين الهكسوس في مصر وموطنهم الأول ؛ أما ظهورها في بلاد ما بين النهرين فكان عن طريق التجارة ليس غير . وكل ما عثرنا عليه هناك لا يتعدى تمثالاً لأسد رابض حفر عليه اسم الملك « خيان » ، ويغلب على الظن أنه وصل إلى هناك عن طريق أحد تجار العاديات ، ثم اشتراه المتحف البريطاني .

وإذا دققنا النظر وجدنا أن كل الآثار التي خلفها لنا الهكسوس في مصر وغيرها مصرية الصنع والطابع، مع أنه لو صحت النظرية القائلة بوجود دولة مترامية الأطراف للهكسوس لتوقعنا أن نرى في مصر فناً آخر تأثر بالفن الآشوري، أو البابلي مثلاً، أو لتوقعنا أن نرى الفن المصري قد أثر في أحد هذين الفنين، ولتوقعنا أن نعثر على آثار أعظم قيمة وأكبر حجماً مما وجدناه لهم في مصر. والآثار التي وجدناها تدلنا دلالة واضحة على ضعف ملوك الهكسوس ضعفاً أنساهم موطنهم وعاداتهم الأولى، فاندمجوا في الحضارة المصرية، وحذوا حذو المصريين في كل شيء، فلقبوا أنفسهم بالقاب مصرية، وعبدوا إلهاً مصرياً، أقاموا له معبداً على الطريقة المصرية.

وقد هيأت الظروف القاسية لشعب الهكسوس أن يدخل مصر، تلك الظروف القاسية التي تحل بمصر كلما اكتمل لها عصر ذهبي، فلا تكاد تنهأ بهذا العصر وتسعى نحو التقدم والتحضر حتى يدهمها الانشقاق والاضطراب قهوى. في هذه المرة دخل الهكسوس أرض مصر غازين متعسفين، هدموا معابدها، واستعبدوا المصري وأهانوه كل الإهانة، فذاق المصريون الأمرين من الغزاة. ولكنهم مالبثوا أن حطموا قيود التعسف، وثاروا في وجه الطغاة ثورة موفقة. وعلى ذلك كان حكم الهكسوس في مصر هو العامل القوي الذي جعل من الشعب المصري لأول مرة في تاريخه شعباً محارباً مستتبسلاً، طلب الحرية فنالها، ثم عرف طعم الحرب، وتذوق معنى الانتصار، فخرج من مصر يطلب الغزو، والحرب، فمالبثت كل البلاد المجاورة له أن خضعت لسلطانه، فنشأت الإمبراطورية المصرية الأولى التي أقامها بطل مصر الفذ «تحتمس الثالث». وهناك شيء آخر جنته مصر من حكم الهكسوس، هو تعرفهم على العرب والحصان؛ فالهكسوس كانوا أول من استعملهما في مصر، واستعانوا بهما على حكم المصريين، الذين مالبثوا أن تعلموا منهم هذه الحرفة الجديدة وأجادوها، ثم استغلوها في تحرير بلادهم، وفي بسط سلطانهم على الأمم المجاورة.

طرد الهكسوس من مصر :

تحدثنا فيما سبق عن إمارة طيبة التي حكمت الجنوب تارة مستقلة وتارة تحت نفوذ الهكسوس . وهناك ورقة من البردي كتبت في عصر الأسرة التاسعة عشرة ، تحدثنا عن استفزاز الهكسوس لأمراء طيبة . وتقول هذه الورقة إن ملك الهكسوس المدعو « أبو فيس » أرسل رسلا إلى « سكنن رع » أمير طيبة يحذره من عاقبة صياح أفراس البحر التي تقطن مياه طيبة ، والتي تزعج ملك الهكسوس في عاصمته « أو اريس » ، وتمنع جلالته من النوم ليلا ونهاراً . ونكاد نعتقد أن الحرب بدأت في عصر «سكنن رع» هذا ، ثم استمرت في عصر أخيه المدعو «سكنن رع» أيضاً . وقد عثرنا على جثته المحنطة ، وفي الرأس آثار جرح عميق سبب موته ، وبذلك يكون هذا الأمير قد لقي حتفه في كفاحه الهكسوس . وتولى إمارة طيبة ابن الأخير واسمه « كاموزه » ، الذي حاول جهده إضرام نار الثورة بين مواطنيه ورجال بلاطه الذين رغبوا في أول الأمر عن الحرب ، قانعين بما هم فيه . ولا ندرى إلى أى حد وصل « كاموزه » في محاربة الهكسوس ، ولكننا نعرف تماما أنه كان ملكا لم يستسلم لخنوع قواده ورجاله ، بل واصل الجهاد وأتم رسالة أبيه . ومن بعده أتى « أحموزه » الذي نجح تماما في طرد الهكسوس ، وطاردهم إلى فلسطين .

هؤلاء كانوا ملوك الأسرة السابعة عشرة ، ونستثنى منهم « أحموزه » الذي يعتبر بحق مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، إذ بدأ عصرا جديدا . ووضع أول حجر في بناء الإمبراطورية المصرية الأولى .

رابعاً — الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة :

تابع أحسن الأول محاربة الهكسوس حتى أجلاهم عن مصر وخلصها من تعسفهم . ولم تصل إلينا نصوص تبين لنا كيف بدأت هذه الحرب ، وكل ما نعرفه هو كيف انتهت . وقد حدثنا بذلك قائد كبير اسمه أحسن بن أبانا ، وخلصنا

تاريخ المعارك النهائية على جدران مقبرته، فوصف لنا كيف طرد أحس الأول الهكسوس من عاصمتهم «أواريس»، ثم تتبعهم متخطياً حدود مصر الشرقية إلى «شاروهين» في جنوب فلسطين، وحاصرهم هناك ثلاث سنوات متتالية. وبعد انتصاره رجع إلى مصر، ووجه همه إلى بلاد النوبة، وتمكن بعد مدة قصيرة من أن يسترجع كل المناطق التي حكمها مصر في عصر الدولة الوسطى. من ذلك نرى كيف أصبحت مصر للمرة الثالثة أمة متحدة، يمتد سلطانها على بلاد النوبة حتى الشلال الثالث، وعلى فلسطين.

اختلفت مهمة أحس الأول في تنظيم الحكومة المصرية وإداراتها الداخلية عن مهمة أمنمحات الأول (أول ملوك الأسرة الثانية عشرة)؛ فبينما تولى الأخير عرش مصر واضطر — لكي يحتفظ بهذا العرش — أن يواجه حكماً أقوياء يتنازعون السلطة، لم يجد الملك أحس بدا من تكوين حكومة من حكام ضعاف (عاشوا ما يقرب من قرن ونصف تحت النير الأجنبي)، وصبغ حكمه بالصبغة العسكرية. وقد تعلم الشعب طرق الكفاح المختلفة بعد أن تدرب على الحرب في الغزوات الكثيرة التي قام بها الملك أحس.

بدأ أمنحوتب الأول (ابن أحس الأول) حياته بأن أسرع إلى بلاد النوبة، وأخذ ثورة قام بها شعب الكوش. وبعد أن أزال الخطر عن حدود مصر الجنوبية وجه همه إلى غزو الشام. ومن دواعي الأسف أنه لم تصل إلينا أخبار عن غزواته في آسيا؛ ولكن يظهر أن الجيوش المصرية وصلت وقتئذ إلى نهر الفرات. ونستدل على ذلك بما قاله الملك تحتمس الأول الذي خلفه مفتخراً في السنة الثانية من حكمه بأن مملكته قد امتدت إلى نهر الفرات، مع أنه لم يكن قد قام فيها بعد بأي حركة حربية.

لم يجر في عروق تحتمس الأول الدم الفرعوني، ولكنه توصل إلى العرش بزواجه من أرملة أمنحوتب الأول. ولم يكن النصف الجنوبي من السودان المصري هادئاً، واضطر الملك إلى إرسال حملة للضرب على أيدي الثائرين. وبعد أن استقرت الأحوال هناك عين هذا الملك حاكماً على هذه المنطقة

أشبهه بمندوب سام ، يلقب بالمصرية القديمة لقبا معناه « ابن الملك المعين على كوش » ، مع أنه في الحقيقة لا يمت للبيت المالك بصلة القرابة . ونستدل على حروبه التي قام بها في آسيا من نص لضابط يدعى أحس بن نخت ، الذي قال إنه وصل مع الملك إلى منحى نهر الفرات ، وأن الملك شيد هناك لوحا حجريا ذكر فيه أن ذلك المكان هو الحد الأقصى لممتلكات مصر الآسيوية . ولما شعر تحتمس الأول بضعفه وعدم قدرته على تحمل أعباء الحكم ، نزل لابنه تحتمس الثانى عن العرش ، وزوجه من ابنته الشرعية « حتشبسوت » ، ولكن تحتمس الثانى كان شابا مريضاً ضعيفاً مات بعد مدة وجيزة ، إذ كان أبوه تحتمس الأول لا يزال على قيد الحياة . هنا انقسم المصريون إلى حزبين كبيرين : حزب يطلب تولية « حتشبسوت » ، الابنة الشرعية ، على عرش مصر ، والحزب الآخر يطلب تولية تحتمس الثالث بن تحتمس الأول من حظيته « إيزيس » . وكان الملك يميل إلى أن يخلفه رجل على العرش ، فاختر تحتمس الثالث ، وتزوج من أخته حتشبسوت . وما أن توفي تحتمس الأول حتى انتهز حزب حتشبسوت الفرصة وأدخلوا في عقول الشعب رضى تحتمس الأول عن تولية ابنته الشرعية حتشبسوت ملكة على مصر . وكان هذا الحزب من القوة بحيث استطاع شل يد تحتمس الثالث ، إما باقناعه أو اضطارره ، وظل منزويا مهملًا يقوم بوظيفة الأمير الزوج حتى وفاة حتشبسوت ، وعندئذ انفرد بالحكم ، فكان أقدر من تولى حكم مصر في عصر الدولة الحديثة .

أرادت الملكة حتشبسوت أن تمثل دور الفرعون الحقيقى ، فتخلت عن ألقاب الملكات ، وأخذت كل ألقاب الملك المصرى ، وتزيت بزى الرجال . وقد وجهت كل جهدها فى إقامة معبدها المدرج ، الذى لا يزال قائماً فى الجهة الغربية من الأقصر ، ويطلق عليه اسم الدير البحرى ، ورسمت على جدرانها مناظر البعثة البحرية المكونة من خمسين سفينة أرسلتها إلى بلاد الصومال ، ويمتاز عصرها باستتباب الأمن والسلام فى الداخل والخارج . واستغلت هذه الملكة كل موارد مصر الطبيعية استغلالاً سهلاً عليها تنفيذ مشروعاتها السلبية . وماتت حتشبسوت بعد

أن حكمت ٢١ سنة ، وتعد من أعظم الملكات اللواتي يعرفهن التاريخ . ومما يؤسف له أن تحتمس الثالث قد خرب أكثر آثارها انتقاما منها لنفسه .
لم يكد تحتمس الثالث يتخلص من حتشبوسوت حتى قام بتنفيذ آماله الواسعة التي انتهت بتدعيم أسس الإمبراطورية المصرية الأولى ، التي امتدت من الفرات شمالا إلى الشلال الرابع جنوبا . وقام بسلسلة من الغزوات بلغت سبع عشرة غزوة ، إلى البلاد السورية . ويلقب كبار المؤرخين تحتمس الثالث بنابليون مصر القديمة . والواقع أنه لم يكن بطلا حريا فحسب ، بل كان مع ذلك إداريا حازما ، ومنظما عظيما ، ومشيدا لأنخم المباني . وكان عهده ممتازا في تاريخ مصر ، بل قل في تاريخ الشرق الأدنى بأجمعه ؛ فهو أول فرعون تطاحت معه الممالك العظيمة المختلفة ، التي تألف منها العالم القديم إذذاك ؛ وبدأت هذه الممالك تخرج عن حدودها ، ويختلط بعضها ببعض ، وتتبادل المنافع فيما بينها في كل مرافق الحياة . يضاف إلى كل هذا أنه سن سنة جديدة في استمالة الشعوب المستعمرة ، بأن أخذ أولاد أمرائها وحكامها وأدخلهم في مدارس طيبة ، ليتعلموا الحضارة المصرية ، حتى إذا شبوا خلفوا آباءهم في حكم هذه الشعوب . وقد ساعد تحتمس الثالث بذلك على نشر لواء الحضارة المصرية في ربوع تلك البلاد .

يمكننا أن نفهم مما سبق مقدار سلطان تحتمس الثالث وبطشه في البلاد التي سيطر عليها في خارج مصر . ولما توفي انبعث في قلوب الأمراء الأجانب شيء من الراحة والأمل ، وتطلعوا إلى التخلص من الحكم المصري ؛ ولكن أمنحوتب الثاني برهن أمام هؤلاء على أنه ابن تحتمس الثالث ، فإنه لم تمض بضعة أشهر على توليه عرش مصر حتى ظهر بجيوشه في آسيا ، وثبت السيادة المصرية هناك . ويظهر أنه لم يعد بجيوشه مرة أخرى إلى ممتلكاته الشمالية ، إذ كان الدرس الذي عليهم إياه نافعا ، وأصبح في مقدوره أن يخصص ما بقي من حكمه في تنظيم أحوال بلاده الداخلية والعناية بشئون مستعمراته في بلاد النوبة . من المحتمل أن تحتمس الرابع لم يكن الوارث الحقيقي للعرش ؛ ويظهر أنه تولاه عن طريق وحي إلهي ، وساعده على ذلك الكهنة الذين دونوا على لوح

حجرى كبير لا يزال مقاما عند صدر أبى الهول ، أنه لما انتهى من الصيد فى يوم ما (وكان لا يزال أميراً) أخذته غفوة فى ظل تمثال أبى الهول العظيم ، فأتاه هذا فى الحلم ، وبشره باحتلاء العرش إذا ما قام بإزالة الرمال عنه ؛ فنفذ تحتمس إرادة المعبود بعد اعتلائه العرش . وكان تحتمس الرابع أول فرعون أقام سياسة المعاهدات والتحالف ، فعقد معاهدة صداقة مع بلاد الميتانى ضد دولة الحيثيين التى كانت تزداد قوة وتهدد حدود المستعمرات المصرية . ويمتاز عصر هذا الملك بابتداء التزاوج بين ملوك مصر والأميرات الأجنبية ، فتزوج هو من (موت . أم . أويا) ابنة (ارتاتاما) ملك ميتانى وأنجب منها ابنه أمنوفيس الثالث الذى خلفه على العرش . وبعد أن وطد علاقته مع ملك ميتانى شرع فى الاتفاق مع ملك بابل وأفلح فى ذلك أيضاً .

أمنحوتب الثالث : وكانت سياسة هذا الملك تقوم على السلم ونشر التجارة والاعتناء بالأمور الاقتصادية . ولكى ينظم التبادل التجارى بين مصر والأمم الأخرى كون فرقاً خاصة تحافظ على الطرق التجارية وتحرسها ، ثم وضع ضرائب على البضائع الواردة إلى مصر ، فزاد فى إيرادات الحكومة ، وحافظ على الصناعات الوطنية من منافسة البضائع الأجنبية .

وفى عهد أمنحوتب الثالث تسابقت الأمم فى اكتساب محبة مصر ؛ ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى عام فى تاريخ الممالك القديمة ، وصار قصر فرعون مركزاً للتخاطب مع كبار حكام هذا العصر ، والدليل على ذلك « خطابات تل العمارنة » التى تبودلت بين حكام الأمم المجاورة وفرعون مصر

وقد ساعد استتباب الأمن فى مصر والبلاد الخاضعة لها على تكديس الأموال فى خزائن الدولة ، واستغلال هذه الأموال فى ترقية شئون الشعب المصرى ، وتشجيع الفنون المختلفة وبخاصة العمارة والزخرفة . وإن مبانيه التى خلفها لنا فى معبد الأقصر لا كبر دليل على ذلك . وقد وصل هذا المعبد بمعبد الكرنك بطريق فسيح أقيمت على جانبيه تماثيل حجرية ضخمة ، تمثل الإله « خنوم » (على صورة الكباش) . ومن آثاره الضخمة « تماثلاً بمنون »

اللذان أقامهما أمام مدخل قصره العظيم في طيبة . وقد اندثر هذا القصر ولم يبق منه عين ولا أثر .

أمنحوتب الرابع (أخناتون) : كان هدوء الحالة واستتباب الأمن في عصر والده ، مما جعل ملوك الأمم المتاخمة لمصر يتطلعون إلى التخلص من الحكم المصري . وفي أواخر حكم أمنحوتب الثالث قام هؤلاء الملوك فعلا بثورات عدة ، ساعدتهم عليها ملك الحيثيين . وكان حقا على أمنحوتب الرابع عند توليه العرش أن يسارع إلى الضرب على أيدي هؤلاء الثوار لإعادة الهيبة المصرية إلى قلوبهم ، ولكنه كان شاباً مغرمًا بالمناقشات الفلسفية الدينية أكثر من الأمور الحربية السياسية .

لم يرق نظر أمنحوتب الرابع تعدد الآلهة في الديانة المصرية ، ورأى أنهم ليسوا إلا قوى مختلفة لإله واحد سماه بالإله « أتون » ، رمز له بقرص الشمس منبعثة منه الأشعة ، منتهية بأيدي بشرية . فكان هذا الملك أول من نادى في مصر بفكرة توحيد الآلهة .

ويرى بعضهم في ثورة إخناتون الدينية سياسة حكيمة من الملك ، سار عليها للتخفيف من تدخل رجال الدين في الشؤون الإدارية والسياسية ، ونخص بالذكر كهنة آمون الذين جمعوا في أيديهم كل السلطة الدينية والمدنية ، وكسوا الأموال في خزائن معابدهم ، فأصبحوا بذلك خطراً على نفوذ الملك . وبذلك أصبح هذا الملك أول من ألقى القفاز في وجه الكهنة .

وبعد أن قام الملك بتوحيد الآلهة ، وجعل الإله أتون هو إله الدولة الواحد ، غير اسمه إلى « إخناتون » ، ونقل عاصمته إلى تل العمارنة ، لكي يهيئ بيئة جديدة يمكن أن تنمو فيها بذور دينه الجديد وترعرع ، وشن الملك الحرب على كهنة آمون ، ومحا اسم الآلهة من كل الآثار المصرية .

وصحبت ثورة إخناتون الدينية ثورة أخرى في الفن تكسرت بها قيود الفن القديمة ، وأصبح الفنان يرى الأشياء ويصورها كما هي ، لا كما يرغب رجال الدين .

نهاية الأسرة الثامنة عشرة :

لم يخلف أخناتون ابناً يتولى العرش من بعده ، فتبوأ « سمنخ كارع » زوج أبنته العرش ، وأمضى مدة حكمه القصير فى تل العمارنة ، ولم نعث له على آثار مهمة . ثم خلفه صهر ثان لإخناتون ، وهو « توت عنخ آمون » الذى اتخذ سياسة حكيمة ، بأن رجع إلى عبادة آمون حتى يستميل إليه الشعب المصرى ، ورجع الملك إلى طيبة ، وأعاد حفر اسم آمون على آثاره القديمة ، وأطلق على نفسه « توت عنخ آمون » . وقد اكتشفت مقبرة هذا الملك عام ١٩٢٢ حاوية لآثار الملك الكامل ، الذى يمثل التقدم الإخناتونى العظيم فى أمور المعيشة والفنون الجميلة .

ثم اعتلى عرش مصر زوج مربية إخناتون المسمى « آى » ، الذى كان وزيراً لتوت عنخ آمون ، وحكم مدة قصيرة . وبموته انتهت الأسرة الثامنة عشرة .

الأسرة التاسعة عشرة :

فى عهد الملك « آى » ، أخذ اختلال النظام فى البلاد يعظم خطره ، وانتهى إلى فوضى شاملة ، كادت تؤدى إلى ظهور عصر اضطلال ثالث لولا ظهور « حور محب » ، الذى أفلىح فى إعادة النظام إلى البلاد بعد أن زلزلت أسسه منذ موت أمنتب الثالث .

وكان حور محب هذا قائداً للجيش ، لا يمت بأية صلة إلى البيت المالئ ، ويحتمل أنه كان وصياً على البلاد فى عهد الملك توت عنخ آمون .

لم يكن حور محب قائداً عظيماً فحسب ، بل كان أيضاً كاهناً مخلصاً لعبادة آمون فأعاد إلى آلهة طيبة كل ممتلكاتها ، وأرسل خيرة رجال الفن - وبخاصة المثالين - لإصلاح ما تهدم من معابد آمون وإعادة اسم الإله على آثارها من جديد . ثم أخذ يعيد النظام فى المرافق المصرية المختلفة . ولم تكن هذه الخطوة سهلة ، لشدة الانحطاط الذى وقعت فيه الإدارة المحلية بسبب ضعف ملوك مصر ، وتغيير

ديانتها ؛ فرأى بثاقب فكره البدء بإصلاح الشؤون المالية ، ومنع الظلم الذى حاق بالأهالى على أيدي كبار الموظفين ، ثم رأى جمع الضرائب من كل أفراد الشعب المصرى أيا كان مركزهم ، بطريقة عادلة توافق الجميع . أما من جهة السياسة الخارجية فقد اضطر لتركها وعدم العناية بها . وكانت نفسه تطمح بلا نزاع إلى الفتح ، ولكنه فقد الرجاء فى إصلاح تلك المستعمرات الخارجية مادامت شؤون مصر الداخلية سيئة كما أسلفنا . أما فى الجنوب فقد أرسل حملة تأديبية لقمع ثورة قام بها بعض القبائل المناوئة ، ثم أرسل بعثا إلى بلاد الصومال لجلب حاصلاتها النفيسة .

وخلفه رمسيس الأول الذى كان رجلا مسنا عند ماتولى العرش . ولم يتم إلى أسرة « حورمحب » ، بل يظهر أن الأخير اختاره لأنه مثله رجل عسكرى فى استطاعته أن يتم رسالته . وفى السنة الثانية من حكمه أشرك معه ابنه « سبتى » فى حكم البلاد ، ومات بعد ذلك بمدة وجيزة .

بدأ سبتى الأول عصره بحملة سريعة حاسمة فى آسيا ، أسفرت عن بسط سلطانه على كل فلسطين الجنوبية ، ثم ذهب مرة ثانية إلى شمال فلسطين ، وتلاقت جيوشه للمرة الأولى مع الجيوش الحيثية فى وادى نهر العاصى . ويظهر أن الحرب كانت سجالا بينهما ، إذ اضطر « سبتى » إلى عقد محالفة مع ملك الحيثيين ؛ وبعد أن حصن حدود بلاده فى الدلتا من غارات الليبيين ، خصص « سبتى » مابقى من سنى حكمه لإصلاح معابد آمون والآلهة الأخرى التى خربتها ثورة إخناتون الدينية . وكذلك أقام مباني جديدة فى الكرنك ومنف ، وعين شمس والدلتا . على أن هذه المباني كانت تتطلب المال الوفير ، فاتجه همه إلى استخراج الذهب من مناجمه بالصحراء الشرقية .

مات سبتى الأول بعد أن حكم البلاد أكثر من عشرين عاما وخلفه أصغر أولاده رمسيس الثانى ؛ وبحكم هذا الملك يبدأ عصر جديد هو عصر الأمبراطورية المصرية الثانية . بدأ حياته بإصلاح شؤون البلاد الداخلية ، والقضاء على المشاغل

الدينية ، واستغلال المناجم ، ثم وجه همه إلى إشباع مطامعه خارج الحدود المصرية ، وبخاصة آسيا ، وكان في ذلك الوقت قد استولى ملك الحيثيين على قلعة قادش بعد إبرامه معاهدة الصلح مع سیتی الأول ، فحث في عهده ، وجمع صغار الأمراء حوله ، وجند من إماراتهم الجيوش الجرارة ، التي لم ينازل المصريون مثلهم في ساحة القتال طوال مدة تاريخهم . وخلد رمسيس الثاني اشتباكه مع هذه الجيوش في حملته الأولى في قصيدة تسمى باسم كاتبها « بنتاؤر » ، عدد فيها رمسيس ما قام به من أنواع الفروسية والبطولة ، وكيف أنه كاد يقضى عليه لولا ما أوتي به من رباطة الجأش وقوة العزيمة ، ولولا ما قام به الإله أمون من مساعدة كبيرة له في محنته . ولم تكن هذه المعركة فاصلة بين العاهلين ، إذ اضطر رمسيس الثاني للاشتباك مرات أخرى مع ملك الحيثيين ، وانهى الأمر بعقد محالفة دفاعية هجومية بينهما ، أهم شروطها :

(أولا) أن ينزل كل من الطرفين نزولا تاما عن القيام بأى عمل حربى يقصد منه الفتح .

(ثانيا) الموافقة على المعاهدات التى عقدت بين البلدين فيما سبق .

(ثالثا) الموافقة على معاهدة دفاعية لصد كل عدو يعتدى على إحدى الدولتين .

(رابعا) تسليم الهاربين والمجرمين والمهاجرين من كلتا الدولتين إلى الأخرى .

ووطدت أركان هذه الصداقة عند ما تزوج رمسيس الثانى من كبرى بنات ملك الحيثيين ، وذلك بعد مضى ثلاث عشرة سنة من إمضاء هذه المعاهدة . وهكذا انتهت أعمال مصر الحربية في سورية التى بدأ بها منذ ثلاثة قرون الملك أحس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة .

وكان من نتائج الحروب الآسيوية في عهد رمسيس الثانى أن انتقلت عاصمة الملك من طيبة إلى الدلتا (بر رمسيس — تانيس — صان الحجر) ، وازدهرت التجارة في هذه المنطقة ، وأصبحت تحوى مراكز للحضارة والفن تعادل مراكز مصر العليا . ومع المميزات الكثيرة التى امتاز بها رمسيس الثانى ، فإنه لم يخل

من نقائص، منها إعجابه الشديد بنفسه، وعدم معرفته حداً لشهواته، واستيلاؤه على كل ماشيده أجداده من معابد وتماثيل، نقش عليها اسمه ونسبها إلى نفسه. وكان مزواجا اقترن بأكثر من مائة امرأة، أنجب منهن أكثر من مائة وخمسين ولداً.

خلفاؤه: تولى العرش بعد رمسيس الثانى ابنه «سيتى منفتاح». ولم يقم هذا بفتوحات بعيدة. وقد كانت مصر فى حالة تلزم عاقلها أن يحارب فى كل وقت. ليحافظ على حدودها الممتدة إلى الشمال، والمتاخمة لحدود ملك الحيثيين، الذى رأى فى قوته ما يسمح له أن يطالب بمستعمرات مصر. وفى السنة الخامسة من حكمه قامت حروب بينه وبين الليبيين وشعوب البحر الأبيض المتوسط انتهت بانتصار المصريين.

وهناك لوح حجرى محفوظ فى المتحف المصرى يعرف «بلوح إسرائيل». ذكر عليه لأول مرة اسم «إسرائيل»، وهى قبيلة انتصر عليها «منفتاح». ولذلك يحتمل أن يكون هو الفرعون الذى طرد اليهود من مصر مع موسى عليه السلام، غير أن هذا الأمر يشك فيه إذا ما علمنا أن جثته وجدت فى طيبة وذلك يخالف ما جاء فى التوراة وما نعتقد به فى البحر الأحمر.

وبعد موت منفتاح حدث نزاع داخلى على العرش دام عدة سنوات توالى فيها على عرش مصر ملوك صغار لم يذكر التاريخ إلا أسماءهم، وهم: أمن مسس، منفتاح، سابتاح، سيتى. وقد بلغت الحالة حداً من الاضطراب سهل على أحد السوريين فى القصر أن يتولى العرش. وفى هذه الآونة ظهر بين المصريين رجل قوى الشكيمة مجهول الأصل يدعى «سيتى نخت»، أعاد وحدة البلاد، وقضى على المطالبين بالعرش، ولكن لم تدم مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر استطاع فى خلالها أن يعد ابنه «رمسيس الثالث» ليتولى العرش من بعده..

٣ — الأسرة العشرون :

رمسيس الثالث وخلفاؤه: بدأ حكمه وهو فى شرح شبابه مملوءاً نشاطاً وقوة.. وأحرز نصراً مبيناً فى أول أيام حكمه على قبائل الليبيين وشعوب البحر الأبيض.

المتوسط مجتمعين . ولما حلت بهم هذه الهزيمة وجهوا أنظارهم إلى آسيا ، وهناك ضربوا دولة الحيثيين ضربة قاضية ، فكان ذلك من مصلحة رمسيس الثالث ، الذى انتهز الفرصة وأعد لنفسه العدة برا وبحرا ، وأجهز عليهم ، واسترد من أيديهم أكثر مستعمرات مصر فى آسيا .

ولم يكن عهده مكللا بالفخار فى خارج بلاده فحسب ، بل كانت البلاد فى داخلها تنعم برخاء لا بأس به . ثم أخذ الملك يشيد المباني الشاهقة للآلهة المصرية ، ويحبس على المعابد والكهنة من الخيرات ما لم نسمع بمثله من قبل . ولدينا أكبر وثيقة تاريخية (ورقة هاريس البردية) التى عدد فيها الملك « رمسيس الرابع » أعمال أبيه وهباته التى قدمها للآلهة المصرية ، من ذلك أن دخل هذه المعابد كان يقرب من خمسى دخل الدولة . وهكذا كانت خزائن البلاد تحرم من أحسن محصولاتها ، ولم ينتفع فرعون مصر من هذه الأموال إلا بما كان ينفقه على جيوشه ، وهى عدته الوحيدة التى كان يعتمد عليها . وكانت الجند المرتزة هى العنصر الهام فى الجيش المصرى ، ومطالبهم كانت مجحفة ، يصعب على الملك أن يقودهم ويلزمهم الطاعة ، إلا يئذ الأموال لهم . ومن أجل هذا انتشرت المؤامرات فى قصور الملك ، ومن الغريب أن كل مؤامرة دبرت لاغتيال الملك ، اندس فيها عنصر أجنبي ، ويظهر أن رمسيس الثالث لقي حتفه فى إحدى هذه المؤامرات .

جاء بعد رمسيس الثالث ثمانية ملوك بهذا الاسم ، حكموا ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن ، ولم تظهر أسماء هؤلاء (الرعامسة) إلا على أوراق البردى أو على نقوش ليست لها أهمية تذكر . وحفر ستة منهم مقابر لأنفسهم فى وادى الملوك ، بعضها نخم . وأهم فرعون بينهم كان « رمسيس التاسع » الذى حدثت فى عهده قضية كبيرة ضد أشخاص اتهموا بتخريب وسرقة مقبرتى سبتى الأول ورمسيس الثانى فى وادى الملوك .

ومن دلائل ضعف سلطة ملوك هذا العصر ، ازدياد نفوذ الكهنة ، زيادة جعلتهم خطرا على العرش ، والدليل على ذلك أن أحدهم صور نفسه فى إحدى

المناسبات بحجم كبير مساو لحجم الملك ، ويعتبر هذا أول تصوير من نوعه في التاريخ المصرى القديم ، إذ لم يسبق لأى موظف مصرى ، أن صور نفسه بحجم مساو لحجم الملك .

من الأسرة الحادية والعشرين الى نهاية عصر الأسرات :

وفي عهد رمسيس الثانى عشر قام أحد الأشراف من مدينة تانيس ، اسمه سمنس ، ونصب نفسه ملكا على الشمال ، وأسس الأسرة الحادية والعشرين ، وبذلك انقطعت علاقة (الرعامسة) فى طيبة بآسيا . حيث ظهرت دولة الآشوريين التى قضت على السيادة المصرية الاسمية فى آسيا . أما فى طيبة فلم يستطع (الرعامسة) الاحتفاظ بسلطانهم ، بل ضعفوا أمام كهنة آمون ، واستطاع رئيسهم «حرحور» أن ينقش ألقابه الكهنوتية والحرية على الجزء الأسفل من قاعة العمد فى معبد خنسو بالكرنك ، وهذا أكبر دليل على انتقال السلطة من فرعون إلى رئيس كهنته .

ولما كان «حرحور» طاعنا فى السن عند ما تولى العرش ، لم يعيش طويلا ، وتبعه فى الحكم ابنه «باى عنخ» ، وهذا كان أيضا مسنأ ، فلم يستطع التغلب على سلطة سمنس فى الشمال . ثم خلف «باى عنخ» ابنه «باى نجم» الذى تمكن بسياسة حكيمة من ضم الشمال إلى الجنوب ، وذلك بأن تزوج من ابنة بسوسنس الأول ابن سمنس . وانتقل «باى نجم» إلى تانيس ، وأرسل ابنه رئيسا لكهنة آمون بطيبة .

وامتد حكم الأسرة الحادية والعشرين نحو مائة وأربعين سنة ، أى حتى سنة ٩٥٠ ق . م . وهذا يجعلنا نعتقد أن ملوكها عاصروا شاءول وداود وسليمان المشهورين فى التوراة .

وفى عصر الأسرة الحادية والعشرين ظهرت بوادر ثورة جديدة كان قوامها الجند المرتزقة ، الذين ظهروا فى الجيش المصرى منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وأصبحوا قوة يعتمد عليها فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، ثم هيمنوا على كل

شئون الجيش في عصر الأسرتين العشرين والحادية والعشرين . وكون اللييون (وكان عنصرهم إذ ذاك هو العنصر الظاهر في عصر الأسرة السالفة الذكر) من أنفسهم فرقا يقود كلا منها رجل من بينهم ، وتغلغل هؤلاء القواد في الوظائف ، وأصبح لهم الحق في امتلاك الأراضي ، حتى ظهرت في أواخر أيام الأسرة الحادية والعشرين ، أسرة تنتمي إلى رجل اسمه « بويوا » ؛ وقد توطنت هذه الأسرة هيراكليو بوليس ، وسمى رئيسها بالأمير الكبير — أمير الأمراء . وفي أواخر عصر الأسرة الحادية والعشرين كان رئيس هذه الأسرة رجل اسمه « شنشق » تمكن من تدريب جيش عظيم يذود به عن نفسه وعن مقاطعته ، وحفيد هذا الرجل هو الذي أسس الأسرة الثانية والعشرين ، التي حكمت مصر ما يقرب من قرنين ، وكان مقرها ببوسطة . وفي أواخر أيام هذه الأسرة انحلت السلطة المركزية انحلالا كبيرا وانقسمت مصر إلى عدة أقسام ، ثم تبعها الأسرة الثالثة والعشرون ثم الرابعة والعشرين .

تمكن رجل اسمه « كاشتا » من أن يكون في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد في جنوب بلاد النوبة دولة تسمى بدولة نباتا . استعان في تكوينها بسلالة الكهنة الذين هربوا أمام اضطهاد إخناتون ولجئوا إلى هذه المنطقة .

انتهز هذا الرجل ضعف السلطة في مصر ، وأرسل ابنه « بعنخي » على رأس قوة كبيرة اشتبكت في حروب عدة مع « تفنخت » (أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين) انتهت بسقوط منفيس ثم الدلتا . وبعد أن عاد « بعنخي » إلى بلاده ثار عليه « تفنخت » مرة أخرى ، فأسرع ولي العهد « شباكا » وهزم المصريين ، وقتل تفنخت ، وحرق ابنه « بخوريس » حيا . وأصبحت مصر منذ ذلك العهد محكومة بملوك أثيوبيين لمدة نصف قرن .

وخلف شباكا ابنه شبا توكا ، ثم طهارقه ، ثم تانوت أمون . وعند ما تمكن الآشوريون من هزيمة طهارقه اضطر إلى الجلاء عن الدلتا ، وحاول ابنه تانوت أمون أن يبسط سلطانه مرة أخرى عليها ، ولكن خاب أمله ، واندثرت بذلك أسرة الآثيوبيين في مصر .

أسس الأسرة السادسة والعشرين بسامتيك الأول ، وحكمت ما يقرب من

قرن ونصف . وهى من أهم الأسرات فى نظر المؤرخ المصرى ، إذ أنها قامت بأول محاولة لفتح الطريق أمام الشعوب الأجنبية لدخول مصر ، فرجبت بالشعب الأغريق وبحضارته وفنه .

اضطر ملوك هذه الأسرة أن يتحدوا مع اليهود بمعاهدات ودية ، ليكونوا حائطاً قوياً يمنع تقدم الجيوش البابلية ، التى خرجت فيما وراء حدودها غازية محاربة ، لتؤسس مملكة واسعة النطاق فى آسيا الصغرى . هذه العلاقات بين مصر وشعبيّن آخرين (اليهود والأغريق) متقدمين فى الحضارة أوجدت فى مصر ثورة فكرية ، ظهرت معالمها فى مظاهر الحضارة المصرية المختلفة . ولكن الشعب المصرى لم يحتمل هذه التعاليم الجديدة ومظاهر هذه الحضارات المختلفة الأجنبية ، أو قل لم يسهل عليه هضمها ، فما لبث أن ظهرت عليه أعراض المرض الفتاك ، الذى لم يبرأ منه إلا بعد عصر طويل ، وكان طبيبه فى هذه المرة أجنبي تخلق بالخلق المصرى وحذا حذو فراعنة مصر ، وهو بطليموس الأول .

أهم ملوك هذه الأسرة بسامتيك الأول ، نيخاو ، بسامتيك الثانى ، إپريس ، أحمس ، بسامتيك الثالث .

ومن أهم مظاهر هذه الأسرة ولوع ملوكها الشديد بقواعد الفن والعمارة المتبعة فى عصور مصر القديمة ، فقلدوها تقليداً أعمى ، ولكنهم لم يتقيدوا بهذه النظم القديمة فى أساليب الحكومة والإدارة .

وغزا مصر ملك الفرس قامبيز عام ٥٢٥ ، وهزم ملكها بسامتيك الثالث ، وأسره وسجنه فى عاصمة الفرس «زوزا» ، وأصبحت مصر بذلك تابعة للحكم الفارسى ، وبقيت ما يقرب من قرنين تحت هذا الحكم القاسى . ونجح بعض ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين والثلاثين فى تخليص مصر من نير الفرس ، ولكن هذا النجاح كان وقتياً ، وما لبث أن اندثر أمام بطش ملوك الفرس ، وبقيت الحالة على هذا المنوال حتى دخل إسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق . م . فقضى على الاحتلال الفارسى ، وانتقلت مصر بذلك إلى عصر نعمت فيه برخاء وازدهار ، يمكن أن يقارن بأحسن العصور الذهبية القديمة .

٣ — مصر في عهد البطالسة والرومان

ابراهيم نصوى

« أولا » مصر في عهد البطالسة

١ — الفتح المقدوني :

لم تكن بلاد الإغريق دولة تنظمها رابطة الوحدة السياسية ، وإنما كانت تنقسم إلى عدد كبير من الدول ، قطعت أوصالها المشاحنات والأحقاد . وإذا كانت بلاد الإغريق قد بلغت في القرن الخامس ق . م . شأوا بعيداً فإنها أخذت تضعف وتشيع الفوضى بين أرجائها خلال القرن الرابع ، حين كانت مملكة مقدونيا على حدودها الشمالية جادة في توحيد كاملتها وإعلاء شأنها . وعند ما ارتقى فيليب الثاني عرش مقدونيا رأى أن يتنزه حالة بلاد الإغريق ، فيوحدها بزعامة مقدونيا ، سياسياً وحرية ، ويقود الإغريق في حرب قومية ضد أعدائهم القدماء ، وهم الفرس الذين كانوا يهددون سلامة بلاد الإغريق . ولقد كافح الإغريق أطماع فيليب ، إلا أنه أنزل بهم هزيمة فاصلة في موقعة كيرونيا (Chaeronea) في عام ٣٣٨ . وألف من أغاب الدول الإغريقية عصبة جعل مقرها مدينة كورثا . ولم تلبث هذه العصبة أن قررت محاربة الفرس تحت قيادة مقدونيا .

لاقى فيليب حتفه قبل تحقيق أمنيته ، لكن لم يكد يستتب الأمر لابنه الإسكندر حتى أقدم على محاربة الفرس ، على رغم ما كان يكتنف ذلك من صعاب ، أهمها أن الفرس كانوا يعتمدون على موارد إمبراطورية لا تنضب ، ويتمتعون بسيادة البخار ، على حين كان الإسكندر لا يستطيع الاعتماد على قوى الإغريق البرية أو البحرية ، فقد عز عليهم ضياع خريتهم ، وخضوعهم لمقدونيا ، وكان طبعياً ألا يتفانوا في تأييد مشروعاتها . فرأى الإسكندر أن الطريقة المثلى للقضاء على

سيادة الفرس البحرية ، الاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسي واحدة بعد أخرى . وسرعان ما استولى الإسكندر على شواطئ آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر ، وبذلك ضمن سلامة مؤخرته ، وترك الأسطول الفارسي بلا مقر يلجأ إليه لإصلاح أى عطب يصيب المراكب ، أو بلد محالف يستمد منه المؤونة والمدد . لقد كان فتح مصر ضروريا ، لأنه كان من ناحية بمثابة استكمال فتح فينيقيا ، ومن ناحية أخرى بمثابة ضمان لوضع بلاد الإغريق تحت رحمة الإسكندر ، لأن استيلاءه على مصر بعد استيلائه على الدردنيل ، كان يضع في قبضته أكبر مصدرين تعتمد عليهما بلاد الإغريق في استيراد ما تحتاج إليه من القمح .

وفد الإسكندر إلى مصر في خريف عام ٣٣٢ ، فرأى الوالى الفارسي عجزه عن المقاومة ، وفتح له أبواب مصر على مصراعها . وقد رحب المصريون بالإسكندر ، لأنهم كانوا يكرهون الفرس بسبب ما أنزلوه بهم من الظلم ، ولأنهم كانوا يذكرون مساعدة الإغريق لهم في كفاحهم كلما حاولوا التخلص من نير الحكم الفارسي . ولما كان من بين الأسباب التى أحفظت قلوب المصريين على الفرس أنهم انتهكوا حرمة الديانة المصرية ، كان أول هم الإسكندر عند ما حط رحاله في منف أن يقدم قرباناً للعجل المقدس وباقي الآلهة الوطنية ، بل يرجح أن الإسكندر توج أيضا في معبد فتاح ، على نهج الفراعنة القدماء ، وذلك لكي يظهر أمام المصريين في ثوب ملك شرعى خليفة الفراعنة القدماء ، فيضمن إخلاص المصريين لحكمه . لكن لم ينس الإسكندر أيضاً أنه يوم خرج من بلاد الإغريق قاصداً فتح الشرق ، قد أعلن أنه رافع لواء الحضارة الإغريقية وحامى حمى الإغريق ، ولذلك أقام في منف حفلا إغريقيا : رياضيا وموسيقيا . وبعد أن فرغ الإسكندر من مهامه في منف ، وضع أساس مدينة الإسكندرية . ثم حج إلى معبد آمون في واحة سيوه . ذلك المعبد الذى كان يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لمعبد زيوس في ديدونا (Dedona) ومعبد أبولو في دلفى (Delphi) . لاشك أن الاسكندر كان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى تحقيق غايتين : إحداهما أن يثبت صلة نسبه بالآلهة أمام الرأى الدولى العام ،

لأنه كان يوشك أن يقيم أمبراطورية عالمية، تضم بين جوانبها عناصر من الشرق والغرب، وكان يرى أن نفوذه في أرجاء هذه الأمبراطورية يقتضى أن يظهر نفسه للبدأ أبسع بمثابة إله - ملك . وأخراهما أن يحصل على تأييد الإله أمون لمشروعاته التي كانت ترمى إلى بسط سيادته على العالم .

رجع الإسكندر بعد ذلك إلى منف، حيث أقام حفلا إغريقيا ثانيا، وقدم القرايين لزيوس . وقبل أن يغادر مصر في ربيع عام ٣٣١ كان قد جعل من مصر حتى الشلال الأول ولاية مقدونية منظمة تنظيمياً دقيقاً، يحميها جيش وأسطول . وتمتاز النظم التي وضعها الإسكندر بشيئين :

(أولاً) تقسيم السلطة بين عدة من الحكام، لاتقاء استبداد حاكم واحد بالسلطة، مما يتعارض مع مصلحة الإمبراطورية .

(ثانياً) روح العطف التي أبدتها نحو المصريين، فقد اختار من بينهم واليين ليحكم الوجه البحرى والوجه القبلى .

غادر الإسكندر مصر قاصداً بابل، حيث هزم دارا ملك الفرس هزيمة فاصلة، في موقعة جوجميلا (Gaugamela) في عام ٣٣١، ثم أوغل في أواسط آسيا حتى الهند، للاستيلاء على ولايات الإمبراطورية الفارسية . وفي عام ٣٢٣ قضى الإسكندر نحيبه وهو في شرخ الشباب، وبوفاة الإسكندر يبدأ العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهلينستى (Hellenistic Age) لأن أمبراطورية الإسكندر سرعان ما تفككت . وقام على أنقاضها عدد من الممالك كان أهمها في الشرق . حقا استمرت الحضارة الإغريقية (الهيلينية) القديمة على أسسها السالفة في جوهرها . لكن داخلها بعض العناصر الشرقية، وانتشرت هذه الحضارة بين ربوع الشرق، وانتقلت مراكزها من بلاد الإغريق القديمة إلى العواصم الشرقية الجديدة . التي أنشأها خلفاء الإسكندر، وينتهى العصر الهلينستى بموقعة أكتيوم في عام ٣١ ق . م . التي بسط الرومان بعدها سلطانهم على مصر (آخر مملكة هيلينستية احتفظت باستقلالها) وأعادوا بناء الإمبراطورية الرومانية على قواعد جديدة، ومن ثم بدأت الحضارة الإغريقية - الرومانية .

وغداة موت الإسكندر في يونية عام ٣٢٣ اجتمع قواده في بابل ، ليتشاوروا في حال تلك الإمبراطورية المقدونية ، واستقر الرأي آخر الأمر على المناداة بأخي الإسكندر المعنوه فيليب أرهيديس (Philip Arrhidaeus) ملكا ، والاعتراف بحق جنين روكسانا (Roxana وهي سيدة شرقية تزوج منها الإسكندر ، ولم تكن قد ولدت عند وفاته ، وقد عرف ابنها فيما بعد باسم إسكندر الرابع Alex.Aegos) في مشاركة فيليب في الملك إذا كان ولدا ، وتعيين كراتريس (Crateres) وصيا على الملك المعنوه . لقد كانت السلطة الحقيقية في أنحاء الإمبراطورية في يد كبار القواد المقدونيين . وخاصة برديكاس (Perdikkas) الذي احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ، وصمم على استغلال مركزه ، ليكون بمثابة الوصي الأعلى على جميع الإمبراطورية ، ولا شك أنه كان أقوى القواد سلطة يوم اجتماع بابل . وبعد أن فرغ القواد من مشكلتي العرش والحكومة المركزية في الإمبراطورية ، اختاروا من بينهم حكماً للولايات المختلفة في الإمبراطورية ، وكانت مصر من نصيب بطليموس بن لاغوس .

٢ — سياسة البطالسة الخارجية :

لكي نتفهم حقيقة سياسة البطالسة الداخلية يجب أن نبدأ بدراسة سياستهم الخارجية ، ذلك لأن النظم التي وضعوها لحكم مصر تأثرت إلى حد كبير بالدور الذي أرادوا أن يلعبوه في العالم ويستخلص المؤرخون سياسة البطالسة الخارجية من دراسة الحقائق التاريخية . لكن قلة هذه الحقائق كانت سببا في الاختلاف في تفسيرها . يرى بعض المؤرخين أن البطالسة الأوائل كانوا يطمحون إلى الاستيلاء على جميع العالم المعروف إذ ذاك ، على حين يرى البعض الآخر أن سياسة البطالسة كانت سياسة استعمارية هجومية ، فإنهم لم يروا في مصر سوى وسيلة لتكوين إمبراطورية في البحر الأبيض المتوسط ، ولعل الرأي الأقرب إلى الصواب أن السياسة الخارجية التي اتبعتها البطالسة الأوائل كانت استعمارية

حقاً ، إلا أنها كانت دفاعية واقتصادية بحتة ، ترمى إلى تكوين إمبراطورية كوسيلة لضمان سلامة مصر وثروتها ، فإن جميع الحقائق التاريخية التي نعرفها حتى الآن تشير إلى أن البطالسة الأوائل كانوا يرمون إلى تكوين مملكة قوية غنية ، على ضفاف النيل وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، فقد كانوا يرمون إلى ضمان استقلالهم وتقوية شوكتهم ، وتوفير ما يلزمهم من الأموال والأدوات ، لا لتكوين الجيوش ، وبناء الأساطيل لتدود عن ذلك الاستقلال فحسب ، بل للقيام بالمشروعات التي تكفل تقدم مرافق البلاد أيضاً . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن سياستهم لم تبغ من وراء غنى الدولة رفاهية الأفراد ، بل كانت ترمى إلى امتصاص ثروتهم وتسخير جهودهم في سبيل غنى الدولة .

لقد وضع أساس هذه السياسة بطليموس الأول ، واقتنى أثره بطليموس الثاني والثالث . رأى بطليموس الأول أن استقلال مصر كان لا يتحقق إلا بالقضاء على وحدة الإمبراطورية المقدونية ، ومكافحة كل من رغبوا في لم شعثها ، فانضم إلى محالفة بعد أخرى ، وخاض غمار حروب عدة . فترى أنه عند ما اشتد خطر برديكاس انضم بطليموس إلى محالفة تألفت من بعض الولايات الآخرين ، ووضعوا حداً لأطماع برديكاس في عام ٣٢١ . وكذلك عند ما تهدد نفوذ أنتيجونس (Antigonus) - وإلى بعض الولايات في آسيا الصغرى - بقية الولاية الآخرين ، تألفت ضده محالفة انضم إليها بطليموس ، ولم تتوان هذه المحالفة في محاربة أنتيجونس إلى أن قضت عليه في عام ٣٠١ . وبموت أنتيجونس ماتت معه فكرة إحياء الإمبراطورية المقدونية ، فتنفس الصعداء خلفاء الإسكندر الآخرون ، الذين كانوا قد حذوا حذو أنتيجونس ، ولقبوا أنفسهم ملوكاً في عام ٣٠٦ أو ٣٠٥ .

وإلى جانب تحقيق استقلال مصر كان يرمى بطليموس إلى توفير أسباب قوة دولته وغناها ، فلم يدخر وسعاً في العمل على شيئين :

(الأول) ضم الأقاليم التي يمكن اعتبارها ملحقات مصر الطبيعية مثل برقة في الغرب ، لضمان حدود مصر الغربية وسورية (أو على الأقل جنوب سورية)

وفينقيا ، وفلسطين ، وقبرص في الشرق ، لسد أبواب مصر من الجهة الشرقية ، والحصول على المعادن والأخشاب التي يفتقر إليها وادى النيل .

(الثاني) بسط سلطان مصر ما أمكن في البحر الأبيض ، لكي تستولى على الأقاليم التي يكثر فيها ما تحتاج إليه مصر من المواد الضرورية ، ولكي تستطيع حماية الطرق التجارية التي تصلها بدول بحر إيجه ، ولكي تكون في قبضتها منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى .

لم يأل بطليموس الأول والثاني والثالث جهداً في اتباع هذه السياسة التي كانت ترمى إلى توفير سلامة مصر من الاعتداءات الخارجية، وإلى ضمان تفوقها الاقتصادي على منافسيها ، فصادفهم التوفيق أحياناً ، وخانهم الحظ أحياناً أخرى . لقد بسط البطالسة الأوائل سلطانهم على كثير من أقاليم البحر الأبيض خلال القرن الأول بعد وفاة الإسكندر ، وبلغت أمبراطورية البطالسة أقصى اتساعها وعظمتها في عهد بطليموس الثالث . وكان أهم تلك الأقاليم وأطولها بقاء تحت سيطرتهم : قبرص ، وبرقة ، وجنوب سورية وفلسطين ، وفينقيا ، كما أن كيليكيا وپامفيليا ، وليسيا ، وكاريا ، وعصبة السيكلاديس بقيت سنين طويلة جزءاً من إمبراطورية البطالسة . وفضلاً عن ذلك حكمت مصر لمدة وجيزة جزءاً من تراقيا وغاليبولي ، بل تسنى لها في وقت ما أن تبسط نفوذها على جزء من البلوبونيز (راجع خريطة أمبراطورية البطالسة) . وعند ما ارتقى بطليموس الرابع العرش كانت لمصر إمبراطورية واسعة ، خف للدفاع عنها يوم تهددها أنتيوكس الثالث ملك بابل وسورية . ومن أجل ذلك أعاد بطليموس الرابع تنظيم الجيش ، وأدمج فيه للمرة الأولى بعد تجربة بطليموس الأول في بداية حكمه عدداً كبيراً من المصريين يعزى إليهم الفضل الأكبر في الانتصار في موقعة رفح ، في عام ٢١٧ على جيوش أنتيوكس الإغريقية .

أخذ ساعد أنتيوكس يشتد بعد موقعة رفح ، حتى أفزعت مطامعه مصر التي كان قد داخلها الانحلال ، فعملت على التقرب من مقدونيا وروما ، إلا أن ذلك لم يحل دون ضياع أغلب ممتلكاتها الخارجية في عصر بطليموس الخامس

واسعة على حساب الرومان ، لكن ذلك لم يؤد إلا إلى الصراع الذى تمخض عن القضاء على دولة البطالسة .

وتعتبر موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالسة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب إليها ، حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ، فققدت أملاكها فى الخارج ، وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات ، إلى أن انتهى بها الأمر إلى أقول نجمها وزوال استقلالها . ويعزى هذا الاضمحلال إلى عاملين هامين :

(الأول) ضعف السلطة المركزية واختلال نظام الحكم فى عهد بطليموس الرابع والخامس ، فتمخض ذلك عن خطرين واهمين . أما الخطر الأول فهو انتعاش روح الثورة بين المصريين ، فإن الدور الذى قاموا به فى موقعة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم ، فلم يهيبوا الوقوف فى وجه الحكومة ، ثأرين على ما كانوا يلقونه من صنوف الضغط والإرهاق ، وتعددت الثورات منذ عام ٢١٦ حتى شغل البطالسة بأمرها ، إلى أن قضى عليها بطليموس الثامن (Lathyros) فى عام ٨٨ بتخريب طيبة التى كانت مهد الفتن ومقل الثأرين . أما الخطر الثانى فهو لا اعتداء على ممتلكات مصر الخارجية ، إذ كان ضعف السلطة المركزية واشتغال مصر بثوراتها غير مشجع لذوى المطامع أعدائها منهم والخلفاء ، فاستولى فيليب الخامس ملك مقدونيا على ممتلكات مصر فى تراقيا وغاليبولى ، كما استولى أنتيوكس الثالث على جنوب سورية وفلسطين ، وأعقب ذلك باستيلائه على كل ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى ، بل إن أنتيوكس الرابع غزا مصر نفسها ، ولم ينقذها منه سوى وقوف روما فى وجهه .

(الثانى) ظهور عامل هام فى الأفق السياسى لدول شرق البحر الأبيض ، وهو ازدياد نفوذ روما المتواصل ، ولا سيما بعد فراغها من الحرب البونية الثانية ، وخروجها منها فائزة ، بالقضاء على قرطجنة فى عام ٢٠٢ ق . م . ولو أن خلفاء الإسكندر فى شرق البحر الأبيض أدركوا تماما مغزى الصراع بين روما

وقرطجنة — ذلك الصراع الذى كان من أجل سيادة العالم — وكان فى مقدورهم أن يتحالفوا على روما ، لقضوا عليها ولم تقض هى عليهم واحداً بعد آخر . لكنهم أعطوا روما الفرصة لتحالف مع الأغريق وتشجع نشوب الثورة فى بلادهم على مقدونيا ، وبذلك شلت يدها عن مساعدة هنيبال عند ما كان يطرق أبواب روما . فكان ذلك فاتحة اهتمام روما بشئون الدول الشرقية . أما علاقات مصر بروما فقد بدأت فى عهد بطليموس الثانى ، وكانت مقصورة على تبادل المجاملات دون أن تسعى إحداهما إلى التقرب من الأخرى؛ وظلت كل منهما مستقلة عن الأخرى فى سياستها وعلاقاتها الخارجية حتى عصر بطليموس الخامس عند ما أخذ يزداد نفوذ روما فى مصر ، ولعل من أكبر ما ساعد على ذلك عاملين :

(الأول) المخاطر التى استهدفت لها مصر من قبل فيليب الخامس ، وأسرة سليوكس بوجه خاص ، مما دفع مصر إلى الارتقاء فى أحضان روما منذ بداية القرن الثانى قبل الميلاد . وقد قضت روما على فيليب فى عام ١٩٧ ، لكنها لم تناصب أسرة سليوكس العداء إلا فى عام ١٩٦ حين نصبت نفسها حامية لحرية الإغريق وأملاك بطليموس الخامس المسلوبة . ومنذ ذلك الحين لم يبق لأسرتى سليوكس والبطالسة من الاستقلال إلا الاسم ، إذ أصبحت روما تسيطر على سياستهما بطريق الإيعاز أو التهديد ، إلى أن أدجت دولتهما فى أمبراطوريتها . (الثانى) ظهور روح التنافس واستحكام النزاع بين أفراد أسرة البطالسة منذ عهد بطليموس السادس ، ذلك النزاع الدموى الذى كانت تذكى روما ناره أحياناً ، والذى سجل التاريخ صفحة حوادثه بين أقسى وأروع ما سجله عن أمراء أعمت أبصارهم وأضلت بصائرهم ألوان الترف والنعيم التى شبوا فى أحضانها ، وأفسدت نفوسهم وألهبت شهواتهم مظاهر السلطة المطلقة التى نشئوا فى كنفها ، وضروب الخلاعة والاستهتار التى عاشوا فى ظلها ، فكانوا مزيجاً من الرذائل التى تتولد فى جو فاسد مسمم ، قوامه سلطان لا يحيد ، وشعب ذليل مستكين ، يكاد لا يملك حق التألم ، وحاشية فاسقة لا تعنى بغير اللهو والقصف وجرثومة

عليلة منكورة هي ثمرة تزواج الإخوة بأخواتهم ، فلا عجب أن انكشف هذا كله عن جرائم قد لا تقل بشاعة ووحشية عما ارتكبه تيرىوس ونيرون . وأن استغلت روما هذه الحوادث لبسط نفوذها على مصر .

إن الثورات الداخلية والمنازعات بين أفراد الأسرة المالكة قد دبت في عظام مصر ، فنهكت حيويتها ، وهدت قواها . حتى خرت آخر الأمر فريسة لروما في عام ٣٠ ق . م . لكن ليس أدل على الحيوية الكامنة في مصر من أنها استطاعت أن تقاوم كل هذه القوى الهادمة مدة طويلة ، وكانت آخر مملكة في شرق البحر الأبيض طأطأت الرأس أمام قوة روما .

٣ — سياسة البطالسة الراهلية :

عرفنا أن مصر كانت جزءاً من إمبراطورية الإسكندر التي اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ، ليعيشوا من جديد تلك الإمبراطورية لمنفعتهم الخاصة ، ولذلك رأى بطليموس الأول ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يمكنانه من الذود عن حياض مملكته ، ومن سد حاجاتها ، كما رأى سلامته في الاعتماد على رجال مقدونيين أو إغريق في تكوين الجيش والأسطول ، لثقتهم في مقدرتهم وبسالتهم ، فإنه كان يخشى تجنيد المصريين ، لارتياحه في كفايتهم الحرية ، أو في إخلاصهم الطاعة له ، أو لخوفه أن يحجب بذلك الأمة المصرية يوم استولى عليها الاضمحلال . ولما كان عدم استقرار الحالة في مصر خلال القرن الرابع قد أدى إلى اضطراب الإدارة ، وتدهور الزراعة والصناعة والتجارة ، وكانت مشروعات البطالسة الخارجية تتطلب نفقات طائلة ، لم يكن في استطاعة حال مصر الاقتصادية (على ما كانت عليه إذ ذاك) توفيرها ، فقد كان ضرورياً أن يعاد تنظيم شؤون مصر الإدارية والاقتصادية . وكان طبعياً أن يعتمد في ذلك على رجال إغريق وروموس أموال إغريقية ، أضف إلى ذلك أن بطليموس كان أحد رجال

الإسكندر الأكبر ، الذى كان همه الأول نشر الحضارة الإغريقية ، التى بلغت
إذ ذاك ذروة المجد ، على حين كان نجم الحضارة الفرعونية قد أفل ، فكان
طبيعياً أيضاً أن يرمى بطليموس إلى تشييد مملكته الجديدة على أسس تلك
الحضارة التى كانت تسود العالم إذ ذاك . من أجل ذلك فتح البطالسة أبواب مصر
للإغريق وتابغوا عليهم المنح والامتيازات ، فهرعوا إليها زرافات ووحدانا ،
وأعقبهم كثيرون من سكان آسيا الصغرى وسورية ؛ وإذا أضفنا إلى ذلك العبيد
الذين أسروا فى الحرب أو استحضروا من آسيا وإفريقية . أمكننا أن نتخيل
الخليط الذى تكون منه العنصر الأجنبى فى مصر .

حقاً كانت مصر جزءاً من الإمبراطورية المقدونية ، إلا أنها كانت قبل
كل شيء بلداً يعتز بحضارته الفرعونية ونظمه الموروثة . لقد وفد إلى ضفاف
النيل فئة كبيرة من الأجانب ، لكن هؤلاء كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل
البلاد الذين استمروا يعيشون كما عاش أجدادهم من قبل . فإذا كان البطالسة قد
شملوا الإغريق بعطفهم ، فقد كان لزاماً عليهم ألا يغفلوا المصريين البتة من
حسابهم .

لقد كان البطالسة سادة مصر بحق الفتح ، فلكى يكون سلطانهم دائماً
وسيادتهم راسخة ، رأوا ضرورة اكتساب ولاء الجيش والأجانب والمصريين ،
لأن سياستهم كانت ترمى إلى تكوين مملكة قوية غنية ، شعارها الحضارة
الإغريقية ، ودعائها أبناء مقدونيا وبلاد اليونان ومصر .

أما الجيش فكان مفروضاً عليه الطاعة للملك بحكم نظمته الحربية ، لكن
كان هناك عاملان آخران يضمنان هذه الطاعة : مرتبات رجال الجيش التى كانوا
يتقاضونها من الملك ، والمركز الممتاز الذى اختصهم به الملك فى حياة البلاد .
أما الأجانب عامة فكانوا أيضاً يدينون للبطالسة بالامتيازات التى منحهم إياها ،
لكن لما كانت غالبيتهم رجالاً أحراراً نشئوا فى جمهوريات اعتادوا الاشتراك
فى حكمها ، وكانت مصر فى عهد البطالسة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ،
لجأ البطالسة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق إلى وسيلتين :

(إحداهما) أن جعل بطليموس الأول عبادة الإسكندر ديناً رسمياً في مصر، له كاهن يعين كل سنة، وتؤرخ باسمه الوثائق الرسمية. ولما كان بطليموس خليفة الإسكندر في مصر أصبحت سلطته مستمدة من مصدر إلهي، ولذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة المطلقة في مملكته. إلا أن بطليموس الثاني لم يقف عند هذا الحد في سبيل توطيد سلطان أسرته، إذ أنه رفع أباه وأمه إلى مرتبة الآلهة، وأقام المعابد لعبادتهما، وحفلاً رياضياً كل أربعة أعوام تكريماً لهما؛ ولم يلبث بعد ذلك أن نادى بنفسه وزوجه إلهين، يقيم شعائر دينهما كاهن الإسكندر. ومن ذلك الحين أصبحت عبادة الملك وزوجه منذ تبوئهما الحكم تقترن بعبادة أسلافهما، وعبادة الإسكندر، فنشأت - على مر السنين وتعاقب ملوك البطالسة وملكاتهم - سلسلة جديدة من الآلهة. لكن بطليموس الرابع لاحظ أن هذه السلسلة بدأت ببطليموس الثاني وزوجه، لأن بطليموس الأول وزوجه لم يعبدوا رسمياً في حياتهما، على حين كان من حق مؤسس الأسرة وزوجه أن يكونا في المقدمة، ولذلك وضع اسميهما على رأس سلسلة البطالسة المتألهين. ويلاحظ فيما تقدم أن العبادة كانت مقصورة في أول الأمر على أشخاص يرفعون إلى مرتبة الآلهة بعد وفاتهم، ثم تدرج الحال إلى عبادة أشخاص يُرفعون إلى مرتبة الألوهية في حياتهم، ويحتفظون بها بعد مماتهم.

(الأخرى) أن اقتنى البطالسة الأوائل أثر منافسيهم ملوك سورية المقدونيين في محاولة تبرير سلطانهم المطلق بآراء فلسفية، إذ يحتمل أنهم أوحوا إلى الفلاسفة بأن يعالجوا الملكية في رسالات يمتدحون فيها سلطان الفرد المطلق، فقد أظهر الفلاسفة الملوك في ثوب المنقذين والمصلحين، الذين وجهوا خدماتهم لرفعة بلادهم، فنشروا العدالة، ومهدوا السبل لتقدم العلوم والفنون، وزادفوا النعم على الإغريق، وصدوا الأعداء عن البلاد، وأحسنوا معاملة الرعية، وأخلصوا في عبادة الآلهة، وباختصار أثبتوا أنهم ملوك عادلون وليسوا طغاة مرهقين. أما لاكتساب ولاء المصريين فقد رأى البطالسة أنه لا بد لهم من اتخاذ صفة الفراعنة كي يرتفعوا بذلك إلى صف الآلهة المصرية، فإن المصريين كانوا

يعتقدون أن الفرعون يحكم فيهم لأنه إله بشرى ، أى لأنه حلقة الاتصال الوحيدة بين آلهة السماء وعباد الأرض ، وبدونه كانت الديانة المصرية تفقد الحلقة الأساسية في الاتصال بين الناس والآلهة . ولذلك يصعب علينا أن نعتقد أن بطليموس الأول عند ما نادى بنفسه ملكاً لم يقتف أثر الإسكندر ، ويتخذ هو أيضاً ألقاب الفراعنة ، وإذا كان الشك يخالجننا في تصرفات بطليموس الأول في هذا الأمر ، فلا مجال لهذا الشك فيما يتعلق ببطليموس الثانى وخلفائه ، لكن الأرجح أن بطليموس الخامس كان أول من توج من البطالسة على نهج الفراعنة .

لم يدخر البطالسة وسعاً في أن يظهروا أمام المصريين كخلفاء للفراعنة القدماء ، فإنهم قبلوا الديانة المصرية كما كانت عليه ، ووطدوا الصلة التي كانت تربط حكومة البلاد بديانتها ، لكن على رغم مجهودات البطالسة في هذه الناحية ، لم تطمئن قلوب المصريين إلى هؤلاء الفراعنة الجدد ، ولم يعتقدوا أنهم فراعنة حقاً ، بل لم يروا فيهم إلا دخلاء مغتصبين ، ولم يعتبروا الإسكندرية عاصمة بلادهم ، فكانوا يتوقون إلى ملك وطنى ، وعاصمة وطنية ، كما نستخلص من التنبؤات التي تتحدث عن تحرير مصر وإعادة العاصمة إلى منف . ويخيل إلينا أن البطالسة أنفسهم شعروا بأن نصب أنفسهم فراعنة لا يكفي وحده لاكتساب ثقة المصريين وولائهم ، ولذلك رأوا حتماً عليهم أن يوطدوا صبتهم الاسمية بدلائل مادية . ومن أجل هذا نجد أنهم أجزلوا العطايا لإقامة شعائر المذاهب المصرية المختلفة ، وحذوا حذو الفراعنة فيما قاموا به من إصلاحات أو إضافات أو زخرفة في المعابد . لكن لم تكن منشآت البطالسة الدينية في بداية الأمر سوى منشآت ثانوية ، ولم يكن عرضاً أن أغلب المعابد المصرية الكبرى التي شيدها البطالسة في أدفو ودندرة وإسنا وكوم امبو وفيلا ، لم تبدأ إقامتها إلا بعد النصر الذي أوتيهِ المصريون في موقعة رفح .

وبينما كانت الديانة المصرية موضع كل عطف وإجلال من البطالسة ، وجد رجال الدين أنفسهم مقيدون بأغلال من القوانين كسرت شوكتهم ، واقترضت عليهم الطاعة لحكام البلاد ، فقد رأى البطالسة فيهم - على اعتبار أنهم زعماء دينيون

يتمتعون بنفوذ كبير بين الناس - خطراً يهدد سلطانهم، ولم يغير البطالسة نظام القساوسة المصريين، بل أبقوه على ما كان عليه من قبل، ولكن لكيلا يستغلوا مركزهم بين الناس، فيكونوا أداة لنشر روح التمرد في البلاد، وضعهم البطالسة في قبضتهم.

ولما كان بطليموس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على اشتراك المصريين والإغريق معاً في العمل على تقدم مرافق البلاد، رأى من الضروري أن يؤلف بين هذين العنصرين. ولما كان يعرف أن الإغريق قد حملوا معهم ديانتهم ومذاهبهم، وأن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم، وجه همه إلى التغلب على النفور الديني الذي كان يعوق الألفة بينهم ولا شك، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين. وللحصول على هذه الضالة المنشودة اتفق بطليموس ومستشاراه (رجل أثيني حجة في الديانة الإغريقية يدعى تايموثيوس «Timotheus»، وكاهن مصري من أعلام الديانة الإغريقية يدعى ماثو «Manetho») على تكوين ثالث مقدس يتألف من سيرايس وإيزيس وهربوكراتس، وهي كلها آلهة مصرية أظهروها للإغريق في ثوب يتفق مع آرائهم ومعتقداتهم الدينية. لقد نجحت الديانة الجديدة من حيث فوزها بعدد كبير من الأتباع والأنصار، لكن يقاس نجاحها الحقيقي بمقدار ما أفلحت في تأدية الغرض المنشود من إقامتها، وهو ربط المصريين والإغريق بإزالة الفوارق، أو على الأقل تضيق شقة الخلاف بين معتقدات كل من الفريقين. حقا كان المصريون يعبدون آلهة الثلاث المقدس، ولكن في ثوبها المصري، ولأنها كانت في عداد الآلهة التي ظلوا على ولائهم لها، وكذلك اعتنق الإغريق ديانة هذا الثلاث، لأن آلهته قدمت لهم في ثوب إغريقي، بل على أنها نظراء لآلهتهم الإغريقية. ولم يقف الإغريق عند ذلك الحد، بل كانوا يعبدون آلهة مصرية أخرى، بعضها بأسماء إغريقية، وبعضها بأسمائها المصرية. وليس من العسير تعليل احترام الإغريق لآلهة المصريين، فقد أدخل على عقولهم أن تلك الآلهة كانت لا تختلف في شيء عن آلهتهم، فضلا عن أنهم

كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفاً على البلاد ، فكانوا يرون من الحزم أن يستجدوا عطف الآلهة التي تشملها بالرعاية . إلا أن الإغريق حينما كانوا ينزلون في كثرة في المدن الاغريقية أو في غيرها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الإغريقية ، مثل زيوس وأبولو وديمتر . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للإغريق كانت عبادة آلهتهم القديمة ، التي ظلوا على تمسكهم بها مدة طويلة ، حتى بعد عصر البطالسة . ولا شك أن الديانة الجديدة تمتعت برواج عظيم ، لكن لما كان ذلك الرواج نتيجة لايحاء الحكومة . وكانت تلك الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالسة قد أباحوا حرية الديانة لسائر رعاياهم ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والإغريق لاتزال تختلف إحداها عن الأخرى فلا عجب أن كانت الديانة الجديدة غير محققة للغرض المنشود من إقامتها .

حقا حاول البطالسة الأوائل اكتساب ولاء العناصر المختلفة التي كانوا يحكمونها لكن لاريب أن كل عطفهم كان موجها نحو الإغريق الذين اتخذوا منهم العماد الأول لحكمهم ، فرحبوا بهم ، وأجزلوا لهم الامتيازات والعطايا والهبات على اختلاف أنواعها . أما فيما يختص بالمصريين فقد ظن هؤلاء البطالسة أن نصب أنفسهم فراعنة كان يبيح لهم معاملة المصريين كما يترأى لهم ، فاحتقروا أهل البلاد ، ولم يروا فيهم سوى آلات يسخرونها لمنفعتهم ، حتى إنهم لم يقفوا عند حد في استغلال المصريين وإرهاقهم بشتى التكاليف ، وليس من العسير أن تتصور شقاء المصريين ، فإنهم لم يكونوا خاضعين لملوك غرباء فحسب ، بل لجنس غريب تغلغل في جميع نواحي حياة البلاد .

ولا أدل على تدمير المصريين من عدد الإضرابات التي تحدثنا عنها الوثائق القديمة ، فقد كان العمال والزراع والموظفون يُضربون عن أعمالهم ، ويالجئون إلى المعابد لحمايتهم . ولقد كانت روح التدمير تجيش في صدور المصريين ، لكنهم كان ينقصهم حافز يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، ويشجعهم على الوقوف في وجه مغتصبى بلادهم ، فصبروا على بلائهم كارهين ، إلى أن أشعل جذوة الوطنية في صدورهم النصر المبين الذي أوتوه في معركة رفع . بدأت الثورات منذ عام ٢١٦

في الدلتا . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت الثورة قد بلغت أشدها ، وامتد لهيبها إلى مصر الوسطى ومصر العليا ، حيث كان يذكي نارها أمير نوبي يدعى هارماخس (Harmachis) . وبقيت نار الثورة مستعرة حتى أخذت في مصر العليا ومصر الوسطى في بداية حكم بطليموس الخامس . لكن لم يسد الهدوء هناك طويلا ، فإن أنخماخس (Anchmachis) أشعل نار الثورة ثانية ، وبقيت متأججة حتى هزم في عام ١٨٦ . أما في الدلتا فإن الثورة لم تضع أوزارها منذ نشوبها إلا عندما أخضعت سايس في عام ١٨٣ . ولم يكد بطليموس السادس ينجو من شبح أنتيوكس الرابع المخيف ، بفضل تدخل روما ، حتى واجه في عام ١٦٦ الثورة التي قام بها زعيم وطني يدعى ديونيزيوس بتوسيرايس (Dionysios Petoserapis) ، فقد حاول أن يستغل الشقاق الأسرى بين بطليموس السادس وأخيه ، لينقذ المصريين من معتصبي بلادهم ، لكن التوفيق بين الأخوين أفسد على ديونيزيوس خطته . ومكن بطليموس السادس من القضاء عليه . غير أن أصداء تلك الثورة تجاوزت في أنحاء البلاد ، فاضطر بطليموس السادس إلى القيام بحملة حتى النوبة . ولم تهدأ الثورة إذ ذاك إلا لتجدد ثانية في عهد بطليموس الثامن ، الذي رأى الطريقة المثلى لاستئصال دابرها في القضاء على طيبة - العاصمة المصرية القديمة - التي كانت دائما مهد الثورات ، ومقل الثائرين ، فلم يتردد في الاستيلاء عليها وتخريبها في عام ٨٨ . وبذلك خرج المصريون من كفاحهم الطويل يحرقون أذيال خيبة كانت محتومة ، لأن جيوشهم وجيوش أصدقائهم النوبيين كانت تفتقر إلى ما كان للإغريق من العدد والعدد .

ولا تتعاش الروح القومية بين المصريين اضطراب البطالسة إلى النزول عن كبرياتهم وجبروتهم ، والنظر بعين جديدة إلى المصريين ، فأخذوا يتبعون منذ أيام بطليموس الرابع سياسة جديدة في حكم المصريين ، ترمي إلى اكتساب عطفهم والتودد إليهم ، فسمحوا للمصريين بتقلد المناصب الكبرى ، وزادوا

فى حقوق رجال الدين وأراضى المعابد ، وأحيوا طبقة المحاربين المصريين ، وزادوا مساحة إقطاعاتهم ، ونقصوا مساحة إقطاعات الإغريق ، وكفوا عن منحهم ضيعات واسعة ، وأقاموا معابد كبيرة للآلهة المصرية . واتخذوا من منف عاصمة ثانية ، وتوجوا أنفسهم على نهج الفراعنة القدماء . لكن لم يفلح كل ذلك فى تكوين دولة قومية مصرية إغريقية ، فقد حال دون ذلك النظام المالى الذى وضعه البطالسة الأوائل ، ولم يشأ أن يتعرض له البطالسة الآواخر ، بسبب ما كان يدره عليهم من الخيرات .

٤ — نظم الحكم فى مصر فى عهد البطالسة :

(١) النظام الإدارى :

كان البطالسة ينظرون إلى مصر على اعتبار أنها ضيعة أصبحت ماسكا لهم بحق الفتح وبحق الملوك الإلهى . فلهذا سلامه هذه الضيعة من الاعتداء الخارجى ، ولسد حاجتها ، أنشأ البطالسة جيشاً وأسطولا قويين . ولضمان استدرار أوفر الخيرات من هذه الضيعة شرعوا لها من النظم ما يكفل لهم السيطرة عليها . وحسن الإدارة فيها . ولذلك نرى الملك على رأس السلطة المركزية فى الإسكندرية ، ونرى هذه السلطة المركزية تشرف على السلطة المحلية فى طول البلاد وعرضها . ولما كان أول هم للملك أن تفيض عليه ضيعته بالبركات ، كان ضرورياً أن يعنى بمرافق البلاد الاقتصادية ، وأن تدفع الضرائب بانتظام . وأن يستتب الأمن وتطبق القوانين ، ولذلك كانت السلطة المركزية تتكون من الملك ووزير المالية ووزير العدل .

كان الملك مصدر جميع السلطات ، والمرجع الأول والآخر فى تنفيذ القوانين ، فكانت تستمد منه السلطان المركزية والمحلية نفوذهما ، وإليه نفسه كانت توجه الشكاوى والالتماسات ، ومنه خاصة كان يصدر كثير من الأوامر . وكان المساعد الأول للملك فى إدارة البلاد وزير المالية (Dioiketes) الذى كان بعد الملك رئيس الحكومة بأجمعها ، المسئول عن مرافق البلاد الاقتصادية ،

وشئونها المالية ، وما يقتضيه ذلك من حسن تصريف شئون الدولة الإدارية .
وكان المساعد الثانى للملك وزير العدل ، (Archidikastes) الذى لا نعرف
مهام وظيفته على وجه التحقيق ، وإنما نرجح أنه كان يعين بعد موافقة الملك
قضاة المحاكم المختلفة ، ويحضر القضايا التى كان يفصل فيها الملك عند ما يستأنف
المتقاضون إليه من الأحكام الابتدائية .

أما السلطة المحلية فقد كانت تتكون من حكام المديريات التى كانت تنقسم
إليها الدولة ، فإن البطالسة أخذوا عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد إلى مديريات ،
فقسموا الدلتا ووادى النيل - فيما عدا المناطق التى خصصت للبدن الإغريقية -
إلى مديريات كان كل منها يكون وحدة إدارية منفصلة عن الأخرى . وكان يحكم
كل مديرية (Nome) عند الفتح المقدونى مدير مصرى (Nomarch) ،
وقد استبقى الإسكندر المديرين المصريين فى مناصبهم . لكن من المحتمل أنه
عند ماولى بطليموس خاكما على مصر ، شرع من النظم ما يشير بجلاء إلى احتلال
البلاد بسلطة عسكرية أجنبية ، فكوّنت كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها
قائد (Strategos) ومدير (Nomarch) . ولما كان من اختصاص القائد
الإشراف على شئون المنطقة العسكرية والمدنية جميعاً ، أصبح المدير مرءوساً
للقائد . وتضاءلت أهميته ، حتى إننا لا نسمع عنه شيئاً على الإطلاق فى القرن
الثانى . وكان يساعد القائد فى إدارة شئون مديريته الكاتب الملكى ، الذى يعتبر
الساعد الأمين للقائد ، فقد كانت توكل إليه مراقبة سير أعمال الحكومة ، وإعداد
قوائم دافعى الضرائب ، والتقارير الخاصة بحالة الحاصلات . وكان يوجد أيضاً
وكيل المديرية الذى يختص بالشئون القضائية ، ورئيس الشرطة وممثلو الإدارة
المالية المركزية فى المديرية . وكانت كل مديرية تنقسم إلى أقاليم (Topoi) ،
كل منها تحت إمرة (Toparch) ، كما كان كل إقليم ينقسم إلى قرى (Komai) ،
يحكم كلا منها (Komarch) . وكان موظفو الأقاليم والقرى عبارة عن صورة
مصغرة لموظفى المديريات . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أننا نسمع منذ القرن
الثانى قبل الميلاد أن كلا من العاصمتين المصريتين القديمتين منف وطيبة كانت

تحت سلطة حاكم خاص يسمى (Hypostrategos) ، وأن إقليم طيبة الذى كان يمتد من مديرية هرموبوليس إلى أسوان كان تحت سلطة حاكم يدعى أحياناً (Epistrategos) ، وأحياناً أخرى (Strategos) .

أما المدن الإغريقية فى مصر ، وهى الإسكندرية ونقراطيس وبطولييس (Ptolemais) فإنها كانت خارج نفوذ السلطة المحلية ، وتخضع لنظم تختلف عن نظم سائر المدن الأخرى فى مصر ، إذ كان أغلب سكانها من الإغريق ، فسمح البطالسة لهذه المدن بنظم تتمشى مع سبل الحياة الإغريقية ، ليتمكن إغريق مصر من الاحتفاظ بإغريقتهم ، لأنهم كانوا العماد الأقوى الذى يستند البطالسة إليه فى حكمهم .

كانت الإسكندرية مقر البلاط وعاصمة مصر ، لكننا نجد من العسير أن نعرف إلى أى حد كانت تنعم بالنظم السياسية التى كانت تمتاز بها المدن الإغريقية الحرة (City - States) ، بل لاندري أكانت الإسكندرية تحظى بمظاهر الحكم الذاتى ، وحتى إذا كان الأمر كذلك فإننا لانشك أن عنان ذلك الحكم كان فى يد الملك . وبرغم أننا نعرف أنه لم يكن للإسكندرية مجالس نيابية فى أوائل العصر الرومانى ، نظن من المحتمل أنها تمتعت بهذه المجالس حتى اضطر البطالسة إلى تغيير سياستهم ، فألغوا هذه المجالس ، ليجعلوا الإغريق الذين كانوا دعامة حكمهم أكثر خضوعاً لهم . وعلى كل حال كان للإسكندرية حكام محليون يرجح أنهم كانوا يختارون من مواطنى العاصمة ، الذين كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية فيها . وينقسمون إلى قبائل وعشائر ، كما كانت الحال فى كافة المدن الإغريقية .

أما نقراطيس — المدينة الإغريقية القديمة التى تأسست فى عهد بسامتيك الأول — فقد احتفظت بنظمها كمدينة إغريقية حرة ، ويحتمل أنها استبقت دستورها الذى كان يشبه دستور مسليا ، ويمتاز بمجلس أرستقراطى . وجدير بالذكر أن قانون نقراطيس لم يعتبر الزواج بين الإغريق والمصريين زواجاً شرعياً . حقا إن النص الذى ينبئنا بذلك يرجع إلى القرن الثانى بعد الميلاد ،

لكن يرجح المؤرخون أن أصله يرجع إلى تاريخ أكثر قدماً من ذلك ، لأن البطالسة كانوا يحرصون على أن يبقى العنصر الإغريق في المدن الإغريقية نقياً خالصاً . ولذلك نرجح أن قوانين الإسكندرية وبطوليميس لم تسمح أيضاً بمثل هذا الزواج .

وكانت بطوليميس (المنشأة بالقرب من إخميم) المدينة التي أنشأها بطليموس الأول لتخلد اسمه ، وتكون مهدياً للحضارة الإغريقية في الوجه القبلي . فلا عجب إذا أنبأنا وثائقها بأنها كانت تتمتع بكل النظم الخليفة بالحياة الإغريقية . لقد كان لها مجالس استشاري ، وجمعية شعبية ، وحكام وقضاة تنتخبهم هيئة المواطنين الذين كانوا ينقسمون إلى قبائل وعشائر ، ويتمتعون بمثل ما كانوا ينعمون به في بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح . وقد كانت بطوليميس شكلاً مدينة إغريقية حرة حليفة للملك بطليموس الحاكم ، لكنها لم تكن في الحقيقة سوى مدينة خاضعة للملك . فإنه كان يشرف على شئونها بالموظفين المالكين الذين كانت تسند إليهم المراكز الهامة فيها .

وبالرغم مما في الوثائق التي لدينا من النقص ، فلا شك أن البطالسة وضعوا لمصر نظاماً إدارياً دقيقاً . وقد كفل نظام البريد الذي شمل كل أنحاء البلاد وصول رغبات الملك إلى كافة الحكام المحليين وتنفيذها بدقة .

(ب) النظام المالي :

لما كان النظام المالي في أية مملكة يرتبط كل الارتباط بحالتها الاقتصادية ، كان لزاماً علينا أن نلم أولاً بسياسة البطالسة ، وحالة البلاد الاقتصادية قبل أن نعالج نظام مصر المالي في عصر البطالسة .

لقد وجه البطالسة الأوائل عنايتهم إلى تنمية موارد البلاد الاقتصادية ، فاهتموا بضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، وما يقتضيه ذلك من العناية بالترع والجسور ، فأمكن زيادة مساحة الأرض التي تزرع واستغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالاً لم يسبق له مثيل ، وأدخلت أنواع جديدة من الفاكهة . وانتعش غرس الكروم والزيتون ، وحولت مساحات واسعة من الأراضي مراعى

لتربية الماشية . ولما كانت مصر منذ أمد بعيد مركزاً لعدة صناعات ناجحة طار صيتها في الآفاق ، لم يدخر هؤلاء البطالسة جهداً في توفير السبل لاستمرار انتعاش هذه الصناعات وتقدمها . ولذلك اختطوا لأنفسهم سياسة خارجية مكنتهم من استيراد حاجات الصناعة ، وتصدير منتجاتها الزائدة ، كما أنهم لم يدخروا وسعاً في الانتفاع بمواهب الإغريق لرفع مستوى الصناعات المختلفة . ولم يكن اهتمام البطالسة الأوائل بتجارة مصر الخارجية أقل من اهتمامهم بالزراعة والصناعة ، فقد كانت التجارة الخارجية تلعب دوراً هاماً في حياة مصر الاقتصادية ، فوضع البطالسة نصب أعينهم أن يحافظوا على الطرق التجارية القديمة ، التي كانت تربط مصر بأواسط إفريقية ، وبلاد العرب والهند وفلسطين وسورية وفينيقيا ودول بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، وأن ينشئوا طرقاً جديدة لتسهيل انتشار تجارة مصر ، فوصلت منتجاتها شرقاً حتى الصين ، وغرباً حتى إسبانيا ، وشمالاً حتى بريطانيا ، وجنوباً حتى أواسط إفريقية .

أنعشت سياسة البطالسة الأوائل الاقتصادية موارد مصر ، لكنه لم يكن يراد بهذه السياسة منفعة أهل البلاد أنفسهم ، فإذا جنى المصريون من تضاعف مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ، إذا كان ازدياد مساحة الأرض يرجع قبل كل شيء إلى توفير أراضٍ للإغريق ، وكان الملك هو صاحب أرض مصر ، والحكومة هي القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق وغيرهم من الأجانب هم أقطاب التجارة والصناعة ؟ لقد كان المصريون كالشمعة تحترق لتئير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكسير ، الذي يشقى وينصب ليملاً خزائن سيده بالأموال . يتفق المؤرخون على أن نفوذ البطالسة الأوائل في مصر أو في ولاياتها أو في السياسة الدولية ، كان يرتكز على استغلال الموارد الاقتصادية في مصر وولاياتها ، استغلالاً منظماً دقيقاً ، فلا عجب أن كانت سياستهم الاقتصادية قد وجهت إلى تحقيق أغراضهم التي كانت ترمي إلى تكوين دولة قوية غنية . ونحن نعرف أن غنى الدولة لا يستتبع دائماً غنى رعاياها أوفرهايتهم . ولا شك

أن مشروعات البطالسة الأوائل الخارجية قد كلفتهم نفقات طائلة ، وتمخضت عن ولايات عادت على مصر بخيرات وفيرة ، لكن تلك الخيرات كانت من نصيب خزانة الدولة وحدها ، ولم يجن منها أهل البلاد شيئاً مذكوراً .

وإذا كانت موارد مصر الاقتصادية قد نمت في القرن الثالث . بفضل مجهودات البطالسة الأوائل ، فإن ضعف البطالسة منذ أيام بطليموس الرابع ، الذي أفضى إلى ضياع ممتلكات مصر في الخارج ، وفساد الإدارة ، واضطراب الحالة في الداخل ، قد أدت بطبيعة الحال إلى تناقص مواردها . وتدهور حالتها الاقتصادية ، لكن من المحتمل أنه على رغم ذلك كان ملوك مصر لا يزالون إذذاك أغنى ملوك العالم . وإذا كانت مشروعات البطالسة الأوائل الخارجية كلفتهم نفقات طائلة ، فإن البطالسة الأواخر أنفقوا أيضاً مبالغ كبيرة في محاولة الاحتفاظ بعرشهم . وعلى كل حال فإن البطالسة ، الأوائل منهم والأواخر . كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم ، فعملوا جهد طاقتهم وبقدر ما سمحت لهم الظروف ، على تنمية مواردها وامتصاصها ، دون أن يفعلوا شيئاً لتحسين حالة المصريين ، وهم الذين كانوا الوسيلة الكبرى في غناهم .

أما وقد رأينا أن سياسة البطالسة الاقتصادية كانت ترمى قبل كل شيء إلى تكوين دولة قوية غنية ، فلا عجب إذا عرفنا أن نظامهم المالي أثقل كاهل الأهالي . ولما كان البطالسة يعتبرون أنفسهم أصحاب جميع أراضي مصر بحق الفتح ، وطبقاً لحق الملوك الإلهي وكان أول همهم استغلال هذه الأراضي على أتم وجه قسموها جميعاً قسمين : الأراضي الملكية ، والأراضي الموهوبة . أما الأراضي الملكية فكانت تقسم إلى مساحات صغيرة تؤجرها الحكومة بالمزاد العلني ، في مقابل الجانب الأكبر من المحصول ، وبشروط قاسية ، حتى إن الزراع المصريين الذين كانوا يقومون بفلاحة أغلب هذه الأراضي ، لم يكونوا في الواقع أحسن حالاً من العبيد ، وإن كانوا قانوناً زراعاً أحراراً . أما الأراضي الموهوبة فكانت أربعة أنواع : (١) أراضي المعابد (٢) إقطاعات الجنود (٣) أراضي العطاء أو المنح (٤) أراضي الامتلاك الخاص .

ولما كان البطالسة أصحاب أراضى مصر كلها ، فإنهم فى الواقع لم يمنحوا أرباب الأراضى الموهوبة سوى حق استغلالها مقابل ضريبة معينة . وتمتاز أراضى الامتلاك الخاص بأن الشخص القائم على استغلال الأرض كان يحل له أن يهب حق استغلالها لسواه ، أو أن يبيعه إياه ، أو أن يرهنه له . كما أنه كان يورث أولاده ذلك الحق من بعده . أما أراضى العطاء فإنها كانت تسترد بعد وفاة أصحابها . وكان الملك حتى آخر القرن الثالث يسترد أيضاً إقطاع الجندى عند وفاته ، ليمنحه غالباً لابن الشخص المتوفى إذا كان صالحاً للخدمة ، وفى أواخر القرن الثالث تقرر أن يستولى ابن صاحب الإقطاع على إقطاع أبيه عقب وفاته مباشرة ، لكنه كان لا يحق له أن يستولى على محصول الأرض إلا بعد أن يتم تسجيل انتقال الملكية إليه ، ويحتمل أن هذا الحق امتد فى القرن الأول إلى أقارب الشخص المتوفى إذا لم يكن له أبناء . وكان أرباب الأراضى الموهوبة يقومون على استغلالها فيما عدا أراضى المعابد ، فقد أسند البطالسة إدارتها إلى الحكومة لكي يخضعوا القساوسة لنفوذهم .

ويمكن تلخيص أوجه انتفاع الدولة من الزراعة :

(أولاً) فى استغلال الأراضى الملكية .

(ثانياً) فى تحويل مساحات كبيرة من الأراضى البور إلى أراض منتجة كانت تفرض عليها الضرائب نتيجة لاستغلالها .

(ثالثاً) فى الضرائب ؛ وكانت تختلف قيمتها تبعاً لاختلاف نوع المحصول وجودة الأرض وحالة فيضان النيل .

(رابعاً) فى استغلال المراعى ؛ فقد كان التاج المالك الوحيد لأراضى المراعى وصاحب الحق فى استغلالها ، فمن شاء الانتفاع بها دفع ضريبة معينة ، بل كانت تفرض ضريبة على من زرع علفاً لماشيته بعد انتهاء المحصول . وفى هذه الحالة كان حتماً عليه أن يسلم للدولة ما يزيد من العلف على حاجة ماشيته .

(خامساً) فى احتكار غلة الأرض التى تزرع ككتاناً أو نباتات زيتية ، فقد

كانت الدولة تحدد كل عام مساحتها ، وتحتم بيع المحصول لها بسعر معين ، لأنها

كانت تحتكر صناعة الزيوت والمنسوجات .

أما موارد الدولة من الصناعة فكانت على نوعين :

(أولهما) احتكار بعض الصناعات والحرف مثل الزيوت ، والمنسوجات ، والورق ، والمعادن ، والأحجار ، والملح ؛ والنظرون ، والمصارف ، المالية وسك النقود ، وغيرها .

(ثانيهما) رسوم الترخيص وضرائب الإنتاج ، وكانت تفرض على أرباب الحرف والصناعات التي لم تدخل ضمن دائرة احتكار الحكومة . فقد كان لزاماً على صاحب كل حرفة أو صناعة منها أن يحصل على ترخيص يؤدي عنه الرسم المقرر ، وكان عليه فوق ذلك أن يدفع حصة معينة من أرباحه .

أما موارد الدولة من التجارة فكانت بطبيعة الحال العوائد ، والمكوس ، ولم تقتصر على الصادرات والواردات ، بل كانت تفرض أيضاً على التجارة المتبادلة بين الوجهين القبلي والبحري ، وكذلك بين كل مديرية وأخرى .

وقد كانت الدولة تستمد دخلاً كبيراً من ضرائب شتى . فإنها كانت تفرض ضريبة مقدارها ١٠٪ من قيمة الممتلكات التي تنتقل ملكيتها بالبيع أو التقسيم أو الهبة ، كما كانت تفرض عدة ضرائب أخرى تدفع نقداً مثل ضريبة ٥٪ على أجرة المنازل ، و ٢٪ على ما يباع في الأسواق ، و ٣٣ ١٪ على أبراج الحمام ، وضريبة الرأس وكانت تفرض على جميع الرجال من المصريين عدا القساوسة . وكانت هناك أيضاً ضرائب لشراء تاج من الذهب عند ارتقاء ملك جديد العرش ، وضرائب لسد حاجات الأسطول والمناثر ، وضرائب أخرى لأغراض محلية .

لقد كانت الضرائب نوعين : عيناً ونقداً ، أما الضرائب التي كانت تجبي عيناً فقد أنشأت الدولة من أجلها في المدن والقرى مخازن ملكية ، وكان الزراع يقومون بتوريد مقدار الضريبة المفروضة عليهم إلى المخازن الفرعية ، ثم ينقل ما يتجمع في هذه المخازن إلى المخزن الرئيس للدولة في الإسكندرية على مراكب تابعة للحكومة . أما الضرائب التي كانت تدفع نقداً فإنها كانت تجبي

بطريقة الالتزام ؛ وقد كانت الحكومة تعلن بالمزاد العلني حق التزام جباية الضرائب عن كل مديرية على حدة ، وكان يقوم الملتزمون بتسديد الأموال إلى فروع مصرف الدولة في المدن أو القرى ، وكانت هذه تتولى إرسالها إلى المركز الرئيس لذلك المصرف في الإسكندرية .

(ح) القضاء :

كانت الأغلبية المطلقة من سكان مصر في عصر البطالسة تتألف من المصريين والإغريق ، فكان طبيعياً أن يسترشد البطالسة في وضع نظام القضاء بنظم المصريين والإغريق . ولذلك احتفظوا للمصريين ما استطاعوا بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، وحرصوا على احترام عادات الإغريق وشرائعهم فيما شرعوه لهم من قوانين . وكل ما يمكننا أن نستخلصه من أكداس الوثائق التي وصلت إلينا في هذا الشأن ، أنه كان هناك نظامان للقضاء : أحدهما خاص بالمصريين ، والآخر خاص بالإغريق . ولذلك كان هناك نوعان من المحاكم ، أحدهما قضاته من المصريين ، للفصل في قضايا أهالي البلاد على وفق القوانين الفرعونية ؛ والآخر قضاته من الإغريق ، للفصل في قضايا نزلاء البلاد طبقاً لقوانين المدن الإغريقية وللأحكام الواردة في المراسيم والأوامر الملكية . وكان يوجد أيضاً نوع ثالث من المحاكم ، وهو عبارة عن محاكم مختلطة ، للفصل في القضايا بين المتخاصمين من أجناس مختلفة ، لكن ألغيت هذه المحاكم المختلطة في القرن الثاني . وقد كان القضاء الإغريق يميلون إلى الاعتداء على حقوق القضاة المصريين ، ولذلك أصدر بطليموس السابع (Euergetes II) في عام ١١٨ مرسوماً قضى بأن يكون الفصل في القضايا بين المصريين والإغريق بقضاة مصريين أو إغريق ، تبعاً للغة وثائق القضية ، وبأن الفصل في قضايا المصريين يجب أن يعهد فيه إلى قضاة مصريين . وقد ازداد منذ القرن الثاني تدخل رجال الإدارة في الشؤون القضائية ، وربما كان ذلك نتيجة لالتجاء المتقاضين إليهم في كثير من الأحيان ، مفضلين الوصول إلى حل سريع في قضاياهم على انتظار انعقاد المحاكم .

وكان زراع الاراضى الملكية، وعمال الصناعات التى تحتكرها الحكومة ، وكل موظفى الادارة المالية ، خاضعين لتشريع خاص ، يقوم على تطبيقه وزير المالية ويمثله فى المديرىات ، وقد كان محرما على المتخاصمين — حتى ولو كانوا إغريقاً — فى حالة اختصاصهم مع الإدارة المالية ، أن يستخدموا محامين للدفاع عنهم ، بل كان المحامون الذين يدافعون ضد مصالح الملك عرضة لحرمانهم من ممتلكاتهم .

٥ — الحالة الاجتماعية :

كان ينقسم الخليط الذى يتكون منه سكان مصر فى عصر البطالسة إلى أجنبى ومصريين ، وكان الاغريق أهم عناصر الأجنبى ، وكانوا يعيشون إما فى المدن الاغريقية الثلاث ، وإما فى المدن والقرى المصرية . وقد حرص البطالسة على أن يحتفظ إغريق المدن الاغريقية بصفتهم الاغريقية ، فحرموا عليهم التزوج من المصريين ، ووفروا لهم أغلب سبل الحياة التى ألفوها من قبل ، والتى كانت تساعدهم على الاحتفاظ بإغريقتهم . وأبلغ دليل على اهتمام البطالسة بالحضارة الاغريقية ، ما اختصوا به المدن والجاليات الاغريقية من العناية ، وما أنشئوه فيها من المنتديات والمعاهد ، التى كان أهمها معهد (Museum) الإسكندرية ومكتبتها ، وهما كانا من أهم مظاهر الحضارة الاغريقية فى مصر بأجمعها . كما كانا من بين الأسباب التى أذاعت شهرة الإسكندرية فى العالم القديم ، فقد كانت المكتبة أعظم المكاتب طراً ، وكان المعهد يضم خيرة رجال الأدب والعلوم فى القرن الثالث قبل الميلاد . وإذا كانت أثينا لاتزال تعزّز خلال ذلك القرن بالمكانة الأولى فى حلبة الفلسفة والكوميديا الاجتماعية ، فإن الإسكندرية كانت تفخر بشهرة لاتبارى فى ميدان الأدب ، والجغرافية ، والرياضة ، والطب ، ولذلك كله كانت حياة الإغريق الاجتماعية فى الإسكندرية ، ونقراطيس ، وبطوليميس مثل ثقافتهم العلمية والفنية ، إغريقية بحتة .

ولم يدخر الإغريق خارج المدن الإغريقية وسعاً في أن يعيشوا معيشة إغريقية خالصة ، فكونوا لهم جاليات خاصة بأنفسهم . ولما كانت الجاليات الإغريقية هيئات مكونة على النظم الهلينية ، أنشئت فيها معاهدهم ومنتدياتهم الإغريقية (Palaestrae, gymnasia) ، ولذلك لم تقتصر هذه المعاهد والمنتديات على المدن الإغريقية ، بل وجدت كذلك في عواصم المديریات والقرى التي كان بها عدد وافر من الإغريق ، مثل فيلادلفيا في الفيوم ، والقرية النائية كوم امبو . ويمكننا أن نعرف إلى أي حد كانت ثقافة هؤلاء الإغريق إغريقية ، عند ما نتبين أنهم كانوا شديدي الحرص على إغريقتهم ، في جدهم وهزلهم ؛ فلم تكن التعاليم التي يتلقونها سوى تعاليم إغريقية ، ولم يكن الأدب الذي يتلونه سوى مؤلفات هومر ، ويوريبيديس ، وأفلاطون ، وأرسطو ؛ ولم تكن الأغاني التي ينشدونها سوى أغان إغريقية . هذا إلى أنه توجد وثائق عدة تشير إلى أنه حتى أواخر القرن الثالث كانت الجماعات الإغريقية خالصة في عنصرها ، وأن لغتها الإغريقية لم يطرأ عليها الفساد إلى ذلك الحين .

إذا كنا نستخلص مما مر بنا أن الإغريق الذين وفدوا إلى مصر حملوا معهم من بلادهم ديانتهم ونظام معيشتهم وتعاليمهم ولغتهم وقوانينهم ، وأن أغلب هؤلاء الإغريق كانوا دائماً في بيئة إغريقية ، فقد كانوا يعيشون إما في المدن الإغريقية ، وإما في الجاليات الإغريقية خارج هذه المدن ، وإذا كنا نعرف أن أفواج مهاجري الإغريق كانت تغد باستمرار إلى مصر حتى أواخر القرن الثالث ، فتتفش فيهم ماذوى ، وتجدد ما بلى ، وأن الإغريق كانوا سادة البلاد ، الذين سيطروا على أسمى المناصب فيها ، وقبضوا على ناصية الحكم ، وتمتعوا بمزايا أشعلت نار الحقد والغضب في قلوب المصريين ، فلا شك أن إغريق مصر وسط هذه الظروف قد حافظوا على عاداتهم وتقاليدهم ، فبقوا إغريقاً خالصين حتى نهاية القرن الثالث ، عند ما وقف تيار وفودهم ، ولاحت في الأفق عوامل جديدة كانت لها نتائج ملبوسة .

لا جدال في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية بالنسبة إلى ملايين المصريين الذين استمروا يعيشون كما عاش أجدادهم من قبل ، محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم ، يعبدون آلهتهم ، ويخضعون لقوانينهم الفرعونية . لقد قصر ملايين منهم حياتهم على فلاحه الأرض ، واشتغلت ألوف منهم بالتجارة والصناعة ، واندمج بعضهم في سلك الحكومة ، لكن قلما نعرف من بينهم من شغل مناصب خطيرة في أيام البطالسة الأوائل . ويرجح المؤرخون أن بطليموس الأول سمح لطبقة الأرستقراطية الأهلية بالاحتفاظ بممتلكاتها ، وبشيء من السلطان في الإدارة ، إلا أن بطليموس الثاني والثالث قضيا عليها ، ولذلك نرجح أن القساوسة اختصوا بكل ما كان بعد ذلك من أرستقراطية مصرية في عهد البطالسة .

ويغلب على الظن أن المصريين كانوا يجتمعون في أنديتهم أو في المعابد أو في بيوت الأعيان . ولا نشك أن ثقافة المصريين كانت مصرية ، لكننا نرجح أن الكثيرين منهم تعلموا اللغة الإغريقية ، إذ يحتمل أن الطبقة العليا رأت في ذلك إكالا لمؤهلات أفرادها ، وأن الطبقات الوسطى رأت فيها ضرورة ، لأنها كانت اللغة الرسمية . لكن يجب ألا نبالغ في قيمة تعلم هذه اللغة أو عدد من تعلموها ، فإن اللغة الإغريقية كانت لغة الدخيل المغتصب ، وأن الأمية كانت فاشية ، وإن تعلم لغة ليس معناه دائما اكتساب حضارة أهلها ، ولا سيما أن الهيروغرافية والديموتيقية بقيتا مستعملتين لآعلى جذران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل في اللوائح والقوانين ، وخاصة ما كان منها متعلقا بشئون الضرائب .

نعرف حقا أن نظام الإدارة في عهد البطالسة قام على أسس نظام الفراعة ، كما نعرف أن المصريين كانوا خاضعين لقوانين الفراعة بوجه عام ، لكن كانت الضرائب التي فرضها البطالسة على المصريين فادحة ، واستغلاهم موارد البلاد مجهداً ، ولم يسبق له مثيل . ولم يكتف الإغريق باستيلائهم على أرفع مناصب الدولة ، بل امتدت أيديهم إلى أخصب المزارع . هذا إلى أن جنود البطالسة لم يمنحوا إقطاعات فحسب ، بل مساكن في منازل خاصة أو داخل منازل الأهالي .

ولقد سبق أن ذكرنا كيف قُضى على الأرستقراطية الأهلية، وأذل رجال الدين. وجملة القول أنه لم ينج مصرى من استبداد البطالسة.

إذن كان سكان البلاد عامة ينقسمون إلى طبقتين منفصل بعضهما عن بعض تمام الانفصال: طبقة عليا مكونة من الإغريق، الذين كانوا يحكم البلاد، ويعتقدون أنهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى، ويعيشون في بيئات خاصة بهم، ويحيون حياتهم التي اعتادوها في بلادهم؛ وطبقة سفلى مكونة من المصريين، الذين كانوا خاضعين للأجنبي، ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم، إلا أنهم استمروا يستمسكون بعاداتهم وتقاليدهم، ويذكرون مجدهم القديم. فإذا أضفنا إلى العوامل الوطنية والمصالح المادية، مانعته عن اعتياد المصريين القدماء التزوج من أسرهم، أمكننا أن نوقن تماماً أن التصاهريين المصريين والإغريق في الشطر الأول من حكم البطالسة كان أمراً بعيد الاحتمال، اللهم إلا في بعض حالات خاصة.

وتدل جميع الظواهر على أن الحالة الاجتماعية، أخذت تتغير منذ أواخر القرن الثالث. فإن البطالسة الذين كانوا أكبر عضد للإغريق، أخذوا يتبعون سياسة جديدة، كانت أكثر ميلاً إلى المصريين؛ هذا إلى أنه قد انقطع وفود أفواج جديدة من الإغريق إلى مصر، فكان طبيعياً أن يضعف الروح الإغريق بهذه المؤثرات. لكن تحريم الزواج بين المصريين والإغريق في المدن الإغريقية، وبقاء المعاهد والمنتديات الإغريقية، كانا سبباً في بقاء إغريق المدن الإغريقية خالصين، وإن ضعف فيهم الروح الإغريق.

إن العاملين اللذين أديا إلى تغير الحالة في المدن الإغريقية كان لهما أثر أقوى في الأقاليم، ولا سيما أن أصحاب الإقطاعات قد أصبح مثلهم منذ أواخر القرن الثالث مثل ملاك الأرض العاديين، أى أصبحت لهم مصالح دائمة في البلاد؛ أضف إلى ذلك أن ارتفاع مستوى المصريين، وانخفاض مستوى الإغريق، ساعد على التقرب بين العنصرين، فأدى هذا إلى نتيجتين:

(الأولى) انتشار التعليم الإغريق والآداب الإغريقية بين المصريين. ولما

كانت تسود العالم الإغريق إذ ذاك الفكرة القائلة بأن « قوام الإغريق ثقافته لادمه »، سُوى بين المصريين المتعلمين تعليماً إغريقياً والإغريق، واتخذ المصريون (المتأغرقون) أسماء إغريقية إلى جانب أسمائهم المصرية . لكن لم يكن هؤلاء سوى أقلية، وبقيت الأغلبية العظمى من المصريين بعيدة حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية، فقد كان للمصريين عادات ثابتة، تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان إلى أقدم العصور .

(الثانية) تشجيع الزواج بين المصريين والإغريق، فقد ازداد تدريجاً عدد الإغريق، الذين اتخذوا زوجات مصرية . وكان أولاد هذا الزواج أنصاف إغريق، عاداتهم وطباعهم مصرية، وأسمائهم مصرية أو مصرية وإغريقية . ولا شك أن أنصاف الإغريق كانوا كالمصريين (المتأغربين)، أقرب إلى العقل المصري برغم مظاهرهم الإغريقية . لكن إذا كان الزواج قد ازداد، فإنه لا يحتمل أن كل إغريق الأقاليم، أو معظمهم، قد تزوجوا مصرية، فإن الزواج بين عنصرين يختلف بعضهما عن بعض هذا الاختلاف، لا يمكن أن يكون سوى استثناء، ولا سيما أنهما تعودا أن يعيشا منفصلين خلال قرنين تقريباً . وإذا كنا نعتقد أن الإغريق الذين أصهروا إلى المصريين، تمسكوا بأذيال حضارتهم الإغريقية، وأن بعض المصريين أقبلوا على التعليم الإغريق، فلا شك أن أولئك الإغريق الذين لم يتزوجوا من المصريين، قد تمسكوا بإغريقيتهم، بفضل أثر المدن الإغريقية في مصر، وبقاء المعاهد والمنتديات الإغريقية أينما وجد عدد كاف من الإغريق . لكن إذا كان أثر البيئة جعل إغريق المدن الإغريقية مختلفين تمام الاختلاف عن الإغريق القدماء، فلا ريب أن إغريق الأقاليم كانوا أكثر منهم اختلافاً، وإن كان أغلبهم قد بقوا إغريقاً .

« ثانياً » مصر في عهد الرومان

١ — الفتح الروماني :

لقد مر بنا كيف ازداد نفوذ روما تدريجاً في مصر ، منذ أيام بطليموس الخامس ، وكيف أصبح مصير مصر متعلقاً بمصير الصراع الحزبي في روما منذ وفاة بطليموس الثامن لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالسة مستمسكين باستقلالهم الإسمي على الأقل . وعند ما ارتقت كيلوبترا عرش مصر في عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية في روما ، لعبت كيلوبترا دوراً كادت تجني من ورائه أمبراطورية واسعة على حساب الرومان ، مما أفضى إلى صراع روما مع كيلوبترا ، وهو الصراع الذي تمخض عن القضاء على دولة البطالسة .

بيان ذلك أن كيلوبترا مدت يد المساعدة إلى بومبي في صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب بومبي سوى الهزيمة ، ففر إلى الإسكندرية حيث قتله رجال البلاط . ليبرهنوا لقيصر الذي تبعه إلى هناك أن مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه ، وبذلك لم يبق ثمة داع لغزو مصر . إلا أن قيصر دخل الإسكندرية ، وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف «بحرب الإسكندرية» وطد مركز كيلوبترا على العرش ، واستهوت كيلوبترا قيصر ، فأصبح طوع أمرها . وعند ما غادر مصر خفت إلى زيارته في روما ، حيث أقامت إلى جانبه ، معالة نفسها بارتقاء عرش إمبراطورية واسعة . لكن لم تلبث أن انهارت هذه الآمال عند ما استثارت مطامع قيصر غضب الرومان ، فقصوا عليه في عام ٤٤ ق . م .

بادرت كيلوباترا بالهرب إلى مملكتها ، وأخذت ترقب الصراع الذي نشب في العالم الروماني بين قتلة قيصر وأعدائه دون أن تناصر فريقاً على آخر ، حتى إذا ما انتصر أصدقاء قيصر ، وعلى رأسهم أنطونيوس وأكتافيوس (أغسطس) في خريف عام ٤٢ ، وذهب أنطونيوس لمباشرة شؤون الجزء الشرقي من

الإمبراطورية الرومانية ، أرسل هذا يستدعيها إلى كيليكية ، لتجيب عن تجنبها
معاونة أنصار قيصر . ولم تتردد كيلوباترا في الذهاب إلى طرسوس ، حيث
أحرزت نصراً حاسماً على فؤاد أنطونيوس ، ومن هناك انتقلا لتمضية شتاء عام
٤١ - ٤٠ في جو مصر الممتع . وبقى أنطونيوس في مصر يلهو ويعبث غير آبه
لما كان يحدث في العالم الروماني حتى ربيع عام ٤٠ عند ما عاد إلى روما . وأصلح
ما بينه وبين أغسطس ، وتزوج من أخته أكتافيا ، وحصل على الاعتراف
بسلطانه على الولايات الشرقية . وظل أنطونيوس بعيداً عن كيلوباترا حتى
عام ٣٦ عند ما ذهب إلى سورية ، ليتولى الإشراف على حملته ضد بارديا ،
واشتد به الشوق إلى كيلوباترا . فاستدعاها إلى جانبه . وبعد انتهاء حملته في أوائل
عام ٣٥ عاد إلى مصر ، ثم برحها في نفس العام . ليعيد الكرة على بارديا . وعند
ما علم وهو في طريقه بأن زوجه كانت قادمة إليه أمرها بأن تعدل عن ذلك ،
فكانت تلك الإهانة التي لحقت بأكتافيا أولى الأسباب التي جعلت الحرب
لامناص منها بين أنطونيوس وأغسطس .

لم يقيم أنطونيوس إذ ذاك بحملته ، بل عاد إلى مصر . وفي العام التالي وجه
حملته إلى أرمينية ، وعاد منها مظفراً إلى الإسكندرية ، حيث أقام مهرجان النصر ،
الذي كان يقيمه القواد الرومانيون المنتصرون عادة في روما . وقد أثار ذلك
غضب الرومان ، واشتد خنقهم عند ما ورد إليهم نبأ حفل آخر ، أقيم بعد ذلك
بأيام قليلة ، واشترك فيه أنطونيوس ، ونودي بكيلوباترا ملكة الملكات . ووزعت
بين أبنائهما الولايات الرومانية في الشرق . فرأت كيلوباترا أنها كانت توشك
أن تصبح إمبراطورة العالم ، ورأى أنطونيوس نفسه سيد الشرق . ولم يبق له
إلا أن ينتصر على أغسطس في الصراع المقبل المحتوم بينهما ، لكي يضم الجانب
الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، إلى كنف العرش الذي تربع فوقه مع كيلوباترا ،
فكان أول همه اتخاذ العدة لذلك الصراع . ولم يلبث أن طلق زوجه أكتافيا ،
فأثبت بذلك الطلاق رغبته في أن يصبغ صلته بكيلوباترا بصبغة شرعية ، وأجاب
أغسطس عن ذلك بإعلان الحرب على ملكة مصر لاعلى أنطونيوس ، لكيلا

يتهمه أحد بإشعال نار حرب أهلية . وفي سبتمبر عام ٣١ التحم الفريقان في موقعة أكتيوم ، التي انكشفت عن انتصار أغسطس وفرار كلوبترا وأنطونيوس إلى الإسكندرية ، حيث قدم إليهما أغسطس في صيف عام ٣٠ . وبينما كان يحاصر الإسكندرية لجأت كلوبترا إلى حيلة جعلت أنطونيوس يقضى على نفسه ، لكي تمهد السبيل إلى حسن الاتفاق مع أغسطس ، لكنها أخفقت في استهواء هذا القائد الجديد . وعند ما أحست رغبته في أن يقودها أسيرة إلى روما ، قضت على نفسها هي أيضاً . وسرعان ما تخلص أغسطس من أولادها ليطوى صفحة الماضي ، ويبدأ فصلاً جديداً في تاريخ مصر ، التي أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية .

٢ — سياسة أباطرة الرومان في مصر :

ضم أغسطس مصر إلى الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٠ ق.م . ولما كانت مصر تمتاز عن سائر الولايات الرومانية الأخرى بمركزها الجغرافي الهام ، وثروتها الطائلة ، رأى أغسطس أن يضع لحكم مصر نظاماً خاصاً ، فعندما قسمت الولايات الرومانية في عام ٢٧ ق.م . إلى ولايات خاضعة للسنااتو ، وأخرى للأمبراطور ، كانت مصر في عداد الولايات الأخيرة ، وكان لها مركز ممتاز بين هذه الولايات . فقد أقيم عليها حاكم ذو مرتبة رفيعة يدعى (Praefectus) ، وتقرر ألا يتقلد رجال السنااتو مناصب إدارية في مصر ، بل يحظر عليهم زيارتها دون استئذان الامبراطور في ذلك . ولكن زال هذا القيد عند ما قلت ثروة مصر ، ولم تعد المصدر الوحيد لقمح روما ، فلم يعد يرى الإمبراطور في مصر خطراً يهدده من استيلاء ذوى النفوذ عليها . وكان أول من خرج على قانون أغسطس الإمبراطور ماكزيمس (٢١٧ - ٢١٨ Macrinus) ، فإنه عين إلى جانب حاكم مصر مساعداً له من رجال السنااتو . وليس أدل على نقص أهمية مصر في القرن الثالث ، مما فعله الإمبراطور سفيرس إسكندر (٢٢٢ - ٢٣٥ Severus Alexander) ، فإنه عند ما ثار عليه بعض الجنود

عين زعيمهم حاكماً على مصر ، لا إرضاء له ، وإنما لإقصائه إلى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

لقد اعتمد الرومان في توطيد سلطانهم في مصر على القوة قبل كل شيء ، فأقاموا حاميات عسكرية في الأماكن الرئيسة ، التي تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك وضعوا حامية رومانية في نيكوبوليس (Nikopolis) ، على بعد أربعة أميال شرقي الإسكندرية ، لتلقى الرعب في سكان العاصمة ، التي أثبتت الحوادث أنها كانت أشد معاقل التأثيرين خطراً في الدلتا ، في أيام البطالسة الأواخر . وأقام الرومان حاميات أخرى في بابلون (Babylon) ، التي كانت مفتاح الوجه البحري ، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر ، وعلى شواطئ هذا البحر ، لضمان سلامة التجارة الشرقية . لكن لم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر ، بل لجئوا أيضاً إلى الأساليب السياسية .

كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومانيين المصريون والإغريق واليهود . وكان يقطن في الإسكندرية أكبر مجموعة من الإغريق واليهود . وقد رأى الأباطرة في إخضاع الإسكندرية أكبر ضمان لإخضاع مصر ، فلجئوا إلى سياسة التفرقة بين الإغريق واليهود في الإسكندرية ، ولذلك رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن يعيدوا إلى الإغريق مجالسهم النيابية . وإذا كان قد بقي للعاصمة حكامها الذين كان ينتخبهم المواطنون من بينهم ، فإنه لم تكن لهم سلطة إدارية . ألم كل ذلك الإغريق ولا سيما أن اليهود منحوا كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عصر البطالسة . وقد والى أغسطس هذه المنح على اليهود ، على الرغم من أن الإغريق رجوا منه أن يحرم اليهود إياها ، فتملك الغضب قلوب الإغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالسة ، وخضوعهم لآمة لم ترتفع إلى مستوى حضارتهم ، ومحابة الرومان لليهود . وقد زاد في حقد الإغريق على اليهود أن هؤلاء بادروا إلى الترحيب بالرومان ، والالتفاف حولهم ، فنقم الإغريق على الرومان واليهود ، وأخفت

عداوة الإغريق لليهود كرههم الدفين الرومان . لكن إذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بحقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، فإنهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية ، التي كان يتمتع بها الإغريق ، فحق اليهود أيضاً على الإغريق . ولذلك كله لم يكن هناك بد من وقوع صدام بين الإغريق واليهود . وفي عصر كاليجولا (Caligula ٣٧ - ٤١) استعرت نار العداء بين الإغريق واليهود ، فقد استباح الإغريق حرمة المعابد اليهودية ، ونهبوا بيوت أعدائهم ، وأنزلوا بهم أقصى صنوف العذاب ، وأفلحوا في حمل الحاكم الروماني على حرمان اليهود مؤقتاً من امتيازاتهم ، وعلى جلد عدد من شيوخهم . وأرسل كل فريق من المتنازعين وفداً لبسط شكواه أمام الإمبراطور ، لكنه أعرض عنهم . وعند ما ارتقى كلوديس (Claudius ٤١ - ٥٤) العرش عاد وفدا الإغريق واليهود إلى روما ، فأيد الإمبراطور حقوق الإغريق المدنية ، لكنه رفض منح الإسكندرية مجلساً للسناتو ، ورفض منح اليهود الحقوق المدنية ، وأمر الفريقين بأن يكفيا عن تطاحنهما الدموي . فهدأت الحال بضع سنين ، ثم تجدد النزاع ثانية ، وسرعان ما حجت الوفود مرة أخرى إلى روما . وكان النصر حليف اليهود هذه المرة ، فإن كلوديس أمر بقتل زعيمى الإغريق . وفي عصر نيرون (Nero ٥٤ - ٦٨) اشتد النزاع بين الإغريق واليهود ، ولم ينته قبل أن قضى على نحو من ٥٠,٠٠٠ يهودي . لقد كان الشقاق بين اليهود والإغريق كالخمي الحبيثة المتقطعة . تخف وطأتها وتهدأ حيناً . ثم تعود إلى الظهور وتشتد حيناً آخر . وفي عصر تراجان (Trajanus ٩٨ - ١١٧) رفع هذا الداء المخيف رأسه ثلاث مرات ، كان أشدها هولاً في عام ١١٥ عند ما أشعل اليهود لهيب الثورة في مصر وبرقة ، وآلت السلطة إليهم في الأقاليم برهة وجيزة ، فأعملوا القتل بين الإغريق ، ولجأ هؤلاء إلى الإسكندرية ، حيث قضوا على كل من وصلت إليه أيديهم من اليهود ، وتفاقت الحال ، حتى اضطرت الحكومة إلى تجنيد فرق من الزراع المصريين . لكن استمر القتال حتى نهكت حرب جودايا (Judaea) الثانية قوى اليهود ، وبعد وفاة تراجان وارتقاء هادريان (Hadrianus ١١٧ - ١٣٨)

العرش . ثم أخذ الفريقان إلى السكينة حتى أواخر أيام هذا الإمبراطور ، عند ما شهدت مصر آخر الاضطرابات اليهودية ، لكن يبدو أنها لم تكن ذات بال . وإذا كان الأباطرة الأوائل قد حرموا الإغريق مجالسهم النيابية ، ليقبلوا أظافرهم ، ويجعلوهم أكثر خضوعاً لهم ، واعتماداً عليهم ، فإن الإمبراطور سبتيمس سيفرس (١٩٣ — ٢١١ Septimius Severus) عند ما زار مصر في عام ١٩٩ — ٢٠٠ ، منح الإسكندرية وعواصم المديريات مجالس للسناو ، بل إن خليفته كركلا (٢١١ — ٢١٧ Caracalla) منح الإغريق الحقوق المدنية الرومانية (Civitas Romana) . وعلى كل حال فإن الأباطرة بوجه عام ، أظهروا عطفهم على الحضارة الإغريقية ، فشمّلوا برعايتهم معاهد الإغريق العلمية ، وخاصة معهد الاسكندرية ، وأبقوا اللغة الإغريقية لغة البلاد الرسمية . ولم تستعمل اللغة اللاتينية إلا في الجيش ، واللوائح المتعلقة بالقانون الروماني ، وحرّموا التزاوج بين المصريين ، وإغريق المدن الإغريقية . وقد أسس هادريان عندما زار مصر في عام ١٣٠ مدينة أنطينوبوليس (Antinoopolis) ، لتكون مركزاً جديداً للحضارة الإغريقية في مصر العليا . وأباح الرومان للإغريق حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة ، فبقوا على ولائهم لها مدة طويلة .

لم ير المصريون في انتقال الحكم من البطالسة إلى الرومان أكثر من قيام مغتصب مكان مغتصب آخر . ولم يصحب هذا الانتقال اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة عند انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة أزمان الفراعنة . ولا يسترعى انتباهنا بعد ثورات المصريين التي حدثت في أوائل حكم الرومان سوى الثورة التي نشبت في عصر ماركس أورلياس (١٦١ — ١٨٠ Marcus Aurelius) بين المصريين في الدلتا ، وعرفت « بحرب الزراع » . وهزمت في خلالها الفرق الرومانية ، وكادت تقع الإسكندرية في قبضة الثائرين ، إلا أن النجدة التي قدمت من سورية قضت على تلك الثورة . وقد رأى الأباطرة أن يصبغوا مركزهم صبغة شرعية في نظر المصريين ، فاتخذوا صفة الفراعنة ، كما فعل البطالسة من قبلهم ، بل إن حاكم مصر الروماني أيضاً كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل

وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ، ويمثل دور الفرعون في غير ذلك من شتى المظاهر . ولم يتعرض الرومان للمصريين في معتقداتهم الدينية القديمة ، فأطلقوا لهم حرية التمسك بها ، وقد كانوا في بادئ الأمر ينظرون إلى تلك المعتقدات نظرة احتقار ، لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون إلى تعرف أسرارها ، فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير ، وما عثم الغزاة الفاتحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهة ، وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم في عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، بل أقاموا التماثيل والمعابد لبعضها ، حتى في روما العظيمة نفسها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير الفكري الذي طرأ على الرومان ، من حيث تقديرهم للآلهة المصرية البحتة ، أن أغسطس أبى واستكبر أن يرى العجل المقدس أيبس ، لكن تيتس (٧٩-٨١ Titus) شهد الاحتفال بتكريسه ، وأظهر احترامه لآلهة المصريين ، فوضع بذلك أساس سياسة جديدة ، نلس أثرها في بدء تصوير الآلهة المحلية في المديریات على نقود الإسكندرية ، منذ عصر دوميشان (٨١-٩٦ Domitianus) ، وكذلك في تشييه زوج تراجان بالآلهة هاتور . فلا عجب بعد ذلك إذا علمنا أن المصريين تمسكوا بعبادتهم القديمة أمداً طويلاً ، غاية الأمر أن الرومان احتفظوا لأنفسهم بالإشراف المطابق على رجال الدين .

إن ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعنى أنهم انصرفوا عن عبادة آلهتهم الأصلية ، فقد أدخلوا عبادة هذه الآلهة في مصر ، كما أدخل الإغريق من قبل في عهد البطالسة عبادة آلهتهم الاغريقية . ونقلوا عن البطالسة عبادة الملوك ، فقرنوا الأباطرة بالآلهة ، مثل أغسطس بزيوس اليوثريس (Zeus Eleutherius) ونيرون بأجثديمون (Agathadaemon) ، وبلوتينا (Plotina) بأفروديتي (Aphrodite) ، لكن لم يفرض الرومان على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومي ، وهو ما كان يبذل الرومان جهدهم لاتقائه . وكان الرومان يعبدون أيضاً بعض آلهة المصريين بالاشتراك مع آلهتهم ، مثل عبادة النيل مقترناً بإيوثينيا (Euthyneia) ،

كما أنهم أخذوا عن الإغريق عبادة ثلاث الإسكندرية المقدس، وعبادة الآلهة المصرية، التي أُسبغت عليها أسماء إغريقية.

يبدو مما مر بنا أن الرومان أباحوا لليهود والإغريق والمصريين حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة، لكنهم حاولوا مدة طويلة أن يعوقوا اعتناقهم المسيحية. إن قرب مصر من فلسطين جعلها في طليعة البلاد التي تسرب إليها الدين الجديد خلال القرن الأول، وأخذ ينتشر خفية هناك، ولا سيما في الإسكندرية والوجه البحري، وأصبح عدد المسيحيين كافياً لتصيب مطارئة للإسكندرية.

وقد ازداد أعوان المسيحية في القرن الثاني، وخاصة عندما نُصب ديمتريس في آخر عهد كومودس (Commodus ١٨٠—١٩٢) مطرانا للإسكندرية، وعلى يده تمت رسامة قسس عدة تبعاً لانتشار المسيحية. وأدى انتشارها إلى إثارة مخاوف الرومان، ومن ثم عملوا على اضطهاد دعايتها وأنصارها، ولجئوا إلى وسائل القهر لصد الناس عنها. وكان بدء اضطهاد الحكومة للمسيحيين في مصر اضطهاداً منتظماً خلال حكم الإمبراطور سبتميس سفرس (١٩٣—٢١١)، وبلغ أشده في أواخر عصر ديوكليشان (Diocletianus ٢٨٤—٣٠٥). وتركت هذه الاضطهادات أثراً عميقاً في النفوس، إلى حد أن الكنيسة المصرية استمرت بضعة قرون تستعمل لتأريخها «عصر الشهداء»، ابتداءً من حكم ديوكليشان.

لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تقف في سبيل انتشار الدين الجديد، حتى تمت له الغلبة في عصر قنسطنطين الأول (Constantinus ٣٢٣—٣٣٧)، عندما اعترفت الدولة رسمياً بالمسيحية. ومن ثم وقف المسيحيون أنفسهم للقضاء على الوثنية، اللهم إلا إذا استثنينا الفترة القصيرة التي ارتفع فيها على العرش الإمبراطور الوثني جوليان (Julianus ٣٦١—٣٦٣). وقد تابع المسيحيون نشر دينهم بنفس القسوة التي حاول بها أنصار الديانة القديمة إخماد جذوة المسيحية. وأبلغ دليل على قسوة الرهبان مقتل الفيلسوفة هيبشيا (Hypatia) في الإسكندرية، يابعا من البطريك سيرل (Cyril). ويبدو أن رجال الكنيسة كانوا يعتقدون أنه يحق لكل منهم أن يتصرف كما يترامى له مع الوثنيين

وتملكاتهم . وقد حالف انتشار المسيحية في مصر انتشار عادة التنسك في الأديار التي أخذها المسيحيون عن اليهود . وسرعان ما ازداد عدد الأديار إلى أن أصبح يعترف بها القانون في أواخر القرن الرابع كجماعات يحق لها إحراز ممتلكات ، كما أنها أصبحت عقبة كئودا في سبيل الحكومة ، بسبب كثرة عدد أتباعها الذين ادعوا لأنفسهم حق إعفائهم من الجندية والوظائف غير المأجورة .

وقد ساعد على انتشار المسيحية في مصر ، أنه عندما ارتقى الإمبراطور ثيودوزيوس (Theodosius ٣٧٩—٣٩٥) العرش فرض المسيحية قسراً في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية . ونُفذ قرار الإمبراطور دون هوادة في الإسكندرية والوجه البحري . بل ذهب الرهبان في تنفيذه إلى أبعد مدى ، فقد كان القرار يقضى بإغلاق كل المعابد التي كانت تُقدم فيها القرابين ، لكن استمد الرهبان من ذلك القرار السلطة لهدموا المعابد . أما في الوجه القبلي ، فإن سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى إذا شاء رجال الإدارة تنفيذه ، وكان أغلبهم في الواقع مسيحيين غير متحمسين ، أو إداريين متبصرين ، لم يشاءوا أن يفرضوا ديناً معيناً على الشعب دون رغبته ، ولا سيما أن تصرفات زعماء المسيحية كانت تسبب لهم مضايقات كثيرة . وإذا كانت الحكومة المركزية تؤيد المسيحية على الدوام تقريباً ، فإنها لم تتردد في استخدام الآلهة القديمة لأغراض سياسية ، فإنه عندما عقد الصلح في عصر مارسيان (Marcianus ٤٥٠—٤٥٧) مع القبائل النوبية ، التي أغارت على حدود مصر الجنوبية ، كان من بين شروط الصلح السماح لها بزيارة معبد إيزيس في فيلا ، وباستعارة تمثال هذه الإلهة في أوقات معينة . ولا شك أن هذا ينهض دليلاً لاعلى استمرار الوثنية في فيلا فحسب ، بل أيضاً على أن الحكومة كانت تعترف بتلك العبادة ، حتى إنها كانت تتخذ منها وسيلة للنجاح في المفاوضات . وما كادت تتخلص المسيحية من اضطهاد الحكومة ، حتى عانت متاعب جمة من جراء الخلاف الطائفي ، الذي نشب عن تفسير طبيعة المسيح عليه السلام بين زعمي المسيحيين في مصر: أثنازيوس (Athanasius) وأريوس (Arius) ،

فانقسم المسيحيون في مصر إلى طائفتين : اليعاقة (Jacobites) أى أتباع مذهب المونوفيزيت (Monophysite) ، وكانوا الغالبية العظمى ، والملكائين (Melkites) أى دعاة مذهب الدوفيزيت (Duophysite) وكانوا الأقلية . وفي بداية مراحل الخلاف طالب إلى الإمبراطور قنسطنطين الأول إبداء رأيه ، فدعا المطارنة إلى الاجتماع في عام ٣٢٥ في نيكايا (Nikaia) ، حيث بحث مجمع المطارنة في الموضوع ، وقرر طرد أريوس من الكنيسة ونفيه . ولكنه عند ما أوضح وجهة نظره للإمبراطور عفا عنه ، وأمر أثنازيوس الذى كان إذ ذاك مطران الإسكندرية بقبول أريوس ثانية في الكنيسة . وعند ما رفض أثنازيوس إطاعة هذا الأمر ، دُعى أمام مجمع للمطارنة عقد في صور في عام ٣٣٥ ، وقرر عزله ونفيه . وإذا استثنينا جوفيان (Jovianus ٣٦٤—٣٦٣) وبازيلسكس (Basiliscus) الذى اغتصب العرش من ٤٧٥—٤٧٧ ، فإننا نلاحظ أن الأباطرة بوجه عام اتخذوا منذ بداية الخلاف تقريبا خطة مناوئة لغالبية المسيحيين في مصر ، فاحتدم النزاع بين اليعاقة من ناحية وبين الملكائين والأباطرة من ناحية أخرى . ولم يكن هذا النزاع أقل عنفا وسفك دم من اضطهاد المسيحية على يد الوثنيين ، أو اضطهاد الوثنية على يد المسيحيين . وقد انكشفت هذه الخلافات الدينية عن نتائج سياسية بعيدة المدى ، فإن إقحام الإمبراطور في الخلافات الدينية أدى إلى :

(أولا) انفصال الولايات الشرقية عن الولايات الغربية في الإمبراطورية الرومانية : فإن الخلاف في رأى الذى نشأ بعد وفاة قنسطنطين الأول بين ابنه قنسطنس (Constans) وقنسطنطيس (Constantius) على مسألة نفي أثنازيوس ، بأمر من الأخير ، كان أساس الخلافات التى بدأت على هذا النحو بين روما والقسطنطينية ، واستمرت بعد ذلك بأشكال مختلفة في كل المشا كل التى أدت إلى انفصال إحداهما عن الأخرى : بائيا .

(ثانياً) تدخل رجال الدين في الشؤون المدنية : فإنه بسبب تدخل الإمبراطور في الشؤون الدينية ، ومناوأة غالبية المسيحيين في مصر ، كان طبعيا

ألا يصبح مطارنتهم قادتهم الدينيين فحسب ، بل صاروا زعماءهم الوطنيين في مقاومة الأباطرة ، وبذلك اتخذت الخلافات الدينية طابعاً وطنياً زادها شدة وحدة . هذا إلى أن المطارنة ادعوا لأنفسهم سلطة مدنية ، كما يبدو جلياً من سير الحوادث ، فإن أثنازيوس عندما كان مطران الإسكندرية في عصر قسطنطين الأول ، حاول جباية ضريبة لمساعدة الكنيسة ، وعند ما أصبح ثيوفيلوس (Theophilus) بطريرك الإسكندرية في عصر أركاديوس (٣٩٥ — ٤٠٨ Arcadius) اعتبر مخالفه في الرأي تأثيراً على سلطته ، ثم على سلطة الحكومة ، ولذلك قاد بعض الجنود ، ودمر عدداً من الأديارات التي كان ينزل بها أعداؤه الدينيون . أما سيرل (Cyril) الذي كان بطريرك الإسكندرية في عهد ثيودوزيوس الثاني (٤٠٨ — ٤٥٠) فإنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد كان في الواقع حاكم الإسكندرية ، وعجز حاكمها الرسمي عن إنقاذ يهود العاصمة أو أتباع مدارسها الفلسفية من أذى رجال البطريرك ، وعند ماضاق مارسيان (٤٥٠ — ٤٥٧) ذرعا بالإسكندرانيين ، فأراد أن يحرمهم زعيمهم الذي كان يقود ثورتهم على رجال الإدارة ، عقد مجمعاً للمطارنة في خلقدنيا (Chalkedon) في عام ٤٥١ ، وحصل منهم على قرار بطرد ديوسكورس (Dioscurus) بطريرك الإسكندرية من الكنيسة ، وأقام في مكانه كاهناً من قبله . لكنه لم يزد النار إلا لهيباً ، ولم يكن نصيب هذا الكاهن سوى القتل في عصر ليوا الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) . وعلى الرغم من ذلك أصر الإمبراطور على مناوأة اليعاقبة ، وعين بطريركاً آخر لاقى من بعده تأييد الإمبراطور زينو (٤٧٤ — ٤٩١ Zeno) ، فاستمر النزاع والاضطراب . وقد كان نتيجة الإصرار على اتباع هذه السياسة الخائبة أن منح الإمبراطور جوستينيان (٥٢٧ — ٥٦٥ Justinian) لثالث بطريرك عينه ، سلطة مدنية خولته إشرافاً مباشراً على الجنود ، لتنفيذ إرادته ، فأفاح هذا البطريرك في تهدة تآثر الإسكندرانيين ، لكنه لم يتمتع بنفوذ ديني كبير ، فقد كان أغلب المسيحيين في مصر يعتبرون رئيسهم الديني البطريرك اليعقوبي ، أي المونوفيزيتي ، الذي كانت تنتخبه الكنائس المحلية .

(ثالثاً) زوال حكم الرومان في مصر ؛ فإن الخلافات الدينية التي عانتها مصر لم تنهك قوى البلاد فحسب ، بسبب أعمال الاضطهاد والتخريب في الإدارة ، وتدهور الحالة الاقتصادية ، بل كذلك قوضت دعائم النفوذ الروماني في مصر ، وذلك نتيجة للدور الذي لعبه الأباطرة والحكام في هذه الخلافات ، فقد أغفلوا من حسابهم إرادة الشعب ورغباته . فلا عجب أن أقدم الفرس على فتح مصر في عام ٦١٦ ؛ لكن لم يعمر حكمهم أكثر من عشر سنين ، وبسط الرومان سيادتهم عليها ثانية ، إلا أن عمرو بن العاص لم يجد مشقة في فتح مصر والقضاء على حكم الرومان فيها في عام ٦٤٢ .

٣ — نظم الحكم في مصر في العصر الروماني :

(١) النظام الإداري :

١ — من الفتح الروماني حتى نهاية القرن الثاني : لم يدخل الرومان على نظام الإدارة في مصر تعديلات أكثر مما تطلبت الظروف ، لأن سياسة الرومان بوجه عام خلال فتوحاتهم في الشرق ، كانت تقضى بتجنب تغيير النظم ما أمكن في البلاد التي تتمتع بإدارة منظمة .

لما كانت روما في حاجة قصوى إلى الانتفاع بموارد مصر الطائلة في تخفيف عبء ماليتها ، وإمداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، ولما كان في وقوع مصر في يد قوية مناوئة للإمبراطور ، أو في قيام اضطرابات بين الأهالي ، خطر يهدد كيان الإمبراطور ، حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لإشرافهم مباشرة ، وعلى ألا يتولى رجال السناتو أو من في مرتبتهم مناصب إدارية في مصر ، أو يدخلوها دون استئذانهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطياً . ولذلك أسندت المناصب الرئيسة في السلطة المركزية إلى رومانيين يوفدهم الأباطرة من قبلهم ، ويستبقونهم في مناصبهم أو يعزلونهم كما يترامى لهم . وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام

(Prefect) كان يتمتع بمعظم السلطة التي كانت من نصيب الملك في عهد البطالسة ، فإنه كان يهيمن على إدارة البلاد العامة وشؤونها المالية والقضائية تحت إشراف الأباطرة مباشرة . وكان يلي الحاكم العام في الهيمنة على الشؤون القضائية موظف يدعى ديكايودوتس (Dikaiodotes) يرجح أنه كان الرئيس الفعلي في الشؤون القضائية . أما في الشؤون المالية فكان للحاكم العام مساعدان هما الإديولوجوس (Idiologos) والديويكتيس (Dioiketes) ، اللذان يجوز اعتبارهما مستشارين للحاكم العام في الشؤون المالية ، ورقيين على تصرفاته . وكان لهما وكلاء (Epitropoi أو Procuratores) يمثلون الإدارة المالية المركزية في الإشراف على موارد الدولة المختلفة في أنحاء البلاد .

ومن أجل تسهيل الإدارة العامة قسمت البلاد منذ أوائل أيام الإمبراطورية ثلاثة أقسام : الدلتا ، ومصر الوسطى ، ومصر السفلى ؛ وأسندت إدارة كل قسم إلى إبستراتيجوس (Epistrategos) ، وكان يعين الإمبراطور هؤلاء الحكام (Epistrategoi) ، إلا أنهم كانوا يخضعون للحاكم العام مباشرة ، ويستمدون منه معظم سلطتهم ، وقد كان اختصاصهم إدارياً بحتاً .

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة ينقسم إلى مديريات ، على رأس كل منها قائد كان يلي حاكم القسم في المرتبة ، ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا الشؤون المالية ، فإنه كان يرجع فيها إلى الإدارة المالية المركزية في الإسكندرية . ولم يكن للقائد أى اختصاص حربي ، لكن كان يمتد نفوذه إلى جميع نواحي الإدارة المدنية . وكان يلي القائد في المرتبة الكاتب الملكي ، وكان أهم اختصاصاته متعلقاً بالشؤون المالية في الإدارة المحلية . وكان يجيء بعد الكاتب الملكي رؤساء مكتب السجلات ، الذي كان ينقسم قسمين ، أحدهما خاص بالأراضي ، والآخر بالإحصائيات المالية ، وكان يشرف على كل من هذين القسمين رئيسان (Bibleophylakes) .

وكان مقر إدارة كل مديرية في عاصمتها ، ولم تتمتع تلك العواصم حتى نهاية القرن الثاني باستقلال محلي ، على أنه كان لكل منها عدد من الحكام غير

المأجورين ، لم يكونوا حتى عام ٢٠٠ هيئة ذات سلطة إجماعية . وكان يمثل السلطة المركزية في إدارة تلك المدن القائد وكاتب المدينة .

وكانت تنقسم كل مديرية إلى عدد من القرى ، يدير الشؤون المحلية في كل منها جماعة من شيوخها ، كانوا حلقة الاتصال بين الأهالي والحكومة في دفع الضرائب ، كما كانوا يراقبون فلاحه أراضي القرية ، ويمدون الحكومة بما تطلبه من العمال أو الجنود ، لخدمتها في وقت الحاجة ، وكانوا أيضاً مسؤولين أمام القائد عن حالة الأمن في قراهم . ولا نعرف طريقة انتخاب شيوخ القرية ، وربما كان وجودهم يرجع إلى رغبة الحكومة الرومانية في إيجاد وسيلة تزيد اطمئنانها على الحصول على ضرائب القرى ، لأن هؤلاء الشيوخ كانوا مسؤولين شخصياً عن تسديد ضرائب كل قرية ، ويرجح أن خدمتهم كانت فرضاً إجبارياً على أثرياء كل قرية مدة عام بدون أجر . وكان يمثل السلطة المركزية في إدارة كل قرية رئيس البوليس وكاتب القرية .

لقد كانت المدن الاغريقية خارج نفوذ السلطة المحلية ، وكانت تتمتع ثلاث منها بشيء من الاستقلال الذاتي في إدارة شئونها المحلية ، فقد كان لكل من نقراتيس و بطوليميس وأنطينيوبوليس دستور إغريقي ، أهم قواعده مجلس وهيئة حكام خاصة . أما الإسكندرية فإنه لم يكن لها مجلس للسنوات حتى نهاية القرن الثاني ، وكان يدير شئونها هيئة حكام خاصة ، تتكون من مثل حكام عواصم المديرية ، ومن ممثلي السلطة المركزية ، (Archidikastes و Hypomnematographos ، وكانا ينوبان عن الحاكم العام في الشؤون القضائية و Nukterinos Strategos وكان رئيس بوليس المدينة) .

٢ - في القرن الثالث : شاهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة مطردة في تطبيق مبدأ المناصب غير المأجورة . ويبدو أنه في بداية الأمر كان يتولى أغلب المناصب المحلية في المدن أشخاص متطوعون من الأثرياء ، لكن بمضي الوقت عند ما تعذر وجود أشخاص قادرين مستعدين لتحمل تبعات تلك المناصب ، قسم اختصاص كل منصب بين عدة أفراد . ومنذ بداية القرن

الثاني بعد الميلاد أصبحت القاعدة إرغام الأفراد المناسبين من أهالي المدن والقرى على ملء المناصب غير المأجورة في الإدارة المحلية مدة معينة. وكان يقضى النظام نظرياً بالألا يرغم شخص على تولي منصب غير مأجور مرة أخرى قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه المنصب مرة سابقة، وكان يُعفى من تولي الوظائف غير المأجورة المواطنون الرومانيون وقدماء المحاربين ومواطنو الإسكندرية وأنطونيوبوليس خارج هاتين المدينتين، والأطباء العموميون، وأساتذة معهد الإسكندرية، والفائزون في المباريات العامة، وعدد معين من قساوسة كل معبد، والعجزة. لكن عند ما قل عدد الأشخاص اللاتقين لتولي هذه المناصب، ازداد تدريجياً تغاضى الحكومة عن هذه الاعفاءات؛ وعند ما زار الإمبراطور سبتيمس سفرس مصر في عام ٢٠٠، ورأى أن الاضمحلال قد أخذ يدب في موارد البلاد، وأن الإدارة الحكومية المحلية توشك أن تتداعى، أدخل بعض التعديلات على نظام الإدارة المحلية، مؤملاً أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر.

ولما كان محور هذه التعديلات منح الإسكندرية وعواصم المديريات مجالس للسنااتو، فإنه لم يكن لهذه التعديلات أثر جوهري في السلطة المركزية، أو في إدارة المدن الإغريقية الأخرى. وقد انتقل إلى هذه المجالس تعيين كبار الحكام المحليين. وكان السنااتو يرشح أيضاً الأشخاص الملائمين لأداء مهام أخرى دون أجر. وأصبح من اختصاص السنااتو تعيين جباة الضرائب في كافة أنحاء المديرية. وتعيين المراقبين الذين يشرفون على جمعها، لأن السنااتو كان الضامن الأخير لتسديد ضرائب الحكومة. وقد كان أساس النظام الجديد تقسيم كل مديرية إلى أقاليم (Toparchies) يختار لكل منها مراقبان (Dekaprottoi) كانوا عادة من رجال السنااتو، للإشراف على جباة الضرائب (Praktores) وغيرهم. وترتب على هذا النظام إحياء وظيفة حاكم الأقاليم (Toparch). وقد أدى تكوين السنااتو إلى إيجاد مراكز إدارية جديدة، أهمها مركز (Prytanis)، الذي كان يرأس السنااتو وينفذ قراراته؛ ومركز (Hypomnematogratophos) الذي يرجح أنه كان بمنزلة كاتب المدينة؛

ومركز (Syndikos) وكان مستشار السناتو فيما يتعلق بالشئون الدستورية ؛
ومركز (Tamias) الذى كان يختص بشئون المدينة المالية ؛ ومركز
(Nuktostrategos) وكان رئيس بوليس المدينة . ويجب ألا يغيب عن البال
أن سلطة السناتو الإدارية كانت مقصورة على عاصمة المديرية ، ولم تمتد إلى كل
تلك المديرية التى كانت هى مقر إدارتها .

وكان أهم التعديلات التى أدخلت على إدارة القرى إحياء وظيفة حاكم القرية
(Komarch) ، والقضاء تدريجياً على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ،
فقد أسندت الإدارة إلى حكام القرى الذين كانوا اثنين عادة فى كل قرية . وكانت
وظيفة هؤلاء الحكام غير مأجورة ، ويبدو أنها كانت لمدة عام واحد . وكان
حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج إليهم الإدارة من موظفين . لكنهم
كانوا لا يتولون مهامهم قبل أن يوافق القائد على اختيارهم .

لا شك أن التعديلات التى أدخلها سبتميس سفرس على نظام الإدارة
اعتراف صريح بإخفاق النظام القديم ؛ ولا شك أيضاً أنه كان يبنى من وراء
منحه الأهالى شيئاً من الاستقلال المحلى إنعاش حالة البلاد الاقتصادية ، وإيجاد
وسيلة تعطى الإمبراطور ضماناً أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لاهذه
التعديلات ولا الحقوق المدنية الرومانية التى منحها كركلا الإغريق . أفلحت
فى إنعاش حالة البلاد . بل أخذت تسير من سيئ إلى أسوأ ، مما حفز الإمبراطور
ديوكليشان إلى إعادة تنظيم الإدارة من أسسها إلى أعاليها .

٣ — فى العصر البيزنطى : عدل ديوكليشان عن محاولة وضع نظام خاص
لإدارة مصر ، وجعل إدارتها شبيهة بإدارة الولايات الرومانية الأخرى .
ويجدر بنا هنا أن نتوه بأن هذا الإمبراطور قسم الإمبراطورية الرومانية إلى
قسمين رئيسيين : قسم شرقى وقسم غربى ، وجعل مصر تابعة للقسم الشرقى ،
الذى أصبحت فيه آسيا محور الإمبراطورية بدلا من إيطاليا ، فمهد السبيل
للإمبراطور قنسطنطين الأول ، الذى اتخذ من بيزنطة عاصمة الإمبراطورية
الرومانية الشرقية فى عام ٣٢٨ ، وأطلق عليها اسم القسطنطينية . لقد أبقى

ديوكليشان مصر وحدة إدارية واحدة ، وإن كان قسمها إلى ثلاث مقاطعات :
(Thebais, Aegyptus Herculia, Aegyptus Jovia) يحتمل
أنها كانت تقابل أقسام الدلتا ، ومصر الوسطى ومصر العليا ، التي كانت أقسام
مصر في النصف الأول من حكم الرومان . وفي خلال القرن الرابع تكونت
مقاطعة رابعة (Augustamnica) من الأقاليم الشرقية في المقاطعتين الأولى
والثانية ، ثم أضيفت ليبيا إلى مصر ، فأصبحت المقاطعات خمساً ، وغير
اسم المقاطعتين الأولى والثانية ، فأصبحتا على التعاقب Arcadia, Aegyptus.
ولم يحدث تغيير بعد ذلك سوى تقسيم كل مقاطعة من مقاطعات Aegyptus
Thebais, Augustamnica وليبيا قسمين. وقد كان ديوكليشان يرى ضرورة
فصل السلطتين المدنية والعسكرية ، فوضع على رأس السلطة المدنية حاكماً عاماً
(Praefectus Aegypti) يهيمن على الإدارة والمالية والقضاء ، وأسند
قيادة الجنود إلى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام
مباشرة ، أما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء (Praesides)
يقيم كل منهم في مقاطعته ، لكنهم يخضعون للحاكم العام. وعند ما ضمت ليبيا إلى
مصر منح الحاكم العام لقباً ممتازاً (Praefectus Augustalis) ، وقسمت
قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص (Dux Libyarum, Dux Thebais, Comes Aegypti).

وفي عام ٥٣٨ هـ أدخل جوستينيان تعديلات على نظام الإدارة في مصر ، قضى
أحدهما على اعتبار مصر وحدة إدارية واحدة ، فإن هذا الإمبراطور قصر نفوذ
الحاكم العام على المقاطعة الأولى ، وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الأخرى
وجعلهم جميعاً خاضعين لحاكم الشرق (Praefectus Praetorio Orientis).
أما التعديل الثاني فهو الجمع بين السلطتين المدنية والحربية ، وإسنادهما معاً إلى حكام
المقاطعات ، الذين أصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الإدارة والبوليس والقضاء
والمالية ، لكن كان حاكم المقاطعة الأولى هو الذي يجمع في الإسكندرية كل
ضرائب مصر نوغاً ونقداً ، ثم يرسلها إلى القسطنطينية . وكان حكام المقاطعات

يُختارون في بداية الأمر من الأجانب ، لكنهم أصبحوا تدريجياً يُختارون من بين أهالي البلاد . ومنذ عام ٥٦٩ اكتفى الأباطرة بالموافقة على تعيين الحكام الذين كان يرشحهم رجال الكنيسة وكبار ملاك الأراضي . وكان يساعد حاكم كل مقاطعة في الشؤون المدنية رئيسان (Praesides ومفردتها Praeses) كان كل منهما بمنزلة قاض ورئيس الإدارة المالية المحلية في أحد قسمي المقاطعة . وقد تبع تقسيم البلاد إلى مقاطعات إعادة تنظيم الإدارة المحلية في أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملي للديريات ، فإنها قسمت إلى أقاليم (Pagi) أصبحت هي الوحدات الفعلية في الإدارة المحلية . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (Exactor) الذي كان يلي الرئيس (Praeses) في المرتبة ، وإليه انتقلت اختصاصات القائد في الشؤون المالية . أما اختصاصات القائد المدنية فإنها انتقلت إلى حاكم آخر (Logistes) كان في الأصل ممثل السلطة المركزية . لكنه أصبح حاكماً محلياً دائماً يتمتع بنفوذ في الأقاليم والمدن على السواء ، وآلت إليه اختصاصات حكام المدينة القدماء ، وبعد القرن الرابع حل مكانه حاكم آخر (Defensor) . وقد استمرت مجالس السناتو في المدن . إلا أن حكام المدن القدماء زالوا بالتدريج ، وأصبح رئيس السناتو وكاتب المدينة يعرفان على التعاقب باسم Logographos, Propoliteuomenos ، وكان يحكم كل إقليم Praepositus وكل قرية Komarch حتى القرن السادس عند ما خلف الاثنين حاكم جديد (Pagarch) كان عادة أحد كبار الملاك في الإقليم .

(ب) النظام المالي :

سنعرض أولاً لسياسة الرومان وحالة البلاد الاقتصادية في ظل الحكم الروماني قبل أن نتناول النظام المالي . يجمع المؤرخون على أن الرومان كانوا ييغون من وراء سياستهم الاقتصادية في مصر غرضاً واحداً ، هو استغلالها إلى أقصى حد لمنفعتهم الخاصة . وإذا كانت قد تفاوتت آراء بعض الأباطرة عن آراء بعض ، فإن ذلك التفاوت لم يكن في المبدأ نفسه ، بل في مقدار ذلك الاستغلال ، إذ بينما كانت تملي الحكمة على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد

على طاقتها ، لاشفقة بالبلاد أو أهلها ، بل شفقة بأنفسهم ، كي لا يحف معين البلاد ، نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط ، وراح يبتز كل ماتملك البلاد .

ولما كان مقدار ما تجنيه روما في النصف الأول من حكم الرومان ، أو القسطنطينية في العصر البيزنطي ، متوقفا على مقدار ثروة مصر ، كان طبعيا أن يوجه الأباطرة عنايتهم إلى تنمية موارد مصر الاقتصادية ، التي كانت قد اضمحلت في أواخر أيام البطالسة ، فوجه أغسطس وحصيفو الرأي من خلفائه اهتمامهم إلى ضبط مياه النيل ، وحسن تصريفها ، وما يتطلبه ذلك من كبرى الترع القديمة ، وإنشاء ترع جديدة ، والمحافظة على الجسور . وعنى الأباطرة المصلحون بتشجيع الصناعة ، فتنازلوا عن أغلب الصناعات التي كانت تحتكرها الدولة في عهد البطالسة ، وسهروا على ترقية الصناعات بطرق شتى ، فازدهرت عدة صناعات ناجحة في عواصم المديریات ، وفي الإسكندرية بوجه خاص . وكان طبعيا أن يهتموا أيضاً بالتجارة الخارجية . وخاصة التجارة الشرقية ، ولذلك وجه كثير من الأباطرة عنايتهم ليعيدوا إلى قبضة مصر تلك التجارة التي كان قد استولى عليها العرب والفرس خلال أيام البطالسة الأواخر . ولعل أبلغ دليل على تلك العناية اهتمامهم بشئون الملاحة في البحر الأحمر ، وبالعلاقاتهم مع القبائل النازلة على شواطئه الجنوبية ، وبإصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية ، التي تربط النيل بالبحر الأحمر ، وبشق طرق جديدة ، وبالعامل على استتباب الأمن في تلك الجهات .

ويبدو لأول وهلة أن القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس إلى آخر حكم نيرون ، أي من ٣٠ ق . م . — ٦٨ م) حمل في طياته رخاء عموما . لكن إذا دققنا النظر وجدنا أن ذلك الرخاء كان من نصيب روما قبل كل شيء ، ومن نصيب الاسكندرية أيضاً . أما مصر نفسها فقد كانت البقرة الحلوب التي درت تلك الخيرات حتى أخذت تظهر بوادر اضمحلالها ، فإن كل نظام الإدارة كان موجهاً إلى غاية واحدة ، هي تمكين الدولة من استعباد الفلاح في خدمتها .

وابتزاز أموال دافعي الضرائب . ويحتمل أنه في عهد أغسطس وتيبريس لم يُطلب إلى البلاد أكثر مما تقوى عليه ، لكن حتى في عهد أغسطس كان عبء الأعمال الضرورية لإصلاح الزراعة ثقيلاً على كاهل الأهالي ، فكان سبباً في ثورتهم . وتنبأ الوثائق بأنه في عصر تيبريس كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ، ويحتمون في الأدغال والمستنقعات ، حتى إن بعض القرى هجرت بأكملها تقريباً . وقد ناء الأهالي بعبء آخر ، هو القيام بإمداد الحاميات الرومانية بما تحتاج إليه ، وإمداد رجال الإدارة في تنقلاتهم من مكان إلى آخر . هذا إلى جانب سلسلة من الضرائب المرهقة .

إن السياسة الحكيمة التي ورثها الأباطرة المستنيرون عن نيرون ، واتبعوها خلال القرن الثاني من حكم الرومان (من جلبا إلى آخر حكم ماركس أورلياس أي من ٦٨ — ١٨٠) أنعشت حالة البلاد الاقتصادية ، إلا أنه تبدو منذ منتصف هذه الفترة بوادر تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة في التدهور ، وليس أدل على ذلك التدهور من التوسع في تطبيق نظام الوظائف غير المأجورة في الإدارة المحلية ، فقد أصبح من المتعذر وجود متطوعين لتحمل أعباء هذه المناصب ، فأصبحت القاعدة منذ بداية القرن الثاني بعد الميلاد تعيين الموظفين غير المأجورين قسراً ، وامتد إرهاب الأهالي العاديين إلى الطبقات الممتازة ، وكان إرهاباً أشد وطأة منه في أي فترة مضت . ولعل ذلك يرجع إلى تطبيق نظام المسؤولية الإجماعية ، فقد جعلت هيئة أو قرية مسئولة عن أداء أعمال الموظفين غير المأجورين الذين ينتمون إليها ، وكان هذا النظام أحد العوامل الهامة التي أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية . وأخذت بعد ذلك تزداد الحالات التي كان يهرب فيها المرشحون لمثل هذه المناصب من موطنهم ، فراراً من ثقل الأعباء ، فكثرت صدور الأوامر إلى الهاربين بالعودة إلى موطنهم ، مع إعفائهم من تبعاتهم القديمة إذا أطاعوا هذه الأوامر . هذا إلى أن ثورة اليهود في عصر تراجان كانت لطمة قاسية للزراعة في مصر ، لأنها أبعدت الزراع مدة غير قصيرة عن جانب كبير من الأراضي ، ولعل نتائج «حرب الزراع» كانت أسوأ أثراً ،

إذ عزی إليها تناقص سكان القرى ، لكن ربما كان نقص سكان القرى يرجع إلى أسباب أخرى ، مثل كثرة الضرائب وإهمال الترع والجسور .

ولیس تاریخ مصر الاقتصادی فی القرن الثالث من حکم الرومان (من کومودس إلى أول حکم دیوکلیشان أى من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر ، یسير من سيئ إلى أسوأ ، بسبب ازدياد عبء الضرائب والوظائف غیر المأجورة . وقد زاد حال الزراعة سوءاً إهمال نظام الري ، فأصبح عملهم غیر مشر ، حتى إن كثيرین منهم فروا من موطنهم ، مفضلین أن يعيشوا على السطو والنهب ، فتركت مساحات واسعة من الأراضي دون زرع . وزاد الطین بلة أن الحكومة لم تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من نواحي البلاد المختلفة ، حتى بعد فرار بعض الأهالی ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذت قيمة الضرائب تزداد على من بقوا فی بلادهم ، بنسبة الذين كانوا یفرون منها . ولعل أكبر العبء كان يقع على التاعسین الذين كانوا یرغمون على الإشراف على جباية الضرائب فی قراهم ، فإن الحكومة كانت تستولی على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها . ولیس أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة تدهوراً سريعاً خلال هذا القرن ، فكان لذلك أيضاً آثاراً بعيدة المدى فی الصناعة والتجارة الخارجية ، فقد صحبه غلاء المعیشة ، واستبدال نظام الاقتصاد الطبیعی تدريجياً بالنقود . فلا عجب إذن أن نضب معین البلاد بسبب السياسة الخرقاء التي اتبعها الرومان خلال الثلاثة القرون الأولى من حکمهم ، مما دفع دیوکلیشان عند ارتقائه العرش إلى إدخال تعديلات جديدة على نظام الحكم فی مصر .

لقد أفلحت المجهودات التي بذلها بعض أباطرة العصر البيزنطی إلى حد ما فی وقف تدهور حالة مصر الاقتصادية هنية فی بداية هذا العصر . لكن ذهب هباء كل جهود الأباطرة فی سبیل إنعاش حالة البلاد الاقتصادية ، بسبب ضعف الإدارة واضطراب حال البلاد ، وإهمال نظام الري ، وفداحة الضرائب ، وتدهور قيمة العملة باستمرار . فلم تلبث أن أخذت تضمحل موارد البلاد ، كما أخذ الأهالی

يفرون من التبعات الملقاة على عاتقهم ، وحاولت الحكومة عبثاً ، أن تحول دون ذلك . لقد كان الأشخاص المسؤولون عن دفع الضرائب يهجرون موطنهم أو يهربون إلى الأديار في قلب الصحراء . وكان صغار المزارعين يفرون من قراهم أو ينزلون عن أراضيهم لبعض الأثرياء ذوي النفوذ ، ويصبحون كموالي لهم ، على أن يحموهم جور عمال الحكومة . وقد حارب الأباطرة ذلك دون جدوى حتى آخر القرن الرابع ، فأخذت تختفى تدريجياً خلال القرن الخامس طبقة صغار الملاك ، حتى لم يكن لها وجود في بداية القرن السادس . وازدادت تدريجياً الضيعات الواسعة . فإن معظم أراضي الامتلاك الخاص وجانباً كبيراً من أراضي الدولة آل إلى فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي ، الذين بسطوا سلطانهم الفعلي على القرى المجاورة ، التي وضعت نفسها تحت حمايتهم ، وأصبحت الحكومة عاجزة أمام نفوذ كبار الملاك ، فانتهى بها الأمر في القرن الخامس إلى اعتبارهم السلطات المسؤولة في مناطقهم ، وسمحت لهم بسلطان مستقل فيها . ولم يكن لهؤلاء السادة منافسون سوى الكنيسة المسيحية . التي لم تكتف بتحدى سلطة الأباطرة في الشؤون الدينية والمدنية ، بل أضافت باستمرار أملاً جديدة إلى ممتلكاتها ، وكانت ضيعات الكنيسة بوجه عام في قبضة الأديار . ولما كانت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديار الدينية ، فإن منتجات أهالي تلك الأقاليم كانت في قبضة أقطاب الكنيسة ، وإذا كان لهؤلاء سلطان كبير كان في استطاعتهم مقاومة أي جور من جانب الحكومة . ويحتمل أنه قد ساعد على توطيد مركز كبار ملاك الأراضي خلال القرن السادس ، اتساع الخلاف الطائفي بين المسيحيين في مصر ، وهو نتيجة للسياسة التي اتبعها جوستنيان ، فإنه عند ما منح بطريرك الملاكائيين سلطة مدنية وجدت مصلحة مشتركة بين اليعاقبة الذين أرادوا حماية أنفسهم من سلطان القسطنطينية الديني ، وكبار ملاك الأراضي الذين كانوا يتطلعون إلى التخلص من إشراف ممثلي الأمباطور ، فيرجح أن كبار ملاك الأراضي أصبحوا إذ ذاك حماة الكنائس أيضاً ، كما كانوا حماة أهالي الأقاليم . بسبب ذلك قوى مركز كبار الملاك ، وغدت الوظائف المحلية الرئيسة وراثية

في أسرهم ، ولم يعد للسلطة المركزية أى إشراف فعال في الأقاليم ، فعمت الفوضى والاضمحلال البلاد .

لقد كان حال الصناعة والتجارة أخف وطأة من حال الزراعة ، لكن يجب ألا ننسى أن الزراعة كانت دائما ولا تزال دعامة ثروة مصر . وعلى كل حال فإن الصناعات التي تعهد بها أباطرة روما انحدرت رويدا في هاوية التدهور في العصر البيزنطي هذا ، وإن بقي في الإسكندرية وبعض البلاد الداخلية صناعات هامة حتى آخر هذا العصر . وقد تدهورت أيضا التجارة الخارجية تدريجيا في هذا العصر ، لتدهور الزراعة والصناعة ، واهتمام الفرس والأمم التي تقطن على شواطئ البحر الأحمر الجنوبية بالتجارة الشرقية . وليس أدل على تناقص التجارة الشرقية من أن الأهالي أخذوا يهجرون تدريجيا موانئ البحر الأحمر . وفي نهاية القرن السادس كانت القلزم الميناء المصرى الوحيد على شاطئ البحر الأحمر ، الذى يشغل بنقل التجارة . وبالرغم من أن التجارة الشرقية لم تنقطع ، فإنه يشك في أن لهذه التجارة صلة بأى جزء من البلاد فيما عدا الإسكندرية . وكان مما ساعد على تدهور التجارة الخارجية ، أن كبار ملاك الأراضى والجمعيات الدينية كانوا يؤلفون من أنفسهم وأتباعهم جاليات ، كانت كوحداث اقتصادية تكفى حاجات نفسها . ولما كانت ثروة الإسكندرية تقوم إلى حد كبير على التجارة التي تمر بها ، فإن ذلك عاد عليها بخسائر كبيرة . وقد زاد حال العاصمة سوءا طرد اليهود منها ، لأنهم كانوا عنصرا هاما في الحياة الاقتصادية ، فعانت عاصمة مصر بعض ما عاتته بقية البلاد ، لكنها بقيت أعظم المدن في البحر الأبيض المتوسط .

حقا لقد كان عبء نظام الرومان المالى ثقيلا ، بل يمكن القول إنه كان أشد وطأة من نظام البطالسة . ولم يقل نظام تقسيم الأراضى في عهد الرومان تعقدا عنه في عهد البطالسة ، ونرى أنه أبقى على بعض مظاهر ذلك النظام ، وقضى على بعض آخر ، وأدخل عليه مظاهر جديدة . وكل ما يمكننا أن

نستخلصه من أكداس الوثائق عن ذلك النظام يتلخص في تقسيم الأراضي كما يلي :

(أولا) أراضي الدولة ؛ وكانت تتكون من الأراضي الملكية التي ورثها الأباطرة عن البطالسة ، ومن الأراضي التي انتزع الأباطرة ملكيتها من أراضي المعابد وبعض إقطاعات الجنود ، وأملاك الرومانيين من أصدقاء أنطونيوس .
(ثانيا) أملاك الأباطرة الخاصة ؛ وكانت تتكون من الأراضي التي كان البطالسة قد منحوها أصحاب الحظوة لديهم ، وانتزعها الأباطرة منهم . وكانت أراضي الدولة وبعض أراضي الأباطرة الخاصة تؤجر على نمط شبيه بتأجير الأراضي الملكية في عهد البطالسة . ويرجح أن الأباطرة كانوا في بداية الأمر يمنحون بقية أراضيهم الخاصة لذويهم والمقرين إليهم ، لكن منذ النصف الثاني من القرن الأول أخذوا يستردون تلك الأراضي ، ويمنحون طائفة من الزراع حق استغلالها .

(ثالثا) أراضي الامتلاك الخاص ؛ وكانت تتكون من (١) إقطاعات الجنود التي لم تنزع ملكيتها (٢) الأراضي التي احتفظت المعابد بملكيتها (٣) الإقطاعات التي منحت لقدماء المحاربين (٤) الأراضي التي انتزعت الدولة ملكيتها وباعتها . ويلاحظ أن مساحة أراضي الامتلاك الخاص أخذت في الازدياد منذ القرن الثاني ، وقلت تبعا لذلك مساحة الأراضي العامة .

(رابعا) أراضي المدن أو القرى ؛ ويخيل إلينا أنها كانت تتكون من الأراضي التي كان يملكها أفراد تلك المدن أو القرى ، وآلت إلى مدنها أو قراهم بسبب انقراض نسل أصحابها ، أو تركهم إياها هبة لتلك المدن أو القرى . وتتلخص موارد الأباطرة من الزراعة في استغلال أراضي الدولة وأملاكهم الخاصة ، وفي الضرائب ، وكانت أهمها ضريبة القمح . وكانت تفرض هذه الضريبة على الأراضي التي تزرع قمحا ، وكانت تدفع نوعا وترسل إلى روما في النصف الأول من حكم الرومان ، لكنها كانت ترسل إلى القسطنطينية في العصر البيزنطي . أما الأراضي التي كانت تزرع حدائق أو كروما أو ماشابه

ذلك ، فقد كانت تفرض عليها ضرائب شتى تدفع نوعاً . وكانت هناك أيضاً ضرائب على الحيوانات المستأنسة ، تتوقف قيمتها على نوع الحيوان .
إن قلة المعلومات التي لدينا عن الصناعات والحرف تجعل استجلاء حقيقتها أمراً عسيراً . لكننا نرجح أن الدولة كانت لا تزال تحتكر بعض الصناعات ؛ هذا ، وإن كانت قد تنازلت عن أغلب الصناعات التي كانت تحتكرها في عهد البطالسة ، تشجيعاً للجهودات الخاصة . وعلى كل حال كانت الدولة تشرف على مزاولة الحرف والصناعات ، حتى إنها تعين عدد المشتغلين بكل منها في كل مدينة أو قرية على حسب ما تقتضيه حاجات البلاد . وكانت تمنح مباشرة ذلك العدد رخصاً لقاء ضريبة يدفعها كل منهم . أو تؤجر حق مزاولة صناعة ما ؛ أو بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة في أى مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة ، لقاء جميع الضرائب التي كانت تجبها الحكومة لو منحت رخصاً للاشتغال بتلك الصناعة لأفراد مختلفين في ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأجرون يؤجرون ذلك الحق لغيرهم ، أو يستغلون بأنفسهم تلك الصناعة . وكانت الطريقة التي تتبعها الحكومة تختلف من عام إلى عام باختلاف الظروف . وكانت تقدر الضريبة على أساس سنوى ، وتختلف باختلاف الصناعات والامكنة التي تزاوّل فيها .

وكانت موارد الدولة من التجارة في عهد الرومان ضئيلة ، لأنه يخيل إلينا أن الرومان قضوا على الضرائب الفادحة ، التي فرضها البطالسة على التجارة الخارجية ، فإن رغبتهم في تشجيع تجارة مصر مع الإمبراطورية الرومانية ، أدت إلى إزالة الضرائب على تجارة مصر الخارجية ، في حوض البحر الأبيض . وإذا كان الرومان قد فرضوا ضرائب على تجارة مصر الشرقية ، فإنه يلوح لنا أن مقدار تلك الضرائب كان خفيفاً . وقد كانت هناك ضرائب على التجارة الداخلية كمكوس على انتقالها من إقليم إلى آخر ، بل كانت تفرض على المسافرين سلسلة من الضرائب ، تختلف قيمتها باختلاف مراكزهم ووسيلة سفرهم .

وكانت تجبي الدولة فوائد جمة من ضرائب شتى ، أهمها ضريبة الرأس ،

وضريبة لشراء تاج الإمبراطور عند ارتقائه العرش ، وضريبة لإقامة تمائيل للأباطرة ، وضريبة على الأملاك العقارية ، وضريبة على بيع الممتلكات . وكانت توجد إلى جانب ذلك عدة التزامات كانت كضرائب فادحة ، أثقلت كاهل الأهالي ، مثل سد حاجات الجنود ، والقيام بعبء الوظائف غير المأجورة ، وتسخير الأهالي في العمل في الترعرع والجسور .

وكان الأباطرة كل عام يقررون مقدار ما تدفعه مصر من الضرائب ، لكن كان تقدير الضرائب التي تفرض على مختلف نواحي البلاد من اختصاص الحاكم العام ، على أساس المعلومات التي كان يقدمها إليه الحكام المحليون . وقد اتبع الرومان في بداية الأمر نظام جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريس ، إذ نسمع للمرة الأولى عن جبايتها بموظفين (Praktores) . لكن هذا النظام لم يقض على سابقه قضاء تاماً ، فإنه حتى أواخر القرن الثاني كان بعض الضرائب كالضرائب الجركية لا يزال يجبي على وفق النظام القديم . وحتى نهاية القرن الثاني كان كاتب المدينة أو القرية يعد قائمة بأسماء أهلها الذين لديهم نصاب معين ، وكان القائد يختار من بينهم جباة (Praktores) يشتغلون عادة مدة ثلاث سنوات . وكان الجباة يمنحون قدرأ معيناً أجراً لتكاليفهم ، إلا أنه لم يكن كافياً ، فكثيراً ما نسمع عن محاولتهم تخفيف أعبائهم باغتصاب مقادير أكبر من الضرائب المقررة ، أو بفرارهم من موطنهم . وكان الجباة عادة يقسمون أنفسهم إلى جماعات ، تقوم كل منها بجباية ضريبة معينة ، إلا أنهم كانوا مسئولين جماعات ووحداً عن دفع المبلغ المقرر ؛ وكانوا يرغبون على دفع الضرائب التي لم يتمكنوا من جمعها . وكان الجباة يقدمون ما يجمعون من الضرائب إلى المصرف أو المخزن المحلي ، بحسب نوع الضرائب . ولكي تتحقق الحكومة من الحصول على جميع الضرائب ، كانت تختار هيئات تضطرها إلى مراقبة الجباة ، ودفع ما يعجز هؤلاء عن تقديمه ؛ وزيادة في الاحتياط للأموال كانت الحكومة تختار لإدارة كل مصرف ومخزن محلي جماعة

مسئولة عن إدارة المصرف أو المخزن ، وعن تسلم الضرائب كاملة من الجبابة ، وتكميل العجز الذى قد يحدث .

وبعد إصلاحات سفرس كان مجلس السناتو فى عاصمة المديرية هو الذى يعين منذ القرن الثالث جبابة الضرائب ومراقبيها (Dekaprotai) فى كافة أنحاء المديرية . وألقيت على مجالس السناتو مسئولية دفع الضرائب ، حتى إن مراقبيها كانوا عادة من رجال السناتو .

وقد بقيت مجالس السناتو فى العصر البيزنطى مسئولة عن جمع الضرائب فى المدن والأقاليم ، لكننا لم نعد نسمع عن مراقبي الضرائب الذين كان يعينهم السناتو فى القرن الثالث . وكان يقوم بجمع الضرائب تحت إشراف المراقب (Exactor) هيئات مختلفة من الموظفين ، كانوا عادة من أعضاء السناتو . لكن عدل عن هذا النظام فى الأقاليم منذ القرن الخامس ، عند ما عهدت الدولة فى شئون الضرائب ببعض القرى إلى كبار الملاك ذوى النفوذ فيها ، ممن كانوا يدفعون مبلغاً معيناً للخزانة ، يقومون هم بجمعه كما يتراءى لهم . أما القرى التى لم تمنح هذا الحق فإنها كانت تدفع ضرائبها على أيدي حكام الأقاليم .

(ح) القضاء :

إن معلوماتنا عن النظام القضائى فى مصر فى عهد الرومان قليلة جداً ، حتى إننا كثيراً ما نواجه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع إبداء رأى فيها . لكننا نعرف على كل حال أنه فى النصف الأول من حكم الرومان ، كان الحاكم العام على رأس ذلك النظام ، وأن اختصاصه كان لا يُحد ، وأنه لم يكن هناك سبيل إلى الاستئناف من أحكامه أمام غير الإمبراطور . وكان فى استطاعة المتقاضين أن يتصلوا به مباشرة ، وخاصة فى القضايا الهامة . أما فى القضايا العادية ، فإنهم كانوا يلجئون إلى السلطة المحلية ، لكن كان لهم حق الاستئناف إليه من أحكام مرءوسيه ، وكان الحاكم العام يعقد محكمته فى الإسكندرية فى شهرى يونية ويولية ، للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى بلوزيم فى شهر يناير ، للفصل فى قضايا المديريات الشرقية ، وفى منف فى شهرى مارس وأبريل ، للفصل فى قضايا

بقية المديریات ، إلا أنه كان يرى أحياناً داعياً لزيارة مصر العليا ، وعقد محكمته في طيبة .

وكانت محكمة الحاكم العام تتكون منه رئيساً ، ومن مساعدين له نعرف أنهم كانوا يختارون في الولايات الأخرى من جنس المتخصصين ، لكن لا يمكن أن نجزم بشيء فيما يتعلق بمصر . بيد أننا نعرف أنه لم يوجد في العهد الروماني محاكم تتألف من قضاة مصريين أو إغريق ، مثل التي كانت توجد في عهد البطالسة ؛ ونعرف أيضاً أن الرومان كانوا يُحتمون كتابة الوثائق بالإغريقية .

وقد كان المساعد الأول للحاكم العام في الشؤون القضائية هو الديكايدوتس (Dikaiodotes) ، إلا أننا نسمع أيضاً بوجود أركيديكاستس (Archidikastes) في الإسكندرية ومنف . وكان حكام مصر السفلى والوسطى والعليا (Epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام في الفصل في القضايا . لكن لما كان هؤلاء من الرومانيين ، فإننا نجد أن الإغريق كانوا يلجئون عادة إلى القواد الذين كانوا من جنسهم ، للفصل في قضاياهم ، كما كان المصريون يلجئون إلى شيوخهم ورجال الشرطة ، للفحص عن شكاويهم . وكان الناس يحاكمون على وفق القانون الروماني أو الإغريقي أو المصري بحسب أجناسهم .

ويرجح أن هذا النظام قد بقي في جوهره في العصر البيزنطي حتى إصلاحات جوستنيان ، لكن حل رؤساء المقاطعات مكان حكام أقسام مصر (Epistrategoi) أما بعد إصلاحات جوستنيان فقد كان حاكم كل مقاطعة الرئيس الأعلى في شؤونها القضائية ، ويُستأنف إليه من أحكام مرءوسيه ، مثل الرئيسين (Praesides) والحكام المحليين في المدن والقرى والأقاليم . وكان لا يُستأنف من أحكام حاكم المقاطعة أمام غير الإمبراطور . وتحدثنا المراجع القديمة بأنه كانت توجد في العصر البيزنطي إلى جانب الحاكم العادية محاكم خاصة للفصل في القضايا التي تمس طبقات معينة ، مثل المحاكم العسكرية ، ومحاكم المطارنة .

(٥) الحالة الاجتماعية :

كان معظم عناصر السكان في مصر الرومانية يتألف من الرومان، والإغريق، واليهود، والمصريين. ولما كانت سياسة الرومان في حكم البلاد الخاضعة لهم تقوم على المبدأ المعروف «فرق تسد» قسموا سكان مصر إلى الطبقات الآتية :

(الأولى) طبقة الرومان، وتلك كانت الطبقة العليا في البلاد. وقد كان عددها قليلاً، لأنها كانت مقصورة على الجنود وبعض رجال الأعمال وكبار الحكام حتى أواخر حكم الرومان. أما غالبية المواطنين الرومانيين (Cives Romani) الذين تتحدث عنهم الوثائق التاريخية، فإنهم كانوا يتألفون من الإغريق أو الشرقيين (المتأخرين)، الذين اكتسبوا الحقوق المدنية الرومانية. وكان يتمتع الرومانيون بمركز ممتاز، شبيه بمركز المقدونيين والإغريق في عهد البطالسة، ولم يكونوا خاضعين إلا لكبار الحكام في السلطة المركزية.

(الثانية) طبقة الإغريق، لما كان الرومان ينظرون إلى الحضارة الإغريقية نظرة إجلال واحترام، منحوا الإغريق مزايا خاصة. وليس أدل على ذلك من أنهم أبقوا اللغة الإغريقية لغة رسمية، ولم تستعمل اللغة اللاتينية إلا في الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الروماني. وخصصت للإغريق الوظائف التي تلي الوظائف الرئيسة مدة طويلة. أما هذه فإن الرومان أبقوها لأنفسهم حتى أواخر حكمهم، وأعفى الإغريق من ضريبة الرأس التي كانت كطابع للعبودية. وكان يسمح للإغريق بالانتظام في سلك الفرق الرومانية الإضافية في الجيش، وبذلك كانوا يحصلون على الحقوق المدنية الرومانية بعد تسريحهم. وقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك الحقوق، حتى عصر كركلا، عند ما منحهم إياها. وكان الإغريق ينعمون بحياة راضية، فقد كان من بينهم كبار الحكام المحليين، وكبار التجار والصناع، وبعض أصحاب الأراضي، ووكلاء أصحاب الضيعات من الرومان، إلى جانب عدد كبير من صغار التجار والصناع وأهل الحرف المختلفة. ويمكن تقسيم الإغريق إلى ثلاث فئات، كانت أرفعها مقاماً، وأعزها جانباً، فئة إغريق المدن الإغريقية، وتليها فئة أثرياء الإغريق.

في عواصم المديریات ، ثم تأتي في المؤخرة فئة بقية الإغريق في كافة أنحاء البلاد .
(الثالثة) طبقة اليهود ؛ وكان يبلغ عددها نحواً من مليون نفس في بداية حكم الرومان . وقد ترك لهم الأباطرة المزايا التي كانوا يتمتعون بها في عهد البطالسة ، لكنهم لم يمنحوا الحقوق المدنية في الإسكندرية ، حيث كان يعيش أكبر عدد منهم ، ولذلك كانوا أقل منزلة من الإغريق . وكانت تكون غالبيتهم من أشخاص متوسطي الحال ، يشتغلون بالتجارة بوجه خاص . وكان اليهود مولعين باستعمال اللغة الإغريقية حتى فيما بينهم ، وبقراءة الآداب الإغريقية ، بل إنهم كانوا لا يقرءون كتبهم السماوية إلا في الترجمة الإغريقية .
(الرابعة) طبقة المصريين ؛ وكانت تكون الطبقة السفلى ، التي عاملها الرومان معاملة المغلوب على أمره ، وفرضوا عليها كافة أنواع الضرائب ، وحرّموا عليها استعمال اللغة الديموطيقية حتى في وثائقها الخاصة ، ومنعوها من الاندماج في الفرق الرومانية في الجيش . ولم يأل الرومان جهداً في مناوأة رجال الدين ، فإنهم في عهد الوثنية أضعفوا قوة القساوسة ، بأن وضعوهم تحت سيطرتهم ، ونقصوا عدد المعابد التي كانت تتمتع بحق حماية اللاجئ إليها ، ونقصوا عدد القساوسة الذين كانوا يعفون من ضريبة الرأس . وفي عهد المسيحية ناصبوا أقطاب الكنيسة المصرية عداً شديداً ، على نحو ما مر بنا . وكان رجال الدين أرفع المصريين مقاماً في عهد الوثنية ، أما في عهد المسيحية فإن زعماء الكنيسة كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير ، لكن كان ينافسهم أصحاب الضيعات الكبرى ، الذين كان يُختار من بينهم كبار الحكام منذ أواخر القرن السادس . ويلوح لنا أن أصحاب الضيعات قد نشئوا على مر الزمن من بين ملاك الأراضي ، الذين كانوا يكوّنون طبقة متوسطة ، ويعيشون في عواصم المديریات ، حيث اختلطوا بالإغريق ، وأخذوا عنهم لغتهم وملبسهم وأسماءهم ، لكن بالرغم من مظاهرهم الإغريقية ظلوا كبقية المصريين مصريين في أفكارهم . وكان هؤلاء (المتأغرقون) لا يدفعون من ضريبة الرأس سوى نصف ما كان يدفعه بقية المصريين ، وهم الذين كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد ، فمن بينهم

كان أغلب أهالى البلاد وملاك الأرض والزراع ، وأصحاب الحرف المختلفة ، وعمال المناجم والمحاجر وغيرهم .

إن أهم ما يعنينا فى الحياة الاجتماعية حالة الإغريق والمصريين الذين كانوا أكثر السكان عدداً . عرفنا أن الروح الإغريقى كان قد ضعف بين إغريق مصر فى النصف الأخير من حكم البطالسة ، وأن ذلك الضعف كان أشد وطأة فى الأقاليم منه فى المدن الإغريقية . لكن يظهر أن الفتح الرومانى قد أفلح فى وقف هذا التدهور مدة غير قصيرة ، بسبب الامتيازات التى منحها الرومان للإغريق ، وعطفهم على الثقافة الإغريقية ، وحرصهم على منع التزاوج بين الإغريق والمصريين ، فانتشرت المعاهد الإغريقية فى طول البلاد وعرضها ، وسادت الثقافة الإغريقية مدة طويلة بين إغريق مصر بوجه عام . وقد كانت الإسكندرية أهم مراكز تلك الثقافة . حقا إن شهرتها تضاءلت عما كانت عليه فى عهد البطالسة الأوائل ، إلا أنها استمسكت حتى فى العصر البيزنطى ببعض الظواهر التى كانت سببا فى ذيوع صيتها . فقد كانت الإسكندرية موطن العلوم والفنون ، وتمتعت بمعاهدها بشهرة واسعة فى الإمبراطورية الرومانية ، فهرع إليها طلاب العلم من كل ممالك الشرق ، ليدرسوا على أساتذتها الطب والرياضيات والفلسفة والآداب .

لا شك أن تحريم التزاوج فى المدن الإغريقية - عدا أنطينوبوليس - ووجود المعاهد الإغريقية فيها ساعدا على بقاء العنصر الإغريقى نقيا ، وعلى استمرار الحضارة الإغريقية فى تلك المدن . لكن إذا كان أثر البيئة وانقطاع وفود الإغريق قد أضعف روح الإغريق وثقافتهم فى النصف الثانى من حكم البطالسة ، ولا سيما فى الأقاليم ، فلا بد أن هذا الضعف كان على أشده فى العصر الرومانى ، وخاصة بعد القرن الثانى ، عند ما عم الخراب الاقتصادى البلاد ، وأخذت المسيحية تهاجم وثنية الإغريق وحضارتهم . لكن هذا ليس معناه أن الحضارة الإغريقية قد اندثرت ، فما من شك أنها حفظت شيئا من قوتها فى المدن الإغريقية ، وخاصة فى الإسكندرية ، إلى نهاية العصر البيزنطى . ولا شك أن

روح الإغريق وحضارتهم كانت أحسن حالا في المدن الإغريقية منها في الأقاليم ، حيث كان أثر البيئة أقوى . هذا إلى أن التزاوج كان مباحا هناك ، لكن يجب ألا نبالغ في أثر التزاوج ، فمن المرجح أنه لم يشمل غالبية الإغريق ، لأن الذين كانوا يتزاوجون منهم كانوا يفقدون مزاياهم الخاصة . ولا ريب أيضا أن انتعاش الروح القومي بين المصريين منذ القرن الثالث ، وما صحب ذلك من إحياء التقاليد والعادات القديمة ، وكراهية المصريين للإغريق ، لم يكن مشجعا على التزاوج . أضف إلى ذلك أثر الخلافات الطائفية في علاقات المصريين بالإغريق ، فقد كان أغلب المصريين من أتباع مذهب اليعاقبة ، على حين كان أكثر الإغريق من أتباع مذهب الملكائين ، وعلى كل حال فإن أغلب إغريق الأقاليم أصبحوا بمضى الزمن إغريقا في الاسم والملبس واللغة ، أكثر منهم في أى شيء آخر ، فكان مثلهم مثل المصريين (المتأخرين) . ولذلك استمرت مظاهر الحضارة الإغريقية في الأقاليم حتى الفتح العربى . وجملة القول إنه إذا كانت غالبية العنصر الإغريق في مصر بقيت نقية خالصة ، فقد تعاونت عدة عوامل على إضعاف روح الإغريق وثقافتهم ، وكان أثر تلك العوامل أقوى في الأقاليم منه في المدن الإغريقية .

أما المصريون فإنهم بقوا بوجه عام مستمسكين بعاداتهم ونظمهم وثقافتهم القديمة ، ولعل ذلك راجع إلى ثلاثة عوامل ، أولها : تأثير الكهنة ورجال الدين أيام الوثنية ، فإنهم تعلقوا بثقافتهم القديمة الخاصة ، التي كانوا يتوارثونها ، ويتنافسون في الإبقاء عليها ، ويعملون على بث تعاليمها في نفوس مواطنيهم . وثانيها : تأثير المسيحية عند ما انتشرت بين المصريين ، فقد ناصبت الثقافة الإغريقية العداء ، وأنعشت في المصريين روحهم القومي ، وبثت تعاليمها بينهم باللغة المصرية ، ونقلت منذ القرن الثالث كتبها الدينية إلى اللغة القبطية . وثالثها : أن أغلبية المصريين كانت أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، فبقيت بعيدة حتى عن مظاهر الحضارة الإغريقية . لكننا لانشك أن بعض المصريين اصطبغوا بالحضارة الإغريقية ، فقد أخذت التعاليم الإغريقية تنتشر بين المصريين منذ

النصف الثانى من حكم البطالسة ، ولا بد أنه قد ساعد على هذا الانتشار ما صادفته الحضارة الإغريقية من الانتعاش فى بداية حكم الرومان ، واختلاط المصريين بالإغريق فى هذه الفترة ، لكننا لانشك أيضا أن هؤلاء المصريين (المتأخرين) كانوا أقلية ، وأن صبغتهم الإغريقية لم تتعد المظاهر الخارجية ، حتى يمكننا القول بأن المصريين بقوا فى جوهرهم مصريين خالصين .

استنفد الصراع بين المصريين والبطالسة جهود المصريين وقواهم ، فقضوا القرون الأولى من حكم الرومان ، دون أن يقووا على الثورة سوى مرات . وكان كلما اشتد الضيق بالآهالى ، وجاوز ما يلقونه حد الاحتمال ، تركوا عملهم ولجئوا إلى المعابد يسألون الآلهة نصرتهم وتفريج كربهم ، أو فروا هاربين بين الأدغال والمستنقعات . وكادت ضروب الظلم والإرهاق التى عانوها تقضى على روحهم القومى ، لكن انتشار المسيحية بينهم بعث فيهم ذلك الروح ثانية . بدأ هذا التطور منذ القرن الثالث ، وكان طبيعيا أن يتخذ اتجاهها عدائيا للرومان والإغريق ، بسبب ما قاساه المصريون من هذين القبيلين ، ولأن المسيحية عند ما انتشرت بين المصريين ، وأيقظت فيهم شعورهم بأنفسهم ، هاجمت وثنية الرومان والإغريق دون هوادة ، فقد وجدت المسيحية فيها عدوا شديدا المراس . وقد ألهبت الخلافات الطائفية روح الوطنية وشعور العداء نحو الرومان والإغريق الذين لم يدخر الأباطرة وعمالهم وسعا فى شد أزهرهم ، فلا عجب إذا اعتبرنا انتصار المسيحية فى مصر ، وانتشار مذهب اليعاقبة فى كافة أنحاء البلاد ، انتصارا للمصريين على الرومان والإغريق .

وإذا استعرضنا الآن ما كانت عليه حالة البلاد منذ فتح الإسكندر ، حتى فتح العرب ، كان أول ما يسترعى أنظارنا أن غزاة مصر من الإغريق والرومان لم يفلحوا فى فرض طابعهم على الحياة المصرية ، وأن الرومان لم يكونوا أسعد حظا من الإغريق حيال القوة الحيوية الكامنة فى نفوس المصريين ، تلك القوة الروحية الخفية التى صمدت للقوة المادية العاتية ، فأخضعت لسحرها جبروت الغزاة الفاتحين ، وجعلت من المغلوب غالبا .

الباب الثاني

مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح العثماني
٢٠ - ٩٢٣ هـ = ٦٤٠ - ١٥١٧ م

محمّد إبراهيم حسن

ينقسم الكلام على هذا الموضوع ثلاثة أقسام :
(الأول) من الفتح العربي إلى الفتح الفاطمي (٢٠ - ٣٥٨ هـ =
٦٤٠ - ٩٦٩ م) .
(الثاني) في عهد الفاطميين (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م) .
(الثالث) في عهد الأيوبيين والمماليك (٥٦٧ - ٩٢٣ هـ = ١١٧١ -
١٥١٧ م) .

تمهيد : يظن بعض الناس أن مصر فقدت استقلالها نهائياً منذ الفتح الفارسي سنة ٥٢٥ ق. م . لكننا إذا أنعمنا النظر وتبعنا الحوادث التاريخية ، نستطيع الجزم بأن هذا الزعم ليس قائماً على أساس ، وأنه مناقض تمام المناقضة للحقيقة [والتاريخ . نعم ! توالت على مصر منذ القرن السادس قبل الميلاد ، أسرات أجنبية من أصل غير مصري . بيد أن تولى هذه الأسرات الحكم فيها ، لا ينافي أنها كانت دولة مستقلة استقلالاً تاماً في عهد البطالسة ، والفاطميين ، والمماليك ، كما أنها كانت دولة مستقلة أيضاً استقلالاً تاماً ، وما كان يربطها بالخلافة إلا السيادة الاسمية وحدها ، وذلك زمن الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين ، وفي عهد الأسرة المحمدية العلوية إلى سنة ١٩٢٢ م ، حين اعترف لها بحقوقها الطبيعية في الاستقلال والسيادة .

وليس يتأثر استقلال الدولة ، باختلاف جنس الأسرة الحاكمة عليها عن جنس شعبها ؛ إذ الملك المستقل أياً كان جنسه ، رمز للبلاد التي يستقل بحكمها ، وهو الممثل لاستقلالها وعظمتها . يدلنا على ذلك ما نراه من تاريخ إنجلترا التي لا ينكر أحد أنها دولة مستقلة ذات سيادة ، منذ سنة ١٠٦٦ م ، وهي السنة التي أغار فيها النرمنديون (Normans) بقيادة وليم الفاتح (William The Conqueror) ، وانتصروا على الدانمركيين (Danes) في موقعة هاستنجز (Hastings) ، التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ ، وذلك على الرغم من أن هذه البلاد ، لم يحكمها ملك من سكانها الإنجليز الأصليين ، منذ أقدم العصور .

ونحن نعلم أن قبائل من الأصل الكلتى (Kelts) أغارت منذ الأزمان الغابرة من مقاطعة برطانية (Brittany) الواقعة في شمال غرب فرنسا ، على الأراضي المواجهة لبلادهم ، وسموها برطانية ، نسبة إلى بلادهم التي نزحوا منها ؛ ثم أغار على هذه البلاد كثير من الأمم الأجنبية ، من الرومان والجوت (Jutes) والإنجليز (Angles) والسكسون (Saxons) والدانمركيين (Danes) ، إلى أن نازلها النرمنديون وانتصروا في موقعة هاستنجز (Hastings) ، فظلت تحت حكمهم إلى اليوم .

ولم يقل أحد من المؤرخين إن إنجلترا لم تكن دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٠٦٦ م ، لأنه لم يملكها ملك من سكانها الأصليين ، كما أن الملوك الذين حكموا هذه البلاد قبل الفتح النرمندى ، لم يكونوا من جنس الشعب . وقد أجمع المؤرخون أيضاً على أن إنجلترا تتمتع باستقلالها منذ ذلك الحين . وهو قول صحيح يؤيده الواقع ، لأن النرمنديين اندمجوا في سكان هذه البلاد على مر الزمن ، وأصهروا إليهم ونسوا جنسهم الأصلي ، وصاروا إنجليزاً قبل كل شيء ، وبقيت إنجلترا دولة مستقلة تحت سلطانهم ؛ وما زالت تتمتع بهذا الاستقلال إلى اليوم .

إذا سلمنا بهذا ، استطعنا أن نحكم بأن مصر كانت دولة مستقلة ، على الرغم

من تولى الأسرات الأجنبية عليها ، من بطالسة ، وطولونيين ، وإخشيديين .
وفاطميين ، وأيوبيين ، ومماليك ، وغيرهم ؛ وما زالت دولة مستقلة ذات شعب
متجانس تجانساً تاماً في القومية ، والجنس ، واللغة ، والدين ، والعادات . ولسنا
نقيم وزناً لهذه الفترات القصيرة التي كانت فيها تابعة لدولة أجنبية عنها ، شأن
غيرها من الدول عامة .

١ — مصر من الفتح العربي إلى الفتح الفاطمي

(١) من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية

١ — عمرو وفتح مصر :

لما تم للعرب فتح بلاد الشام وفلسطين ، وجهوا أنظارهم إلى مصر . وقد
عرضت فكرة هذا الفتح لعمرو بن العاص حين قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى
الجالية من أعمال دمشق سنة ١٨ هـ (٩٣٩ م) فقال له : «أذن لي في فتح مصر» ،
وذكر له أنها أكثر الأرض أموالاً ، وأهلها أعجز عن الدفاع عن أنفسهم ، وقال :
«إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم» . فتردد الخليفة في بادئ الأمر ،
لتفرق جند المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وفارس ، وخشى أن يتوسع في
الفتح ، لأن أقدام المسلمين لم تكن قد ثبتت بعد في البلاد التي فتحوها . على
أن عمراً هوّن على الخليفة فتح مصر ، وعظم أمرها رغبة في خيراتها ، وقد
وقف بنفسه على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها للتجارة ، وعرف خصب
أرضها ووفرة خيراتها ، وبين للخليفة أن استيلاء المسلمين عليها يساعد على
تثبيت فتوحهم في الشام وفلسطين ، وتأمينها من ناحية الجنوب ، وأن بقاء مصر
في يد الروم يعرض سيادة العرب في هذه البلاد للخطر . وبما شجع عمراً
على هذا الفتح إثقال المصريين بالضرائب ، واختلافهم مع الروم في العقائد
الدينية . وحرمانهم من الحقوق المدنية ، وما أضمره القبط للروم من حقد وكره .
عرف الخليفة غمز بن الخطاب شجاعة عمرو وحزمه ، فأذن له في فتح مصر

على رغم ما يحيط بهذا الفتح من صعاب . وكان عمرو يثق بنفسه ثقة لا حد لها ، فسار إلى مصر على رأس أربعة آلاف رجل ، وفتح العريش من غير مقاومة لعدم منعة حصونها ، وقلة حامية الروم الذين نهكتهم الحروب مع الفرس ، ثم استولى على الفرما - وكانت تعتبر مفتاح مصر - فأصبح إتمام الفتح عليه سهلاً هيناً . وقد سلك نفس الطريق الذي سلكه الفاتحون قديماً : وهو طريق إبراهيم الخليل ، وطريق يوسف الصديق ، وطريق قميز والإسكندر ، وطريق التجار والسائحين والحجاج في كل العصور ؛ وأخذ يخترق الصحراء حتى وصل إلى بلبس ، ففتحها بعد شهر لم ينقطع فيه القتال بين العرب والروم ، ثم واصل السير حتى وصل إلى أم دُنين ، وكانت على النيل في مكان حديقة الأزبكية الآن تقريباً .

ولما تمّ النصر للعرب يمموا شطر حصن بابلون وحاصروه وقت فيضان النيل (سنة ٢٠ هـ) ، ولم ير عمرو بداً من أن يطلب المدد من الخليفة ، فأمدّه بأربعة آلاف على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة هم : الزبير بن العوام ، وعُباد بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، ومسلة بن مخلد . وقد ضيق العرب الحناق على الروم ، فلم ينقض على هذا الحصار شهر واحد حتى طلب المقوقس زعيم الروم إلى عمرو وقف القتال وإبرام الصلح ، فأرسل إليه عمرو كتاباً يقول فيه : « ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون ، أو القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين » . ولما رأى المقوقس الجدد من العرب ، عقد الصلح معهم ، وكتب بذلك إلى هرقل إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، فلم يوافق على هذا الصلح ، واستدعاه إلى القسطنطينية ، وعاد القتال بين الفريقين سيرته الأولى ، وهاك نص هذه المعاهدة عن المقرئ : « اصطلح عمرو والمقوقس على أن يفرض لهم (أى للمسلمين) على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران ديناران ، على كل نفس شريفهم ممن بلغ الحلم ، ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير

الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شيء ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين ، أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم ، لا تعرض لهم في شيء منها .

شدد عمرو الحصار على الحصن ، ثم جاء الخبر بوفاة هرقل ، فذهب اليأس في نفوس الروم ، وعلى حين غفلة فاجأ المسلمون الأعداء ، وتساق الزبير ابن العوام سور الحصن ، وتعالَت الأصوات بالتكبير ، فظن الروم أن المسلمين قد اقتحموا الحصن ، ووقع الرعب في قلوبهم . على أن فتح حصن بابلين لم يكن نهاية هذه الحروب التي نشبت بين العرب والروم في مصر ؛ فقد رأى عمرو أن يتجه شطر الإسكندرية ، حاضرة الديار المصرية في ذلك الحين ، وكانت محصنة تحصيناً قوياً ، كما كانت على اتصال دائم بالإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كانت تمدها بما تحتاج إليه من جند وعتاد ، ولكن المساعدة التي قدمها القبط الذين رأوا في العرب محررين لبلادهم من ظلم الروم ، كان لها أثر عظيم في تيسير فتح هذه المدينة بعد أربعة عشر شهراً لم ينقطع فيها القتال .

ولكن عمراً رأى يبعد نظره أن يؤمن حدود مصر الغربية بفتح برقة وطرابلس ، ومد نفوذ العرب إلى بلاد النوبة لتأمين حدود مصر من ناحية الجنوب ، وأصبح بحيث يستطيع التفرغ لما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح .

٢ — منسآت عمرو في مصر :

كان أول ما قام به عمرو في سبيل هذا الإصلاح تأسيس مدينة الفسطاط ، واتخاذها حاضرة لمصر . ولا غرو ، فإن مدينة الإسكندرية لم تعد صالحة لأن تكون حاضرة مصر كما كانت منذ أيام الإسكندر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ، فلم يكن بد إذن من اتخاذ الحاضرة الجديدة في نقطة برية سهلة التواصل مع بلاد العرب ، ومن ثم وقع اختيار عمرو على موضع الفسطاط ، أقربها من النيل والجبل والمزارع . وتمتد هذه المدينة شرقاً حتى سفح جبل المقطم ، وشمالاً حتى جهة

فم الخليج ، وقناطر السباع ، وجبل يشكر ، وغرباً حتى النيل ، وجنوباً حتى ساحل أثر النبي . وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون في تسمية الفسطاط بهذا الاسم ، ولكن أقرب أقوالهم إلى العقل ما ذكره بعضهم من أنها مأخوذة من لفظ (Fossatum) اليوناني (ومعناه مدينة حصينة) الذي أخذه العرب عن الروم في أثناء حروبهم ببلاد الشام^(١) .

وقد اتخذ عمرو داره في مدينة الفسطاط ، واختط لكل قبيلة من القبائل العربية خطة تنزل فيها ، وكانت شوارع المدينة أشبه بحدائق مصر اليوم ، تتكون بيوتها من طبقة واحدة ، ثم أخذت تزداد في الاتساع والعلو حتى بلغت طبقاتها ثمانيا ، وكان الأهالي لا يسكنون في أسفل الدار لعدم جفافه ، وقلة ضوء الشمس والهواء فيه ، وإنما كانوا يتخذونه مخزناً للثمن .

وإلى الشمال من حصن بابليون أسس عمرو أول مسجد بني في مصر الإسلامية ، وهو المسجد العتيق ، المعروف الآن بجامع عمرو^(٢) . «يبدأ أن المسجد لم يكن مكاناً للعبادة فحسب ، بل كان أيضاً مركز الحركة السياسية والاجتماعية ، وتلك كانت عادة المسلمين ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل السفراء في المسجد ، ويدبر أمور الدولة ، ويخطب في شئون المسلمين السياسية والدينية في المسجد أيضاً ، فعلى منصة المنبر أعلن عمر تقهقر جيوش المسلمين في العراق ، واستحث قومه على السير إلى تلك البلاد ؛ وعلى المنبر وقف عثمان يدافع عن نفسه ، كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر خطبته الأولى ، التي كانت

(١) أما ما قيل من أن يمامة باضت بأعلى فسطاط عمرو ، فلم يشأ أن يقوضه حتى يطير فراخها ، أو لأن العرب تقول لكل مدينة « فسطاط » ، أو لأنهم لما سئلوا حين عادوا من الإسكندرية : أين تنزلون ؟ فقالوا : الفسطاط ، يعنون فسطاط عمرو الذي خلفه ، فبعد أن يكون سبباً .

(٢) كان طول جامع عمرو أول الأمر خمسين ذراعاً ، وعرضه ثلاثين . وكان له ستة أبواب ، ولم يكن له صحن ولا محراب مجوف ، وكان سقفه منخفضاً ، وقد تولاه ولاية مصر بالزيادة حيناً بعد حين ، غير أنه لم يبق من البناء القديم اليوم شيء ، وإن البناء الذي يشاهد الآن قد بني بعضه منذ سبعة قرون ، وبعض منذ خمسة ، وبني أغلبه منذ سنة ١٢١١ هـ . على أن المسلمين يعنون بهذا المسجد عناية كبيرة تبركاً بموضعه القديم الذي بني فيه .

بياناً لسياسته في الحكم ، ، فكانت المساجد أشبه بناد يجتمع فيه كبار الرجال ،
واتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم ، ثم صارت معاهد للتعليم يتلقى فيها
الأطفال اللغة ، وأصول الدين . واتخذها أيضاً القضاة مكاناً للحكم بين الناس .
كذلك أعاد عمرو حفر الخليج الذي كان يصل النيل بالبحر الأحمر . وقد
قيل إن أول من حفره هو طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر ، الذي قدم في عهده
خليل الله إبراهيم . وقيل أيضاً إنه حفر في عهد نحاو بن بسامتيك . وكان يبدأ
شمال مدينة بسط (وكان موقعها بجوار مدينة الزقازيق) ، وأتمه دارا في عهد
الفرس ، حتى أصبح يصب في البحر الأحمر ، ثم اتصل فيما بعد بخليج تراجان
الذي كان يبدأ على مقربة من حصن بابليون ويمر ببليس ، ثم يستمر في سيره
إلى أن يتصل بخليج نحاو ، فيتكون منهما خليج واحد هو الخليج الذي أعاد حفره
عمرو بن العاص ، وعرف فيما بعد باسم خليج أمير المؤمنين ، نسبة إلى الخليفة
عمر بن الخطاب ، ثم عرف باسم خليج القاهرة . وقد قيل إن عمر أجدد هذا
الخليج في ستة أشهر (سنة ٢٣ هـ) ، وحملت فيه الميرة إلى بلاد الحجاز في عهد
عمر ، ثم أهمله ولادة مصر بعد عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) ، فغلب
عليه الرمل ، وظل كذلك حتى طمرته الحكومة المصرية نهائياً سنة ١٨٩٧ .
ومن إصلاحات عمرو في مصر إنشاء مقاييس النيل . فقد رأى أن النيل
حياة مصر ، لأن محصول البلاد مرتبط بزيادته ونقصانه ، حتى عني حكمها منذ
أقدم العصور بإقامة المقاييس في مواضع متعددة على جانبي النهر ، ليقفوا بها على
حالته اليومية ، ويستطيعوا ضبط الخراج ، وتوزيعه على البلاد . لهذا أقام عمرو
المقاييس في مواضع متعددة تحقيقاً لهذه الغاية .

٣ — النظام الإداري :

وأصلح عمرو أيضاً النظام الإداري في مصر ، وإن كان دولاب الأعمال
الحكومية قد ظل في جملة بعد الفتح على ما كان عليه في عهد الحكم الروماني ،
اللهم إلا ما كان في عهد الفاطميين . فالمدير أو المحافظ ، والمأمور أو نائب

المدير، والخولى أو المفتش الزراعى ، لا يختلفون حتى اليوم فى مصر من جهة اختصاصهم عما كانوا عليه فى عهد الرومان ، إلا فى الأسماء الرومانية التى كانت تطلق على من كانوا يشغلون هذه المناصب قبل الفتح الإسلامى . وقد أوضح جرافتن ملر (Grafton Milne) فى كتابه : (History of Egypt) (Under Roman Rule) أن لفظ مديرين يطابق لفظ (Epistrategoi) عند الرومان وأن المأمور كان يؤدى أعمال الـ (Toparch) ، والخولى أو المفتش الزراعى هو نفس الـ (Sitologos) عند الرومان .

وكان الوالى أعظم موظفى الدولة فى الحكومات الإسلامية ، يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه فى حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء ، والصلاة ، والخراج ، والجند ، والشرطة ، وما إلى ذلك من الأعمال .

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالى لارتباطها بالإمامة الدينية ، وهى منشأ الحكم فى الإسلام ، فكان الوالى يقيم الصلاة فى الجمع والأعياد ، ويؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وينيب عنه بعض كبار المسلمين بعد أن تعددت المساجد الجامعة على أثر انتشار الإسلام فى مصر ودخول كثير من المصريين فيه .

وكانت ولاية عمرو على مصر عامة ، فكان يشرف على القضاء والخراج والجند والشرطة . وقد نظم القضاء على وفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وقسم البلاد المصرية كورا ، وأقام على كل منها قاضياً قبطياً يفصل فى النزاع الدينى والمدنى لغير المسلمين على وفق شرائعهم . وإذا حدث نزاع دينى بين عربى وقبطى تقدم المتقاضون إلى مجلس مؤلف من قضاة يمثلون الفريقين المتنازعين . وسار عمرو مع المصريين فى جباية الخراج بمقتضى شروط الصلح . وكان الخراج يأتى من ناحيتين : الأولى الضرائب الشخصية ، وهى جزية الروموس التى فرضت على أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق ، والثانية ضرائب الأتبان . فكان كل من فرضت عليه الجزية يدفع دينارين فى كل سنة ، وهو مبلغ زهيد لا يزيد على ثمانية قروش فى الشهر ، وذلك فى مقابل تأمين أهل الذمة على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، والدفاع عنهم لصد كل معتد على البلاد . ومع

ذلك فقد أعفى من دفع هذه الضريبة النساء والأطفال والشيوخ . وراعى عمرو في جباية ضريبة الأتبان حالة النيل من حيث زيادته ونقصانه ، حتى إنه اضطر أحياناً إلى تأجيل دفعه . وقد أجمع المؤرخون على أن خراج مصر بلغ في السنة الأولى من ولاية عمرو عشرة ملايين دينار ، ووصل في السنة التالية اثني عشر مليوناً ، وأن هذا القدر لم يرض الخليفة عمر الذي بلغه أنه وصل في عهد المقوقس إلى عشرين مليوناً ، وقام الخلاف بين عمرو وعمر بسبب ذلك ، ودارت بينهما مكاتبات طويلة .

كذلك نظم عمرو الجيش ، وأنشأ له ديواناً يشرف على شئون الجند ، الذين كانوا يرابطون في معسكرات خاصة بهم ، وكان عملهم مقصوراً على الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين .

وكان صاحب الشرطة أشبه بالمحافظ في عصرنا ، يعتمد عليه الوالى في حفظ النظام ، واستتباب الأمن ، والقبض على الجناة والعابثين والمفسدين ، ويتوب عن الوالى في الفسطاط إذا غاب . لذلك كانوا يعبرون عن وظيفة صاحب الشرطة بخلافة الفسطاط ، كما كان يصلى بالناس إذا غاب الوالى ، ويتولى إعطيات الجند ، وما إلى ذلك من الأعمال .

٤ — سياسة عمرو في مصر :

اشتهر عمرو بن العاص بالحزم وحسن السياسة ، فتجيب إلى القبط وأطلق لهم حرية الدين ، وأقام العدل بينهم ، فتمتعوا بالهدوء والطمانينة ، وتخلصوا من غسف الروم وظلمهم . ويتبين لنا ذلك واضحاً جلياً من الكتاب المنسوب إليه ، الذى أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، يصف فيه مصر ، ويشرح له السياسة التى عزم على السير على نهجها فى وادى النيل : « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر . له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه ، تمده

عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا ما أصلحتم عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق النهر، كأنهن في الخايل ورق الأصائل، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما يبدأ في جريته، وطما في درته. فعند ذلك تخرج بأهل ملة محقورة، وذمة محقورة، يحرثون بطون الأرض، ويبدرون فيها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدتهم. فإذا أحرق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى. فبينما مصر يأمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الفعال لما يشاء، الذي يصلح هذه البلاد وينمها، ويقر قاطنينا فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، ولا يستأذى خراج ثمره إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها. فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل.

فلما ورد هذا الكتاب على الخليفة عمر قال «لله درك يابن العاص، لقد وصفت لي خبرا كأنني أشاهده»، وقد روى هذا الكتاب كثير من المؤرخين الغربيين وترجمه الكاتب الفرنسي أوكتاف أوزان في جريدة الفيجارو الفرنسية، وقال إنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم، واقترح تدريسه في كافة المدارس، لكي يتعلم منه الطلاب دقة الوصف، ومتانة التعبير، وصحة الحكم. على أنه برغم ما قام به عمرو في مصر من ضروب الإصلاح، فإنه لم يتمتع بولايته طويلا، فلم يكد عثمان بن عفان يتولى الخلافة حتى عزله، وولى عبدالله ابن سعد بن أبي سرح مكانه. ثم قامت هذه الفتنة التي انتهت بقتل عثمان، وتولية علي بن أبي طالب الخلافة، فانضم عمرو إلى معاوية في عداته لعل، والمطالبة بدم عثمان، وحاربا عليا في موقعة صفين، التي تم فيها النصر لمعاوية. وكان من أثرها أن تحولت الخلافة إلى البيت الأموي، وكوفي عمرو بولاية مصر، التي جعلها له معاوية طعمة مدة سبع سنين، على أن يدفع أرزاق الجند والموظفين،

وما تتطلبه البلاد من ضروب الإصلاح، ويبقى لنفسه مابقى من المال، وأصبح عمرو يتمتع في هذه البلاد باستقلال يكاد يكون تاما .

٥ — مصر منذ وفاة عمرو بن العاص الى قيام الدولة الطولونية :

(١) مصر في العصر الأموي :

يبد أن ولاية عمرو الثانية على مصر، لم تدم أكثر من ثلاث سنين، فقد توفي سنة ٤٣ هـ، وتعاقب على هذه البلاد كثير من الولاة إلى أن دخلت تحت حكم الطولونيين سنة ٢٥٤ هـ. وبرغم طول هذا العصر الذي يربو على قرنين، لم تتقدم مصر فيه كثيرا، لقصر عهد الولاة، وتزعزع مركزهم، واشتطاطهم في جمع الضرائب. ولهذا ظل تاريخ مصر طوال هذا العصر يحوطه شيء كثير من الغموض والإبهام، وكثر نشوب الفتن والثورات التي كان يذكي نارها القبط، وهم السواد الأعظم من الأهليين حيناً، والعرب حيناً آخر، فضلا عما كان لتدخل مصر في الخلافات الخارجية التي قامت بين الخلفاء والخارجين عليهم من أثر.

يبد أن هذا كله لا يحول دون تصوير هذا العصر تصويرا يقرب إلى الذهن حقيقة الحال التي كانت عليها هذه البلاد.

لم تكن مظاهر هذا العصر مقصورة على قيام الفتن والثورات الداخلية والخارجية، وظهور روح القومية بين القبط، وخاصة بعد كتابة الدواوين باللغة العربية في عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ، بعد أن كانت تكتب بالقبطية، وما انطوى عليه هذا العمل من إقصاء هؤلاء القبط عن كثير من أعمال الدولة، بعد أن كانوا يقومون بحياية الخراج ويتولون الوظائف الكتابية، وما كان أيضا من ظهور روح العصية بين القبائل العربية؛ وعلى الرغم من هذا كله، كان لهذا العصر مزاياه ومظاهر حضارته.

مسلمة بن مخلد : ولا غرو، فقد ولى في هذا العصر عدد غير قليل من الولاة

اشتهروا بحسن السياسة ، فنشروا العدل بين الناس ، واهتموا بترقية الزراعة والصناعة وفن العمارة وغيرها ، ومن هؤلاء الولاة مسلمة بن مخلد ، الذى كان أحد القواد الأربعة ، الذين أمد بهم الخليفة عمر بن الخطاب عمرو بن العاص وهو على حصار حصن بابلون . فقد ولى مصر زهاء خمس عشرة سنة ، واشتهر بعطفه على القبط ، وأذن لهم ببناء كنيسة فى مدينة الفسطاط ، ولم يحفل بإنكار الجند عليه إقرار القبط على بناء الكنائس ، مع منافاة ذلك لشروط الصلح ، وبني مسلمة فى جزيرة الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة (صناعة السفن) ، كما اهتم ببناء المساجد وإصلاحها ، فهدم جامع عمرو بن العاص ، وبناءه بناء جديداً سنة ٥٣ هـ ، وأمر فى السنة نفسها ببناء منارات المساجد كلها . وكان يقيم الصلاة بنفسه طوال مدة ولايته ، ونظم الأذان ، فأمر مؤذنى جامع عمرو أن يؤذنوا بالفجر إذا مضى نصف الليل ، فإذا فرغوا من أذانهم أذن كل مؤذن الفسطاط فى وقت واحد ، ومنع دق الناقوس عند أذان الفجر .

عبد العزيز بن مروان : وكان عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من أحسن ولاة مصر فى هذا العصر . فقد صحب أباه مروان بن الحكم حين جاء لاسترداد مصر من عامل عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد دعا لنفسه بالخلافة سنة ٦٤ هـ ، وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً فى بلاد العرب والعراق ، وفى مصر حيث انضم إليه أنصار العلويين ، لاعتقادهم أنه يدعو لأهل البيت . وقد دخل مروان مدينة الفسطاط سنة ٦٥ هـ . وبني الدار البيضاء ، واتخذها مقراً للإمارة .

ولما عزم مروان على العودة إلى بلاد الشام ، ولى ابنه عبد العزيز على مصر ، صلاتها وخراجها ، وجعلها طعمة له ، ولكن عبد العزيز خشى أنصار ابن الزبير ، وخاف عاقبة عدائهم إذا بقى فى مصر ، فحفف أبوه من خوفه ، وأوصاه بوصية رسم له فيها الخطة التى يتألف بها قلوب المصريين قاطبة ، وأوضح له أن هذا الأمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا أسرهم بجوده وإحسانه ، وجذبهم إليه بالمودة ولين الجانب والبشاشة ، وأوصاه بأن يظهر لكل زعيم أنه خاصته دون

غيره من الزعماء ، وبذلك يجتهد كلهم في خدمته ويجمع على طاعته .
وفي ذلك يقول الكندي : « قال عبد العزيز : يأمر المؤمنين ! كيف المقام ببلد
ليس به أحد من بني أبي ؟ فقال له مروان : يا بني ، عمهم بإحسانك يكونوا
كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل
رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عينا لك على غيره ، وينقاد قومه
إليك . وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا ، وجعلت لك موسى بن نصير
وزيرا ومشيرا ، وما عليك يا بني أن تكون بأقصى الأرض ؛ أليس ذلك أحسن
من إغلاقك بابك ، وخمولك في منزلك ؟ » .

وقد عمل عبد العزيز بنصائح أبيه ، فنجحت سياسته في مصر النجاح كله ،
واستطاع أن يدخل كثيراً من ضروب الإصلاح ؛ فبنى مقياساً للنيل ، وزاد
في جامع عمرو من ناحية الغرب ، وأدخل في شماله رحبة فسيحة ، وأقام على
خليج أمير المؤمنين قنطرة عند الحمراء القصوى ، بطرف مدينة الفسطاط ،
ونقش عليها اسمه سنة ٦٩ هـ ، واتخذ مدينة حلوان حاضرة لولايتة سنة ٧٣ هـ بعد
أن أصيب بالجدام^(١) ، ونقل إليها بيت المال ، وأنشأ بها بركة كبيرة ، ساق إليها
الماء من العيون القريبة من المقطم ، على قناطر معلقة (Aqueducts)^(٢) تصل
عيون الماء بالبركة . وغرس عبد العزيز في حلوان الأشجار والنخيل ، وبنى بها
المساجد وغيرها من الأبنية الفخمة ، حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار .
وبلغ من عناية عبد العزيز بن مروان بالعمارة والتماثيل ، أنه بنى في مدينة
الفسطاط حماماً لابنه زبّان ، وأقام على بابه تماثلاً عجيباً من الزجاج ، على صورة
امرأة ، وأطلق عليه اسم أبي مرة ، ثم أطلق هذا الاسم على القيسارية التي كان
يمتلكها عبد العزيز^(٣) .

وكان عهد عبد العزيز بن مروان عهد يسر ورخاء لمصر ، التي ظهرت بمظهر

(١) وهذا يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من أنه انتقل إلى حلوان لتفشي الوباء في الفسطاط .

(٢) أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر ، وكانت منتشرة في بلاد الدولة
الرومانية في القرن الثاني الميلادي .

(٣) كانت هذه القيسارية تعرف في زمن ابن دقاق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ باسم حمام بئينة .

النشاط الأدبي والمادى . وقد تغنى المؤرخون والشعراء بأعمال البر والإحسان والكرم ، التى قام بها هذا الوالى ، فقال بعض المؤرخين : « إنه كان له ألف جفنة تنصب حول داره ، ومائة جفنة تحمل على العجلات ، ويطاف بها على قبائل مصر » . وقال أحد الشعراء :

كل يوم كأنه يوم أضحي عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مُترعات كل يوم تمدها ألف قدر

على أن مصر لم تنعم بهذا الرخاء طويلاً بعد موت عبد العزيز ؛ فقد زج الجند العربى فيها بنفسه فى النزاع الذى انتهى بسقوط الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، فإنه لما أتى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر فاراً من وجه العباسيين ، تعقبه صالح بن على العباسى ، ولحق به فى قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وقتله فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، ثم تعقب ذوى قرباه وأنصاره ، ودخل الفسطاط ، ووطد دعائم الدولة العباسية فى هذه البلاد .

(ب) مصر فى العصر العباسى (١٣٢ — ٢٥٤ هـ) :

وكان من أثر تحول الخلافة من الأمويين إلى العباسيين أن قامت فى مصر حاضرة جديدة حلت محل الفسطاط ، هى مدينة العسكر ، فقد رأى صالح ابن على العباسى (فى المحرم سنة ١٣٢ — شعبان سنة ١٣٣ هـ ، ١٣٦ - ١٣٧ هـ) أن مدينة الفسطاط تضيق بعسكره ، فاختر الموضع الذى كان يعرف بالحجراء القصوى^(١) . ولما خلف صالح على ولاية مصر أبو عوف أمر أصحابه بالبناء ، ثم بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى مدينة العسكر جامعاً ، عرف بجامع العسكر سنة ١٦٩ هـ ، وأخذ الناس فى عمارة الدور حتى اتصلت هذه الحاضرة الجديدة بالفسطاط .

ومن ولاية العصر العباسى فى مصر موسى بن عيسى ، الذى ولى هذه البلاد ثلاث مرات (سنة ١٧١ و ١٧٥ و ١٧٩ هـ) . وقد اشتهر بالعدل وحسن الإدارة ، واكتسب محبة الأهلين ، وتجنب إلى النصارى ، فأذن لهم ببناء الكنائس التى

(١) تخربت هذه الحجراء قبل قدوم مروان بن محمد إلى مصر واستعالت صحراء .

هدمها سلفه ، وأشار عليه بذلك قاضياه الليث بن سعد وعبد الله بن هبة ، بحجة أن إعادة الكنائس المستحدثة من عمارة البلاد ، كما زاد في جامع عمرو ابن العاص .

بيد أن مصر لم تكن في هذا العصر آمنة كل الأمن ، فقد زجت بنفسها في النزاع الذي قام بين العلويين والعباسيين ، حين دعا محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي ، المعروف بالنفس الزكية ، إلى نفسه سرّاً ، وتلقب بأمير المؤمنين ؛ ثم ظهر سنة ١٤٥ هـ . وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً في الحجاز ، وقام أخوه إبراهيم بنشر الدعوة له في بلاد العراق . وعلى رغم قتل محمد وأخيه علي يد عيسى بن موسى العباسي ، ناصر الجند العربي في مصر ابنه علياً حين قام بنشر الدعوة لأبيه .

كذلك كان للجند العربي في مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأمين وأخيه المأمون . غضب هؤلاء الجند لخلع الأمين أخاه ، وترك الدعاء له على المنابر ، وتولية عهده ابنه موسى بدلامنه ، ونكثه العهد الذي أودعه أبوه الرشيد الكعبة المشرفة ، فخلعوا الأمين سنة ١٩٦ هـ ، وأخرجوا واليه من مصر .

على أننا إذا أنعمنا النظر في هذه الفتن السياسية ، نرى أنها قد ألبست لباس الدين ، ليكون تأثيره في النفوس أقوى وأشد . هذا إلى الاختلافات المذهبية التي أدت إلى انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين ؛ نعم ، كان لكل من هذين المذهبين في مصر أشباع وأنصار ، كما كان لمذهب الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبي طالب ، أنصار في مصر . أضف إلى ذلك ظهور المذاهب الأربعة ، وما كان لها من أثر في هذه البلاد . بيد أن مذهب مالك قد أصبحت له السيادة في القرن الثاني للهجرة ، وظل على ذلك نحواً من قرن ، ثم تحولت هذه السيادة إلى المذهب الشافعي . على أن تأثير هذه المذاهب لم يظهر في ثوب عدائي مصحوب بقيام الفتن والثورات .

ظلت الحال كذلك في مصر حتى جاء عهد المأمون ؛ فقد ثار المصريون سنة ٢١٠ هـ ، فبعث عبد الله بن طاهر بن الحسين لإخماد الثورة ، فاستولى على

الفسطاط ، وأقر الأمن في نصابه ، ثم تفرغ لإصلاح البلاد ، وزاد في جامع عمرو . ولكن ولايته لم يطل أمدها ، فعاد إلى بلاد العراق ، وعادت الثورات في مصر سيرتها الأولى ، وانتقض القبط ، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأميين ، فندب المأمون قائده الأفشين ، ثم جاء هو نفسه إلى هذه البلاد ، وأعاد الأمن إلى نصابه .

ويقول المقرئى : إن سيدة قبطية أضافت الخليفة المأمون . وأخاه المعتصم ، وابنه المتوكل ، وقاضيه يحيى بن أكرم في دارها ، وأهدت إليهم عشر صينيات ، على كل منها صرة فيها ألف دينار ، وكانت عشرة آلاف الدينار من ضرب سنة واحدة . وهذا يدل على وفرة الثروة التي كانت لهذه السيدة وغيرها من بنى جلدتها . وقد أضاف هذا المؤرخ أن الخليفة المأمون أقطع هذه السيدة ضياعاً ، وأعفاها من دفع الخراج عن بعض ما تملكه من الأرض .

ولما ولي المعتصم الخلافة تحول النفوذ من العنصر العربى إلى الأتراك . وقد بلغ عدد جند العرب في مصر في عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، ثم أخذ هذا العدد يتزايد من جراء قدوم نساء هؤلاء الجند وأولادهم ، واتخاذهم مصر وطناً ثانياً لهم . أضف إلى ذلك اندماج هؤلاء العرب في أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة ، على أنه برغم هذه الزيادة المطردة فى العرب النازحين إلى مصر ، طالب عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموى (١٠٥ — ١٢٥ هـ) أن يؤذن له فى إسكان العرب من قبيلة قيس فى أرض الحوف الشرقى ، جهة بليس ، حيث كان يقيم نفر من جديلة ؛ وسرعان ما بلغ عدد هؤلاء النزلاء خمسة آلاف ، اشتغلوا باستثمار الأرض ، وتاجروا فى الإبل والخيل ، وحملوا عليها غلات أرضهم إلى القلزم (مدينة السويس الآن) حيث كانت تنقل إلى بلاد العرب . ثم أخذت القبائل العربية تفد إلى مصر شيئاً فشيئاً ، فجاءت قبيلة الكنز من قيس فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وأقاموا فى الصعيد ، واندمجوا فى الأهلى ، وأصهروا إليهم . على أن اندماج العرب فى المصريين اندماجاً فعلياً ، قد زاد زيادة واضحة ، بعد

أن أسقط المعتصم أسماء العرب من ديوان العطاء، واعتمد على الأتراك، فانتشر العرب في الريف، واحترفوا بالزراعة وغيرها طلباً للرزق، وأخذ العنصر العربي يضعف شيئاً فشيئاً، وبدأ ظل الولاة من العرب يزول بإحلال ولاة من الأتراك محلهم، ولم يحكم مصر وال من العرب بعد ذلك إلا عنبسة (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ).

بيد أن مصر قد دخلت قبل تولية عنبسة بعشرين سنة في عصر جديد. فقد كان الأتراك يُقطعون الولايات الإسلامية، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي ذاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم، فولى الرشيد عبد الملك بن صالح مصر (١٧٨ — ١٧٩ هـ) صلاتها وخراجها، وولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ — ٢١٣ هـ) على هذا النحو الإقطاعي، وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون في تلك السياسة، فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ)، وقلد الواثق إيتاخ (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ). وكان الولاة يستخلفون نواباً عنهم، يحكمون البلاد باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر، وينقشون اسمهم على السكة، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يتركوا دار الخلافة بسامرا وما فيها من نعيم وترف، ويأتوا إلى مصر للإقامة فيها. وفي سنة ٢٥٤ هـ ولى مصر بكباك، أحد هؤلاء الأتراك، فأتاب عنه أحمد ابن طولون. ولا شك أن هذا التطور في تعيين الولاة من الترك دون غيرهم من العرب، كان نتيجة هذه السياسة التي جرى عليها المعتصم، من إسقاط العرب من ديوان العطاء، كما أسلفنا، واستبداله بهم الموالى من أتراك بلاد ما وراء النهر، (نهر سيحون)، الذين قبضوا على زمام الأحكام، ورشحوا للناصب على اختلافها، ووصلوا إلى أعلى مراتبها، من الاندماج في سلك البلاط، إلى تقلد أكبر الولايات، وتغلغل نفوذهم في كل شيء، حتى في قصور الخلفاء، الذين أصبحوا في قبضة يدهم وتحت رحمتهم.

(ب) الدولة الطولونية في مصر

١ — أحمد بن طولون :

كان أحمد بن طولون أحد أولئك الأتراك ؛ وقد اشتهر منذ نعومة أظفاره بعلو الهمة ، وحسن الأدب ، وأحب الغزو ، وصحب الزهاد والعلماء ، وأهل الورع ، فتأدب بأدابهم . وفي سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تقلد مصر نيابة عن واليها باكباك ، ولم يلبث أن تمتع بالسلطة التامة ، ولم يعد يربطه بالخلافة إلا هذه المظاهر الثلاثة ، وهي : ذكر اسم الخليفة في الخطبة ، ونقشه على السكة ، وإرسال جزء من الخراج لدار الخلافة . وعلى الرغم من أن الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) التي أسسها أحمد بن طولون لم تدم إلا ثمانياً وثلاثين سنة ، أخذت مصر في الشطر الأول من هذا العصر بقسط وافر من التقدم والإصلاح .

ولم يكد أحمد بن طولون يقضى على الصعاب التي اعترضته في سبيل تثبيت ولايته في مصر ، حتى قامت في وجهه صعوبة أخرى ، كادت تقضى على آماله ، لولا ما أوتيته من حسن السياسة ، وعلو الهمة . ورباطة الجأش . فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة ، أخو الخليفة العباسي المعتمد ، الذي ضيق على أخيه الخليفة ، وشل يده عن مباشرة أمور الدولة ، حتى أصبح مسلوب السلطة معدوم النفوذ ، ففكر هذا في الاحتماء بابن طولون ، فرحب ابن طولون بانحيازهم إلى مصر ، ونقل كرسى الخلافة إليها ، لأن وجود الخليفة تحت حمايته يزيد في نفوذه ويقلل من نفوذ خصمه الموفق . ويقول ستانلي لينبول : « ولا شك أن ابن طولون رحب بفكرة إيواء الخليفة ، لأن هذا يعود عليه بالنفع :

(أولاً) لأنه يكفيه مئونة الجزية السنوية التي كان يدفعها لدار الخلافة .

(وثانياً) لأنه يقلل من نفوذ أبي أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة العباسي .

(وثالثاً) لأن وجود الخليفة تحت حمايته في مصر يزيد في نفوذ كل وال

طموح ؛ وربما غير هذا مستقبل الخلافة ومستقبل مصر إلى حد كبير .

وقد انتهز الخليفة فرصة اشتغال أخيه الموفق بحرب صاحب الزنج الذي شق عصا الطاعة في الولايات الشرقية ، وخرج من سامرا في جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ ، متظاهرا بأنه يريد الصيد ، غير أن الموفق أرسل إلى ابن كنداج ، عامل الموصل والجزيرة ، رسولا يأمره برد الخليفة ، والقبض على من معه من القواد ، فساقه إلى سامرا ، وكوفى ابن كنداج بولاية مصر والشام ، ولكنه لم يستطع دخول مصر والاستيلاء عليها لمناعتها ، وقوة حاميتها ، ورهبة جيشها الذي أعده ابن طولون لصد كل من تحدته نفسه يوما بمهاجمتها .

ثم عرضت لابن طولون علة التي أودت بحياته سنة ٢٧٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة ، كانت حافلة بالنصر والظفر . وكان ابن طولون بعيد النظر ، عالى الهمة ، قوى البأس ، شديد المراس . اتسع ملكه حتى امتد من العراق إلى برقة ، ومن بلاد النوبة إلى آسيا الصغرى ، وخشى بأسه إمبراطور الروم ، على ما بين بلديهما من بعد الشقة ، ووعورة الطريق ، فأهدى إليه عدة مصاحف للقرآن الكريم ، وأرسل إليه من تحت يده من المسلمين . وكان ابن طولون سياسيا محنكا ، وقائدا ماهرا ، خبيرا بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش ، كما كان إداريا حازما ، وقف على موارد الثروة على اختلافها ، وعرف كيف يستغلها لمصلحة دولته ، من غير أن يرهق الأهلىن بالمكوس والضرائب ، وعمل على ترفيههم ، ونشر العدل بينهم ، فاستتب الأمن ، واستقرت الأمور ، وسادت الطمأنينة بين الناس ، وشمل الرخاء البلاد في عهده ، حتى بيع عشرة الأراذب من القمح بدينار واحد . هذا إلى تحصينه الثغور ، واتخاذ جيشا كامل العدد والعدة ، وضرب بسهم صائب في الإصلاح ، فاهتم بالزراعة ، وعنى بإقامة الجسور وحفر الترع .

وكان مضرب الأمثال في الكرم والجود ، وفي الشجاعة والبسالة ، وفي صدق الفراسة ، وفي العدل والتواضع . وكان يقرب إليه العلماء ، ويجزل لهم العطاء ، كما كان كثير التصديق على الفقراء . فقد أثر عنه أنه كان يتصدق كل شهر بألف دينار . وكان إلى ذلك يبذل في أعمال الخير ألف دينار في كل يوم . وقال المقرئى :

كانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويعرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة ، في اثنين منها فالزوج ، والاثنان الآخران على القدر . وكانت تعمل في داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ، وتفتح الأبواب ، ويدخل الناس وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ، ويعد ابن طولون من حفظة القرآن المعدودين ، ولذلك كان من أكثر الولاة احتراماً لحفاظه ؛ ذلك إلى كثير من الأخلاق الحميدة ، والصفات الكريمة ، التي يحتاج استقصاؤها إلى مجلدات .

٢ - ضمخارويه :

بعد وفاة أحمد بن طولون ، اجتمع الجند - على ما قضت به العادة في ذلك الوقت - وولوا مكانه ابنه ضمخارويه ، ولم يسع الخليفة العباسي إلا الموافقة على تعيين الوالي الجديد . وما انفكت مصر في عهد ضمخارويه مثار حسد الموفق ، كما كانت في عهد أبيه ، فواصل لعن الموفق على المنابر ، وبعث الواسطي كاتب أبيه إلى الشام بجيش كثيف ، وعززه من البحر بأسطول قوى . وخرج الموفق من بغداد ، وانضم إليه ابن كنداج والى الموصل ، ومحمد بن أبي الساج والى أرمينية والجلال ، واستولوا على دمشق ، فلم ير ضمخارويه بدا من الخروج بنفسه ، فدخل دمشق سنة ٢٧٣ هـ ، ثم واصل السير لقتال ابن كنداج في أعماله وتم الصلح بين والى مصر ودار الخلافة ، وكتب الموفق والخليفة المعتمد وابنه المفوض كتاب الصلح بأيديهم ، ويتضمن تولية ضمخارويه وأولاده من بعده على مصر والشام ثلاثين سنة ؛ وحينئذ أمر ضمخارويه بالكف عن لعن الموفق على المنابر ، والدعاء له مع الخليفة .

وكان من أثره - هذا الانتصار أن استولى ضمخارويه على الرقة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ، ودعى له على منابرها ، كما أخضع ابن أبي الساج

(٢٧٦ هـ = ٨٨٨ م) وطارد جيوشه إلى مدينة بلد على نهر دجلة ، حيث بنى على شاطئه سريراً فخماً من الذهب ليجلس عليه ، إشادة بما حازه من نصر مؤزر ، كما كان من أثر هذا الانتصار أن اعترف بسلطانه وإلى طرسوس (٢٧٦ هـ) ، بعد أن كان قد نبذ طاعة الطولونيين سنة (٢٧٠ هـ) . ولم تقتصر أعمال خمارويه الحرية على ما تقدم ، بل اتسع نفوذ مصر في عهده إلى ما وراء ولاية طرسوس ، فغزت جيوشه الولايات الرومانية عدة مرات (٢٧٨-٢٧٩ هـ) . وقد ساعد موت الموفق وابن كنداج (٢٧٨ هـ) والخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ) على توطيد سلطان خمارويه . وقد استطاع أن يكسب رضا الخليفة المعتضد بهداياه ، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة ، وجعلها لأولاده من بعده . وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثنتي عشرة خلعة ، وسيفاً وتاجاً ووشاحاً . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسي ، ولكن الخليفة اختارها لنفسه .

واستطاع خمارويه بما هياه له بيت ماله ، أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لا يخشى فقراً ولا يهاب إعوازا . وإن نظرة واحدة إلى جهاز ابنته قطر الندى لتملاً نفس القارىء دهشة وعجباً ، لغلو خمارويه غلوا يتجلى من قول ابن دقاق في كتابه (الانتصار بواسطة عقد الأمصار) إنه « حمل معها ما لم يُر مثله ، ولا سمع به إلا في وقته » ، وقول المقرئ : « إنه لم يبق خطيرة ^(١) ولا طرفة ^(٢) من كل لون وجنس إلا أحمله معها ، فمن هذا الجهاز دكة ^(٣) من أربع قطع من ذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط معلق ، فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب ، يُدق فيها العود والطيب ؛ وألف تكة ، ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . ولنترك قيمة بقية الجهاز إلى اتساع مدارك القارىء وقوة تصوره

(١) الخطير : النبيل . (٢) الطرفة : الغريب المستحسن .

(٣) بناءً على أصله للجلوس عليه .

وخياله . ولا غرو ، فقد نسج خمارويه على منوال أبيه في حبه للجود والكرم ، وشغفه بمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين . فكان ينفق على مطابخه ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر ، حتى كان الناس يسمون هذه المطابخ « مطبخ العامة » .

أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يُبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالنزل أو مكان الاستراحة ، تنزل فيه في طريقها إلى بغداد . وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه ، فكانت في سفرها ممتعة بكل وسائل الراحة ، وضروب الرفاهية ، كأنها لم تفارق قصر أبيها . ويقدر المؤرخون صدق قطر الندى بمليون درهم^(١) . وليس هذا بالشئ الكثير بجانب ما صرف على جهازها ، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهري الذي عهد إليه في إعداد الجهاز ، نال جائزته ، وهي أربعمئة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس . كل هذا يدلنا على مبلغ ما وصلت إليه مصر في عهد الطولونيين من تقدم الصناعة . ورواج التجارة ، وعمارة الأسواق ، لدرجة لم تبلغها في القرن الخامس الهجري ، وهو العصر الذي عاش فيه الفقيه القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . فقد قال في كتابه (خطط مصر) : ولا يُعرف اليوم في أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير ، إذا طلبت توجد في الحال .

٣ — مضارة مصر في عهد الطولونيين :

بما تقدم نرى أن مصر قد أصبحت تهاها الدولة البيزنطية ، وتحرص الدولة العباسية على المحافظة على ودها ، بخطبة قطر الندى ابنة خمارويه للخليفة العباسي المعتضد ، مع أن مصر لم تعد أن تكون ولاية من الولايات التابعة للدولة العباسية في ذلك الحين . ولا شك أن السر في ذلك ، هو قوة مصر وثروتها ، واتساع رقعة البلاد التي تحت سلطانها ، حتى أصبحت بحيث يرغب في مصاهرتها الخليفة

(١) الدرهم اسم وحدة من العملة الإسلامية ، وكان الدينار يساوي أول الأمر عشرة دراهم ، غير أن ذلك يختلف بين عصر وعصر .

نفسه . هذا إلى ما بلغته مصر في ذلك العصر من الرقي في الصناعة والزراعة والتجارة ، وفي الثقافة العامة .

مدينة القطائع :

وبدلنا على ما وصلت إليه هذه البلاد في عهد الطولونيين من الحضارة والمدينة واستبحار العمران ، ما يحدثنا به المؤرخون من وصف خلاب لمدينة القطائع حاضرة الدولة الطولونية . فقد ذكروا أن مدينة « العسكر » التي أسسها صالح ابن علي العباسي سنة ١٣٢ هـ ، ضاقت بسكانها من أتباع ابن طولون ، فاخط مدينة القطائع ، وبني فيها قصرأ فخماً ، اتخذ أمامه ميداناً فسيحاً يعرض فيه جيشه ، ثم اختط كبار رجال دولته وقواده وغلبانه وأتباعه حول هذا المكان ، واتخذ كل منهم قطعة خاصة به ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . وكانت تمتد غرب القلعة ، وحدّها من الشمال خط ينطبق عليه شارع الصليبة الآن ، ومن الغرب نواحي المشهد الزينبي ، ومن الجنوب مدينة العسكر . وقد عمرت مدينة القطائع وامتدت مبانيها ، حتى اتصلت بمدينة الفسطاط ، التي أسسها عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ .

وبني ابن طولون لنفسه في هذه المدينة قصرأ فخماً ، تأتق في بنائه وتجميله ، وجعل له ميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالة^(١) ، وعمل له أبواباً كثيرة ، كما أسس جامعته المشهور (٢٦٣ — ٢٦٥ هـ) ، الذي لا يزال باقياً إلى اليوم أعجوبة من أعاجيب البناء العربي . وقد بناه ابن طولون لإقامة الصلاة فيه ، لضيق جامع العسكر بالمصلين ، واتخاذهم معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون أشبه بمدرسة تدرس فيها العلوم الدينية ، ومحلا تعلن فيه أمور الدولة ، وتعقد فيه المحاكم ، وما إلى ذلك . وجعل ابن طولون في جامعته ميسنة ، وخزانة بها الأدوية والأشربة التي قد يحتاج إليها المصلون ، وعين له طبيباً خاصاً يقوم

(١) المراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز باسم « بولو » ، وهي شبيهة بلعبة كرة القدم .

بمداواة ما قد يطرأ على المصلين يوم الجمعة ، وهو بمثابة طبيب الإسعاف الآن .
وما زال ابن طولون يعنى بالصحة العامة ، فقد أنشأ المارستان للمرضى
فى أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ ، وجعل له حمامين : خص أحدهما بالرجال ،
والآخر بالنساء ، وأباحهما مجاناً للناس على اختلافهم ، من غير تمييز فى الأديان
والمذاهب . وأدخل ابن طولون فى هذا المارستان ضروباً من النظام ، جعلته
فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض إذا دخل تنزع
ثيابه ، ويودع مامعه من المال عند أمين المارستان ، ثم تقدم له ثياب أخرى ،
ويُنزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة ، كما كان يُعطى الأدوية والأغذية
مجاناً حتى يتم شفاؤه ؛ فإذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما ، أذن له بمغادرة
المارستان ، بعد أن ترد إليه ثيابه وماله . وبلغ من عناية ابن طولون بهذا
المارستان وحرصه على راحة المرضى ، أنه كان يتفقد بنفسه فى يوم الجمعة ،
فيطوف على خزائن الأدوية ، ويتفقد أعمال الأطباء . ويشرف على المرضى ،
ويبالغ فى مواساتهم وإدخال السرور عليهم .

واقضى خمارويه بأبيه أحمد بن طولون فى بذل الأموال الضخمة على
مبانيه ومنتزهاته وغير ذلك ، فحول الميدان الفسيح الذى كان أمام القصر ،
بستاناً غرس فيه الرياحين على اختلافها ، وتأنق فى هذا البستان ، فكسا النخل
نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجذوع النخل أنابيب الرصاص ،
وأجرى فيها الماء ، فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون الماء ، منحدره إلى
نافورات ، يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الرياحان فكان
على صور نقوش وكتابات ، يتعهد بها البستاني بالمقراض حتى تظل هذه النقوش
والكتابات على حالتها الأولى ، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ،
واستورد من جنوى عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من خراسان
وغيرها عيدان الثمار والزهور ، وطعم شجر المشمش باللوز .

وفى قصر ابن طولون بنى خمارويه بيتاً أطلق عليه « الدكة » ، جعله على مثال
قبة الهواء التى أنشأها حاتم بن هرثمة ، عامل الأمين العباسى على مصر ، على جبل

المقطم، حيث قلعة الجبل الآن . وكان يختلف إلى هذه الدكة خمارويه ومن أتى بعده من الأمراء، طالباً للراحة وتبديل الهواء .

وما زال العمران يمتد ويتراعى في مدينة القطائع، حتى وصلت مبانيها إلى مائة ألف منزل، فقد نقل المقرئى عن أبي الخطاب بن دحية في كتابه « النبراس » أنه كان بمدينة القطائع مائة ألف منزل، امتازت بالتأنق في البناء وإحكامه، وكانت محاطة بالجنان والبساتين .

وكانت مدينة القطائع في عهد الطولونيين، حافلة بالعلماء، والمحدثين، والمتصوفة، والأدباء، والشعراء، والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال القاضي بكار بن قتيبة، الذى كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الإسلامى، وأبا الفيض ذا النون المصرى، الذى كان لمدرسته أثر كبير في الدولة الطولونية. ومن المحدثين الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى . ويذكر المؤرخون أن ابن طولون أعطاه في أول درس ألقاه في جامعته كيساً به ألف دينار . وكان لهذا العطاء أثره، فقد ألف الربيع كتاباً في الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة، بنى الله له بيتاً في الجنة » . ومن نبغ في هذا العصر ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ . وهو أول مؤرخى مصر الإسلامية . وكتابه المشهور « فتوح مصر والمغرب والأندلس » من أهم المراجع التى يعتمد عليها . وقد بلغ الأدب بمصر في عهد هذه الدولة درجة عظيمة من التقدم . ولا أدل على ذلك مما رواه المقرئى عن القاضي أبى عمرو عثمان النابلسى، الذى قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » إنه رأى كتاباً لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون . فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة، فكم يكون عددهم؟ وكم يكون مقدار شعرهم وما يكافئون به من الأموال؟

بين الطولونيين والفاطميين :

انتهز الخليفة العباسى المكتفى بالله حالة الضعف التى وصلت إليها مصر، بعد وفاة خمارويه، فرصة سانحة لاستردادها من أيدي الطولونيين، والتقى الأسطولان

العباسي والمصري عند تنيس ، فحلت الهزيمة بالمصريين ، ووقعت تنيس ودمياط في يد القائد العباسي محمد بن سليمان الكاتب ، وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسية (بجوار الزقازيق) ، حيث قتله عمه ، وخلفه على ولاية مصر . وفي عهده سقطت هذه البلاد في يد محمد بن سليمان الذي دخل مدينة القطائع ، وأشعل فيها النار ، وأزال معالم الطولونيين ، وأعاد مصر إلى سلطان العباسيين المطلق . على أن الاضطرابات قد استمرت في هذه البلاد ، بسبب ضعف الخلفاء العباسيين ، وعجزهم عن المحافظة على سلطانهم فيها ، لاستبداد الأتراك بالسلطة ، وضعف مظهر نفسها ، وقيام المنافسة بين الولاة وعمال الخراج . هذا إلى أن مصر قد تعرضت في ذلك الوقت لغزوات الفاطميين ، الذين أسسوا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ ، وحاولوا الاستيلاء على مصر غير مرة ، لاتخاذها مركزاً لنشر دعوتهم ، ومقراً لخلافتهم ، وبسط نفوذهم في الشرق . وظلت مصر على هذه الحال ، إلى أن وليها محمد بن طنج الإخشيد ، تدخلت في عهده في طور جديد من التقدم والإصلاح .

(ح) الدولة الإخشيدية في مصر

١ - الوصف :

كان محمد بن طنج مؤسس الدولة الإخشيدية من أولاد ملوك فرغانة ، وكان ملكهما يُلقب بالإخشيد ، كما كان يلقب ملك الفرس بكسرى ، وملك الروم بقيصر ، وملك الحبشة بالنجاشي . وقد اشتهر أمر الإخشيد في الدولة العباسية منذ سنة ٣٠٦ هـ ، حين ولي إقليم طبرية وجبل الشراة ، نيابة عن تكين والي مصر والشام ، ثم اشترك في صد الفاطميين عن مصر سنة ٣٠٧ هـ ، فولاه تكين الإسكندرية ، ثم عهد إليه الخليفة العباسي المتقي بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ ، إثر انتصاره على الفاطميين ، حين حاولوا غزو مصر سنة ٣٢١ هـ ، كما أمر بزيادة لقب « الإخشيد » على اسمه ، ودُعي له بهذا اللقب على منابر مصر والشام في شهر رمضان سنة ٣٢٧ هـ .

